دراسات في تاريخ الحضارات القديمة (٤)

العرب قبل الإسلام

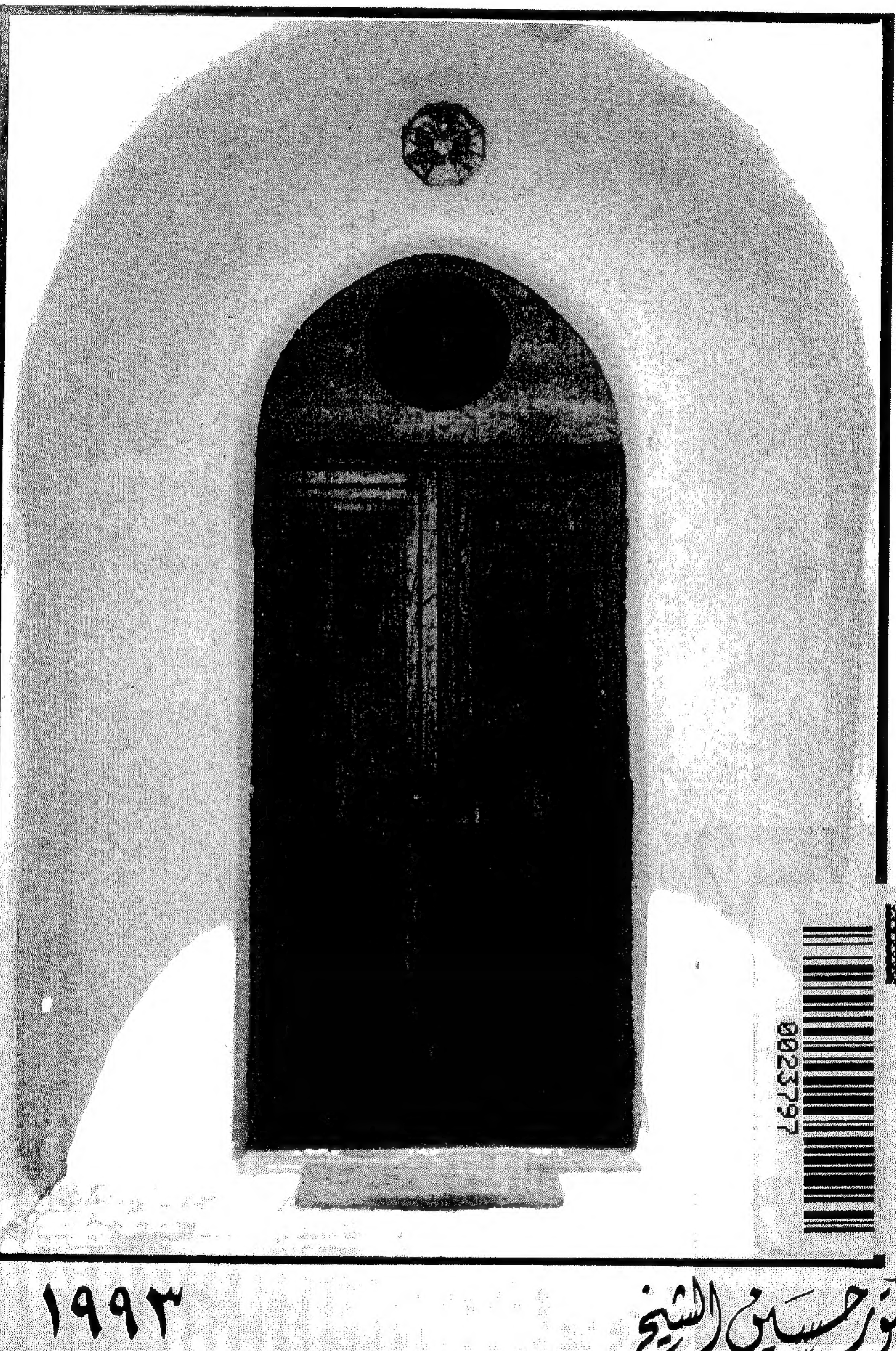

Bibliotheca Alexandrina
0023797

دكتور حسين الشيخ
أستاذ التاريخ القديم المساعد
بجامعتي الإسكندرية وبيروت العربية

١٩٩٣
دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الإسكندرية

العرب قبل الاسلام

دراسات في تاريخ الحضارات القديمة
(٤)

العرب قبل الاسلام

دكتور حسين الشيخ
أستاذ التاريخ القديم المساعد
بجامعتي الاسكندرية وبيروت العربية

دار المعرفة الجامعية
٤٠ شارع سوتير - الأزاريطة
الاسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة عن التاريخ
والحضارة والآثار

عن التاريخ

تستخدم لفظة «التاريخ» عادة للدلالة على ناتج مجموع النشاط الإنساني، في زمن سابق. وبالتالي يصبح التاريخ عبارة عن سجل لكل أفعال الإنسان أو أفكاره أو أحاسيسه أو أمانيه، وإجمالاً يصبح سجلاً لكل ما حدث داخل نطاق إدراك هذا الإنسان(١)

واستعمال لفظة التاريخ - بوجه عام - يجعل اصطلاحاً يبدو كما لو كان مألوفاً لدينا يقفز مباشرة إلى الذهن لإرتباطه الوثيق بتلك اللفظة هو (ما قبل التاريخ) والذي استعمل بطريقة تكاد تكون ثابته في الماضي للدلالة على الفترات السابقة تاريخياً على الكتابات التاريخية المدونة، وطالما لم يكن التاريخ فرعاً من فروع الأدب المكتوب، وطالما أن علم الآثار قد كشف لنا من خلال الحفائر والاكتشافات المستمرة عن تاريخ المجتمعات القديمة فيما قبل اختراع الكتابة بشكل يكاد يتساوى في الوضوح مع المعلومات التي نستقيها من خلال الكتابات التاريخية، لذا يصبح تعبير (ما قبل التاريخ) في غير موضعه الصحيح، إذ تصبح الفترة التي يرمز لها مثل هذا التعبير تاريخاً شأنها في ذلك شأن فترات أخرى ظهرت فيها الكتابة التاريخية ووصلتنا صورة واضحة عنها عبر هذه الكتابة، وبالتالي فقد يكون

---

(١) سنعرض فيما بعد للتفسيرات المختلفة للتاريخ وطبيعة وأهداف دراسته وأدين في الجزء الأول من هذا التقديم للدراسة القيمة التي أجراها بروفسور بارنز حول «تاريخ كتابة التاريخ».

Cf. H. E. Barnes, A History of Historical writing second revised Edition, Dover publications, New york, 1962.

تعبير (ما قبل الكتابة التاريخية) هو الأنسب والأدق أستعمالاً للدلالة على الفترة المشار إليها والتي سبقت ظهور أول تدوين للتاريخ بالشكل المعروف لدينا[1].

لذا يمكن القول بأن أول وثيقة تاريخية وصلتنا هي أول أداة حجرية صنعها الإنسان في العصر الحجري القديم ـ أو حتى فيما قبل هذا العصر ـ واستخدمها في أي شأن من شئونه كالدفاع عن النفس أو الصيد أو غيره من نواحي الحياة في مثل هذا المجتمع، ذلك إن جاز نطلق على تجمع بشري لم يزل في طور التكوين بعد لفظ المجتمع.

وإذا أضفنا إلى هذا أن الجزء الأكبر من عمر الإنسان على الأرض قد انقضى (فيما قبل العصور الحجرية ثم العصر الحجري القديم فالوسيط فالحديث) قبل ظهور الكتابة المدونة ومن ثم الكتابات التاريخية، لأدركنا مدى أهمية دراسة هذه الفترة التي هي في الواقع بداية تاريخ الإنسان في تحوله التدريجي من الهمجية إلى الحضارة.

ورغم أن البقايا الأثرية التي وصلتنا من الفترة السابقة على ظهور الكتابة تعطينا تصوراً شبه كامل عن طبيعة الإنسان الذي استعملها والظروف التي مر بها، إلا أن (فكر) هذا الإنسان يظل غامضاً حتى يبدأ يحاول التعبير عن أحاسيسه وردود أفعاله تجاه ما يمر به من أحداث بشكل ثابت وهنا بدأت الحاجة إلى الكتابة تتضح.

وغالباً ما ترجع أصول الكتابة إلى أواخر العصر الحجري القديم حيث ظهرت أولى مراحلها على شكل صور على جدران كهوف هذه الفترة، وفي البداية كانت هذه الصور تدلل كل منها على شيء مادي محدد، ثم أضيفت صور تعبر عن الأشياء المعنوية غير المادية، ثم ظهرت الحاجة إلى الربط بين هذه الصور وبين صوت الإنسان، فبدأت كل صورة تعبر عن كلمة معينة ثم وبمرور الوقت أمكن تحليل الكلمات إلى أصوات متعددة وصور أو رموز

---

(١) Barnes, op. cit., pp. 3 - 4.

مختلفة، ومن هنا بدأت فكرة الأبجدية في الظهور[١].

وفيما قبل الميلاد ربما بأكثر من ثلاثين قرن عرف المصريون القدماء كيفية استخدام أربعة وعشرين رمزاً هيروغليفيا تدلل على الأصوات الساكنة، ثم ظهرت الأبجدية المسمارية (التي تكتب بحروف أو رموز تشبه المسامير) ثم الأبجدية الفينيقية التي ترجع لحوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ثم ظهر الأغريق وأدخلوا الحروف المتحركة إلى الأبجدية التي انتشرت بعد ذلك على يد الرومان حيث أعطوها الشكل الذي انتشرت به في أوروبا الغربية والشرقية.

وكما تطورت الكتابة تطورت أيضاً الأدوات المستخدمة فيها فلم تعد الأحجار والألواح وجلود الحيوان وغيرها مواد كافية للكتابة، وبالتالي ظهرت الحاجة إلى الورق الذي بدأ المصريون القدماء في استعماله حيث صنعوه من نبات البردي، وإلى الاحبار التي تستخدم في الكتابة والتي صنعت من الصمغ والأصباغ النباتية[٢].

وبظهور الكتابة فمن الممكن أن نتوقع وصول بعض الكتابات التي يمكننا أن نطلق عليها ـ مجازاً ـ لفظ «كتابات تاريخية» إلا أن هذا النوع من الكتابة في الشرق كان قليلاً نسبياً (إذا أخذنا في الاعتبار أننا نبحث عن التاريخ بمفهومنا الحديث) إذ تقتصر المادة التاريخية في هذه المنطقة على النقوش وقوائم الملوك مع ملاحظة ما يحيط بهذه المادة من شك، حيث يمكن القول أننا لو اعتمدنا عليها كلية فأننا نكتب التاريخ من وجهة نظر واحدة هي وجهة نظر الملوك والحكام أصحاب هذه النقوش والقوائم.

غير أنه لا يجب أن نتجاهل هنا واحد من أشهر كتاب التاريخ المصري القدامي وهو «مانيتو» الذي جمع بتكليف من بطلميوس فيلادلفوس عام ٢٧٥ ق. م. قوائم ملوك مصر والأحداث التي تمت في عصر كل منهم

(١) Ibid, pp. 4 - 10.

(٢) Ibid, pp. 10 - 12.

وترجمها إلى اللغة اليونانية، والذي امتازت كتاباته بالموضوعية ـ إلى حد ما ـ في جمع المادة التاريخية وتفسيرها. رغم أنه من الواضح أن هذا الأنجاز قد تم في عهـد البطالمة في مصر، أي أن هذا المؤرخ بلا شك قد تأثر بالروح والحضارة الجديدة التي عرفت فيما بعد بالحضارة الهلينستية(١).

ويجرنا هذا إلى الحديث عن الكتابة التاريخية عنـد اليونـان(٢). حيث جرى العرف على اعتبار كتابات «هوميروس» أول كتابة تستحق الذكر كمصدر عن المجتمع اليوناني في هذه الفترة، إلا أن الكتابة التاريخية الحقة لم تبدأ إلا بعد اكتشاف النثر كوسيلة جديدة للتعبير عن فكر الإنسان، وهنا يجب أن نذكر «هيكاتايوس» من ملطية قبل «هيرودوت» الذي اصطلح على تسميته أو وصفه بأول مؤرخ اغريقي، حيث اقترب «هيكـاتايـوس» من النقد التـاريخي كثيراً في كتابه عن «الأنساب» خاصة وأنه قد أخذ موقفاً نقدياً من الأساطير الأغريقية التقليدية.

ثم يظهر هيرودوت كأول مؤرخ يوناني يقـوم بعمل تـاريخي متكامـل، حيث كتب «التواريخ» والتي كان عمادها الأساسي الحروب الفارسية اليونانية إلا أنها اتسعت بحيث تحولت إلى عرض شامل للحضارات الشرقية والغربية، ورغم كل ما يوجه من نقد لكتابات هيرودوت إلا أنه يبقي له فضل الريادة في هذا المجال.

ويحدث التحول الحتمي في طريقة الكتابة التاريخية عند اليونان بظهور «ثوكيديديس» وتاريخه عن الحروب البلوبونيسية بين أثينا واسبرطة ومحاولاته لتفسير أحداث التاريخ في ظل أسباب عقلية منطقية تتعلق غالباً بطبيعة تكوين المجتمعات ومنهاجه العلمي في الكتابـة القائم على الـدقة في جمـع المادة التاريخية السليمة. ذلك رغم ما وجه إليه من نقد حول اغفاله لأهمية العوامل

---

(١) Ibid, pp. 16 - 17.

(٢) عن هذا الموضوع بالتفصيل راجع دراسة توينبي عن الفكر التاريخي عند الاغريق والتي عرض فيها لعدد كبير من المؤرخين اليونانيين مع نماذج من أعمالهم

A. toynbee, Greek historical thought, Macmilan 1924.

الأقتصادية في التاريخ وقصر اهتمامه على النواحي الحربية والسياسية.

ثم ظهر «بوليبيوس» خلال القرن الثاني قبل الميلاد بتاريخه عن روما حتى عام ١٤٦ ق. م. والذي عكس بوضوح اهتمام اليونانيون بهذه القوة الجديدة التي بدأت في فرض نفسها داخل وخارج حوض البحر المتوسط. ويحسب لبوليبيوس أنه حاول تطبيق القواعد المنهجية في الكتابة التاريخية، حتى أنه نقد بعض المؤرخين أمثال «تيماوس».

ولا يجب أن ننسى «كسنوفون» الذي ظهر في أواخر القرن الخامس وحتى منتصف الرابع قبل الميلاد تقريباً بكتاباته التاريخية (الأدبية) وأفضل ما يحسب له كان ابرازه لتأثير العوامل الاقتصادية على التاريخ. كذلك يظهر مؤرخون مثل «ديودوروس الصقلي» و«ديونيسوس من هاليكارناسوس» و«بلوتارخوس» بكتابيه عن السير المتشابهة والأخلاق، و«اريان» و«ديون كاسيوس» و«اميانوس مركلينوس» ممن لا يتسع المجال هنا للتعليق عليهم(١).

أما فيما يخص المؤرخون الرومان فقد التزموا إلى حد كبير بطريقة الأغريق في كتابة التاريخ، رغم ظهور أسماء لامعة مثل «يوليوس قيصر» بكتاباته عن الحروب الغالية والحروب الاهلية ثم «سالوستيوس» يكتاباته عن تاريخ روما ومؤامرة كاتلينا، ثم «ليفيوس» وكتابه عن روما، ثم «تاكيتوس» بحولياته وتواريخه، ثم «سويتونيوس» وكتاباته عن حياة القياصرة(٢).

هذا فيما يخص المؤرخون، أما فيما يخص التفكير التاريخي ذاته، فهو يحمل في داخله العديد من المميزات والعيوب المرتبطة به، فالماضي أو «التاريخ» عبارة عن العديد من الحوادث التي تحمل طابعاً مميزاً لها من حيث المكان والزمان، والسمة المشتركة بين كل هذه الحوادث هو أنه لم يعد لها وجود الآن، ومحاولة فهم هذا الماضي استناداً إلى المنهج الرياضي في

---

(١) Barnes, op cit., pp. 26 - 36

(٢) Ibid, pp. 36 - 40.

التفكير من الممكن أن لا تحقق الفائدة المرجوة، إذ أن هذا المنهج يدرس المادة مجردة من المكان والزمان، ونفس الشيء يمكن أن ينطبق على أسس التفكير في فلسفة الأديان، فهذا النوع من التفكير يدرس حقيقة واحدة أبدية، على حين أن حقائق التاريخ متعددة ومرهونة بزمن معين. كما أن أسس التفكير العلمي تكشف عن حقائق معينة. استناداً إلى الملاحظة والتجربة وما يرتبط بهما من أمثلة تتطابق مع المدركات الحسية والتجربة للإنسان، وعلى الجانب الآخر فمن المؤكد أن الماضي قد انتهى ولا سبيل للتأكد من صدق التفكير فيه، وبهذا يبدو ـ طبقاً لهذه المناهج الثلاث ـ كما لو أن الحقيقة التاريخية هي أمر مستحيل بالتالي لا يتبقى لنا سوى المنهج الفلسفي لدراسة التاريخ والذي قد يستخدم كل هذه المناهج مجتمعة في إطار خاص به(1).

والحقيقة التاريخية هي علامات مميزة على طريق التطور ـ سواء صعوداً أو انحداراً ـ لأي مجتمع، والتي هي في النهاية محصلة الحوار بين هذا المجتمع والظروف المحيطة به. أما بقية الحقائق فلا تعدو أن تكون تكراراً لهذه العلامات المميزة أو الحقائق التاريخية وبالتالي فقد تصلح لأي فرع من فروع المعرفة الأنسانية إلا أنها في الغالب لا تشكل حقيقة تاريخية.

ولتوضيح الأمر يمكن لنا إعادة استخدام المثال السابق ذكره حول ظهور اللغة ثم اختراع الكتابة وتطورها، إلى أن وصلت لتصبح أبجدية واضحة بعد أن بدأت بصورة ذات دلالة معينة. فأول استخدام لهذه الصور أو الرسوم يعتبر حقيقة تاريخية في مجال تطور الجنس البشري أما آلاف الصور المكتشفة بعد ذلك فلا تعدو أن تكون تكراراً لهذه الحقيقة، وبهذا فهي قد تفيد مثلاً في التعرف على بعض نواحي الحياة اليومية لهذا الإنسان ـ وقد لا تفيد ـ لكنها تبقى حقيقة غير تاريخية، لكن عندما يتطور هذا الشكل من الكتابة ليصبح

---

(1) من المفترض (رغم بعض الاعتراضات التي يسوقها قلة من المشتغلين بالتاريخ) أن هذا العلم قد تخطى مرحلة التاريخ عن طريق تتبع الحوادث بتواريخها والنصوص التي تؤكدها، إلى محاولة تفسير هذه الحوادث وفلسفتها، وفي هذا تختلط ذاتية المؤرخ ـ التي لا يمكن تجاهلها ـ بالمعلومة التاريخية والمنهج المستعمل في تفسيرها.

لدينا أبجدية بالمعنى المعروف نعود لنعتبر هذا حقيقة تـاريخية أخـرى، ولا يعني هذا بالضرورة أن كل الكتابات التي وصلتنا بعد ذلك يمكن أن تكون لها هذه الصفة ـ فبعضها مثلاً لا يستحق عناء قراءته ـ لكن مرحلة التحـول هذه هي التي يمكن أن نعتبرها حقيقة تاريخية(١).

وحول طبيعة التاريخ، فمن الواضح أن التاريخ هو الحوادث أو بعبارة أدق هو دراسة هذه الحوادث. والحوادث نوعان: الأول سريع مفاجىء، وقد يكون عنيفاً للغاية كالثورات والحروب والكوارث الطبيعية المفاجئة كالزلازل وثورات البراكين وغيرها، والثاني بطيء كعمليات التطور في البيئة الجغرافية

---

(١) ويبدو أن الحقيقة التاريخية الصادقة والمؤكـدة تماماً شيء صعب المنال، وأورد هنـا المثال الطريف ـ ولكنه واف بالغرض ـ الذي أورده بروفسور «شوتويل» في كتابه «مقدمة عن تاريخ التاريخ» حول الاصل التاريخي للتوراة اليهودية وترجيحه إن النص الحالي لم يكتب بواسطة شخص واحد وإنما هو تجميع لعدة كتابات على مدى خمسة قرون بدءاً من القرن العـاشر حتى الخـامس قبل الميـلاد. ثم يقـارن هـذا بـافتـراض من عنـديـاتـه يـدور حـول تـراث الاغـريق الـذي وصلنـا، فهـو يفتـرض أنـه كـان من الممكن أن يصلنا هـذا التـراث بشكل مختلف، كأن نتعرف على كتابات «هزيودوس» عن أنساب الالهة وخلق العالم مختلطة بفقرات من الالياذة «لهوميروس» مدعمة ببعض من كتابات «هيرودوت» ومحاورات «أفلاطون» مع بعض المقتطفات من التراجيديا اليونانية ثم جاءت تعليقات وإضافات المحللين والشراح لمدرسة الاسكندرية لتزيد الامر تعقيداً.

وتدريجياً اعتنق الفلاسفة نظرية مؤداها أن هذا التراث بشكله المهوش هذا قد كتبـه المشرع الاول «سـولون» بنـاء على وحي الاله «أبـوللو» في دلفي ثم ثبتت هذه النصـوص على هذا الشكل وأصبحت غير قـابلة للتغيير وبـالتالي اكتسبت صفـة القداسـة، حتى أصبحت تراثـاً لشعوب أخرى لا تعرف شيئاً عن التاريخ اليوناني أكثر من هذه النصوص،وبالتالي يصبح لدى هذه الشعوب كتاب مقدس جديد على غرار توراة اليهود. وهنا لا يصبح هذا التراث الذي قد يصلنا بهذا الشكل حقيقة تاريخية ثابتة مؤكدة شأنه في ذلك شـأن مجمل التـراث الأغريقي الحالي والذي أيضاً يداخل بعض المؤرخين الكثير من الشك حول مـدى صحة الكثيـر من جوانبه وطريقة ترتيبه الزمنية.

Cf I. Shotwell, An Introduction of the History of History. pp 82 - 83

وحول الحقيقة التاريخية المؤكدة راجع أيضاً الدراسة الصادرة عن أصل التوراة: كامل الصليبي، التوراة جاءت من جزيرة العرب ترجمة عفيف الرزاز الطبعة الثانية، مؤسسة الابحاث العربية، بيروت ١٩٨٦، والتي شككت في وقائع حول أصل التوراة كانت شبه ثابتة حتى يومنا هذا.

والأنسانية والتي لا يمكن ادراكها والشعور بنتائجها إلا على المدى الطويل.

والحدث التاريخي ـ سواء كان بطيئاً أو سريعاً ـ ينفرد بسمة مميزة له، وهي أن الحال أو الظروف السائدة قبل هذا الحدث تختلف عنها بعد نفس الحدث. وهكذا يعني الحدث التاريخي في جوهره «التغير». وبهذا يكون التاريخ هو تغير مستمر سواء إلى الأفضل أو إلى الأسوأ.

وعلى سبيل المثال نجد أن العالم قبل ظهور السيد المسيح أو الرسول محمد ﷺ يختلف بالتأكيد عنه بعد ظهورهما، كما أن العالم قبل ظهور سقراط وأفلاطون وأرسطو أو نابليون أو هتلر كان ولا بد مختلفاً عنه بعد ظهورهم، ونفس الشيء ينطبق على الثورة الصناعية في أوروبا، أو الحرب العالمية الأولى أو الثانية مثلاً.

ولما كان الحدث التاريخي ـ شأنه في ذلك شأن أي شيء ـ لا يمكن أن يتولد من فراغ، بمعنى أنه لا بد لأي حدث من مسببات دينية أو سياسية أو اقتصادية، وهي ثلاثة أسباب أو أوجه لشيء واحد هو (المجتمع)، لذا يصبح من غير الممكن فصل أي حدث تاريخي عن المجتمع الذي وقع فيه هذا الحدث بكل ظروفه الدينية والسياسية والاقتصادية (حتى ولو كان منفذ الحدث ينتمي إلى مجتمع آخر كما في حالة القائد العربي عمرو بن العاص وفتحه لمصر).

ويبدو أن العامل الاقتصادي هو المحرك الأول لأغلب النشاطات الأنسانية من سياسة إلى دين حتى الأخلاق، فلا نستطيع إنكار دور الظروف الأقتصادية التي أدت إلى اشتعال العديد من الحروب منذ حروب طروادة في ملاحم «هوميروس»، وحتى الحرب العالمية الثانية، بالاضافة إلى حركات الاستعمار قديماً كان أم حديثاً، مما جعل الدين بالتالي سواء كان بدائياً أم منزلاً كاليهودية والمسيحية والإسلام يعطي أهمية كبرى لتقنين التعامل بين أفراد المجتمع الواحد في إطار أخلاقي، وبالتالي يصبح العامل الاقتصادي هو ركيزة أي تحرك بشري في مجتمع معين.

أي يكـون الحدث التـاريخي الذي يؤدي بـالتالي إلى التغيـر مـرتبـطاً ارتباطاً مباشراً بالظروف الأقتصادية للمجتمع الذي وقع فيه هذا الحدث.

أما عن الهدف من دراسة التاريخ، ففي البداية كان التاريخ يتخذ كعظة وارشاد، أو كان عبارة عن حوليات تسجل الأحداث والشخصيات البارزة، إلا أن التجربة الأنسانية هي دائماً جزء من الإنسان الذي خاضها وبالتالي دائماً ما تكون محدودة الأثر، فما ينطبق على إنسان لا يصدق على الآخر، وبذلك لا يكون اتخاذ العظة من تجارب الآخرين بالهدف السليم.

لكن ظهر اتجاه في تفسير وظيفة التاريخ يعتقد بأن الحوادث الحاسمة ليست إلا هزات سطحية تخفي تحتها الأسباب الباطنة واتخذ هذا الاتجاه من الإنسـان محوراً لـدراسته للبحث في هـذه الحوادث الحـاسمة في محـاولـة لتفاديها أو توقعها على الأقل.

وتجيء هنـا نقطة الأختـلاف حول مـدى فعاليـة الإنسان وتفـاعله مـع التاريخ، فيظهر الاتجاه الجديد كرد فعل للاتجاه القديم الذي اعتمد أسـاسـاً على الأبطال في التاريخ كمحركين له، والاتجاه الجديد يلغي دور الإنسـان ويرد كل الأحداث التاريخيـة إلى الجماعـة، إلا أنه من المؤكـد أن تداخـل المؤثـرات التي تحرك التـاريخ تجعـل من الصعب الأخذ بـالتفسير الأول أو الثاني، وإنما لا بد وأن يتفاعـل الإنسان بـالمستوى الفـردي أو الجمعي مع تاريخه ويؤثر فيه ويتأثر به.

ومن المؤرخين القـدامى نجد أن «ثـوكيـديـديس» هـو أول من حـاول التحليـل التاريخي ولم يحـاول أحد بعـد ذلك حتى ظهـر «ابن خلدون» في القران الرابع عشر الميـلادي كما يقـول بذلـك «ايف لاكوست» في دراستـه لمقدمة ابن خلدون الشهيرة.

«حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، ومـا يعـرض لـطبيعـة ذلـك العمـران من الأحـوال، مثـل التـوحش والتـأنس والعصبيات، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب

والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران وطبيعته من الأحوال[1]

وهكذا لا يصبح التاريخ وسيلة لامدادنا بحلول لمشاكلنا لأنه لا يعيد نفسه كما كان الاعتقاد سابقاً، ولكن يعيننا إعانة واضحة على فهم واقعنا، والفهم الصحيح شرط لالتماس الحل الناجح كذلك فالتاريخ ليس شحناً للذاكرة بمواد قليلة أو كثيرة وإنما هو في الواقع رفع للإعباء الزائدة بادراكها ومحاول التخلص منها وبالتالي توظيف الطاقة المبددة في هذه الأعباء وتوجيهها وجهة أخرى أنفع.

ومن المؤكد أن تصورنا للأمس يؤثر في صورة الغد ومعنى ذلك أننا إذا تحكمنا في صورة الماضي فسوف يعيننا ذلك على التحكم في المستقبل، ولكن هذا لا يعني إطلاقاً أنه من ضمن وظائف المؤرخ أن يتنبأ بالمستقبل.

ومن المؤرخين نجد أن البعض قد حاول فحص الماضي البشري لاستخلاص فلسفة أو قوانين تزيح الستار عن سر الغد، وسار هؤلاء المؤرخون على نمطين:

النمط الأول:

ويسمى بالخط التصاعدي، وفيه يؤول التاريخ كخط صاعد نحو اكتمال مستمر لا ينتهي، وبذلك تكون القاعدة هنا هي إيمان متفاءل بالرقي المستمر، ومن الذين اعتقدوا في هذا النمط هيجل وكونت وماركس.

النمط الثاني:

ويسمى بالدائري، بمعنى أن التاريخ عبارة عن سلسلة حلقات متناهية زماناً ومكاناً منفصلة عن بعضها، تمثل كل حلقة منها حضارة من بدايتها فنموها فجمودها ثم انهيارها وبهذا فهي تشبه الكائنات الحية التي تولد وتنمو ثم تموت، ومن الذين اعتقدوا في هذا النمط اشبنجلر وتيجارت وسوروكين.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، بيروت ١٩٥٦، صفحة ٧.

ولا يمكن للتاريخ أن يؤدي وظيفته في المساهمة في حل مشاكلنا عن طريق التحليل على الوجه الأكمل إلا بشرط أن يطابق الواقع، ولسوء الحظ فهذا الشرط شبه مستحيل لأن كل كتابه للتاريخ مهما التزمت الدقة هي تزوير له بدرجة من الدرجات لأن التاريخ الذي نكتبه هو صورة ننتزعها من ذهننا مدعمة بالوثائق والاسانيد ثم نتصور صدقها التام.

وأبسط أنواع التزوير للتاريخ هو التزوير غير المتعمد والذي يعود إلى طبيعة المؤرخ نفسه ومدى التزامه بالدقة في البحث التاريخي واستعماله للمنهج العلمي من عدمه، وميوله الشخصية وأفكاره، ومعتقداته وهذا النوع يمكن اكتشافه على الفور بواسطة القارىء الواع.

إلا أن هناك نوعاً من التزوير المبيت المتعمد لحوادث التاريخ يقصد به أن يصبح سلاحاً لمناهضة سياسة معينة ومناصرة سياسة أخرى كما حدث عندما كتب بعض المؤرخون الغربيون تاريخ العرب قبل وبعد ظهور الإسلام، أو تاريخ الحروب الصليبية على سبيل المثال. وهنا يأتي دور المؤرخ المنصف غير المتحيز ليقول كلمته ويعيد كتابة التاريخ بشكله الصحيح.

وتجرنا مقولة أن أي كتابه للتاريخ هي تزوير له بدرجة من الدرجات مهما التزمت الدقة، إلى التساؤل المنطقي التالي:

هل التاريخ علم أم فن؟

وقد فتح ابن خلدون باب هذه المناقشة حول التاريخ بكلمته المشهورة:

«التاريخ فن عزيز المذهب شريف الغاية».

ومن الواضح أن التاريخ يميل قليلاً نحو الفن، إذ أنه بالاضافة إلى الحقائق المجردة التي يعتمد عليها المؤرخ، فلا يمكن لنا تجاهل خيال هذا المؤرخ وذاتيته وهو الذي يكسو هذه الحقائق المجردة لحماً ويحيلها متحركة ذات صبغة انسانية، ولكن التاريخ لا يفقد في نفس الوقت صيغته كعلم تخضع نتائجه للبحث والتمحيص والاتفاق بين العلماء تماماً كنتائج العلوم

الطبيعية، بالرغم من أنه لا يخضع لقواعد مجردة أو أصول مقننة كباقي العلوم.

وقد حاول بعض المؤرخون الاتجاه بالتاريخ نحو العلوم الطبيعية وهو ما عرف باتجاه تقنين التاريخ ومحاولة وضع قواعد وأصول ثابته له، إلا أن هذه المحاولة تعترضها العديد من الصعوبات أهمها:

١ ـ لا يمكن انكار دور الصدفة في التاريخ، وهذه الصدفة التي لا تخضع لأي منطق من عوامل هدم أي قانون أو نظرية تعتمد على الأستمرار المتكرر المتشابه للأحداث التاريخية هذه الصدفة أو ما يمكن اطلاق تعبير (لو. . في التاريخ) عليه، يمكن أن نورد لها بعض الأمثلة: لو قتل الارشيدوق رودلف ولي عهد النمسا في عام ١٩١٥ أو ١٩٢٠ بدلاً من ١٩١٤ ماذا كان سيحدث؟ وهل كانت الحرب العالمية الأولى ستقوم أم لا؟ لو انتصر نابليون في موقعة «ووترلو» أو لم ينتصر العرب على المغول في موقعة «عين جالوت» أو انتصر الألمان في ستالينجراد مثلاً ودخلوا موسكو ماذا كان سيصبح وجه العالم اليوم؟ ولو لم يحصل الحلفاء على القنبلة الذرية قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية ماذا كان سيحدث؟ لو لم يخترع اللاسلكي والترانزستور في بداية ومنتصف هذا القرن واخترع قبل أو بعد هذا ماذا كان سيحدث؟.

هذا الصدف في التاريخ أو (لو. . . في التاريخ) لا يمكننا إغفالها ونحن نتعرض لأي حدث تاريخي، إلا أنه وجه لهذه الفرضية بعض النقد، من أن هذه الصدف إن هي إلا حلقات متماسكة تخضع لتوجيه معين يدخلها في باب الحوادث المنتظمة لا الصدف العشوائية، وهذا يجرنا إلى تفسير القديس «أوغسطين» للتاريخ من أنه سلسلة متلاحقة من الحوادث والصدف مرتبة بيد عليا كي يكفر الإنسان عن خطيئته الأولى، إلا أن هذا الرأي لا يبدو لنا الآن في ضوء الظروف العقلانية التي نعيشها جاداً بالدرجة الكافية لأنه ارتبط بظروف معينة في الدول المسيحية عاشها القديس أغسطين ولا مجال لشرحها هنا. لكنها كانت السبب المباشر في تصوره لمعنى التاريخ، وهذا

يجرنا إلى النقطة التالية في الاعتراض على امكانية وضع قوانين محددة للتاريخ

٢ ـ حين نرغب في وضع قانون محدد للتاريخ لا يمكننا أن ننفي ذاتيه صانعي التاريخ، أي الأشخاص المنفذين للحوادث التاريخية سواء كانوا أبطال هذه الحوادث أم صانعيها والفرق معروف بين صانع الحادثة التاريخية وبطلها أو الشخص الذي يجمع الصفتين معاً[1] فذاتية الشخص واتجاهاته وعواطفه، وبمعنى آخر فرديته يكون لها أحياناً دور كبير في توجيه الحوادث التاريخية، وبالتالي فلا يمكننا أن نضع قواعد مثلاً لعواطف أو أفكار أبطال تاريخيين في ظروف معينة، فمثلاً أمر الانسحاب الذي صدر للقوات المسلحة المصرية في يونيو ١٩٦٧ لا يمكننا بأي حال أن نضع له قانوناً تاريخياً يحكمه، وإنما كان مثل هذا الأمر رد فعل لشخصية قيادية معينة لها مواصفاتها الخاصة التي تنفرد بها في ظروف معينة.

كذلك مثلاً استشهاد الثلاثمائة محارب أسبرطي بقيادة ملكهم «ليونيداس» حتى آخر جندي في مضيق «ثرموبيلاي» وفي موقف ميئوس منه عسكرياً، لا يمكن لنا أن نفسره إلا في ضوء شخصية القائد وجنوده، ولا يمكن لنا اصطناع قانون تاريخي يقيم سلوكهم ويقضي بانسحابهم مثلاً. وبذلك نخلص إلى أنه من الصعوبة بمكان وضع قانون أو نظريات تحكم التاريخ كما هو الحال في العلوم الطبيعية بسبب الصدفة التي من الممكن أن تدخل في توجيه الحادثة التاريخية ولاعتبار آخر إنساني يتعلق بذاتية صانع أو بطل الحادثة التاريخية.

أما عن الاتجاهات السائدة في كتابة التاريخ في العصر الحديث فقد ساد أوروبا خلال القرن التاسع عشر تياران رئيسيان في كتابة التاريخ.

---

(١) في حالة فتح العرب لمصر يعتبر الخليفة عمر بن الخطاب هو صانع الحدث التاريخي، بينما القائد العسكري عمرو بن العاص هو منفذ الحدث، وقد يحدث الجمع بين الصفتين كما في حالة الاسكندر المقدوني ويوليوس قيصر اللذان خططا ونفذا فتوحاتهما العسكرية بنفسيهما.

الأول: تيار الواقعية الموضوعية الذي يكتب أصحابه الحقائق التاريخية كما كانت في الماضي تماماً.

الثاني: وهو القائل بتوليد أحداث التاريخ بعضها من بعض أي أن التاريخ عملية توالد مستمرة، ويؤمنون باضطراد التوالد من عصر إلى عصر.

وعندما نشر «فولتير» كتبه عن «شارل الثاني عشر» و «لويس الرابع عشر» كان هذا لوناً من التاريخ لم يعرف حتى هذا الوقت، لذلك يميل الكثيرون إلى اعتبار فولتير مؤسس علم التاريخ في الغرب، إلا أن فولتير كان قد كتب التاريخ كأدب أو فلسفة، ثم ظهر «جيبون» وكتابه الرائع عن «اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية» وكان بذلك أول مؤرخ غربي يكتب في العصر الحديث دراسة تاريخية لدولة كبرى يقص فيها تاريخاً كاملاً، وعاصر جيبون «فولتير ومونتسكيو وروسو» ثم ظهر «آدم سميث» وكان أول من نبه إلى أهمية العامل الأقتصادي في سير التاريخ، وقد أفاض كارل ماركس في هذه الناحية فيما بعد، إلا أن الفضل يرجع إلى آدم سميث في اكتشافها ثم ظهرت المدرسة الألمانية في التاريخ بأعلامها «ليوبولد فون رانكة» و «هيردر» والتي انتهى بها الأمر إلى اعتبار التاريخ علم له أصوله وقواعده وكراسيه وأقسامه في الجامعات.

أما عن «هيجل» ومثاليته التاريخية، فيقول هيجل بأن «الفكر أساس كل ما هو موجود» ولا يعني هيجل هنا العقل أو الفكر الإنساني، وإنما هو العقل الأعلى الذي يوجه الكون، وينبع هذا الرأي من إيمان هيجل العميق بالمسيحية، ويعتمد في تدليله على ذلك بحواره المعروف باسم (ديالكتيك) والذي انتهى به إلى أن الفكر الإنساني يسعى دائماً نحو التقدم ليصل إلى العقل المطلق الذي يعتبره مثالاً يحتذى به[١]

أما عن ماركس ونظريته عن المادية التاريخية فتتلخص فكرته في أن

---

(١) G. W. F. Hegel, The philosophy of History, Dover Publications, New York, 1956, pp 8 - 77 Passim.

التاريخ لا يسير بعظماء الرجال، وإنما تصنعه عمليات تطور اجتماعي داخلي في كيان كل أمة، وصراع الطبقات للوصول إلى الحكم، وأن العامل الرئيسي الذي يقرر المصير في النهاية هو الانتاج، وبذلك نص ماركس على العامل الاقتصادي في تحريك التاريخ وصاغ منه نظريته، ويرى ماركس أن التاريخ تحكمه قوانين يدركها العقل الإنساني، وهي حقائق متعلقة بطبيعة العمل والانتاج وطريقة توزيع الثروة وإذا أدرك الإنسان هذه القوانين لاستطاع أن يقرر صورة مستقبل الجماعة الإنسانية وبذلك تكون الظروف المادية للمجتمعات (في نظر ماركس) هي التي تحرك التاريخ وليس الفكر المطلق كما اعتقد المثاليون، ولكن ماركس لا ينكر دور الفكر، لكنه يجعله ناتجاً عن الأوضاع المادية وليس عاملاً مستقلاً بذاته.

والحقيقة أن الفكر هو إنعكاس للواقع الأقتصادي والإجتماعي لأي مجتمع إلا أن الفكر يمكن له أن ينمو ذاتياً وبذلك تصبح له القوة المؤثرة في الواقع الإجتماعي والأقتصادي لأي مجتمع آخر، كما في حالة الفكر الاشتراكي على سبيل المثال.

ولما كانت الظروف المادية لأي مجتمع في مرحلة تاريخية معينة تفرض بالضرورة تحديات ما، لذا يكون من الحتمي ظهور الفكر الجديد استجابة لهذه التحديات والتي تفرض انتقال مثل هذا المجتمع إلى مرحلة تاريخية أخرى(١).

---

(١) كارل ماركس، بؤس الفلسفة، ترجمة اندرية يازجي، بيروت ١٩٦٦، صفحات ١٨٢ وما بعدها، ولمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع، راجع: Maurice Conrnforth. Historical Materialism, New York 1977. G. Plekhanove, The Materialist Conception of History, Moscow 1946. V. Podosethik, A Spirikin, A Glance At Historical Materialism. Moscow.

عن الحضارة

ثقافة أم حضارة:

الثقافة هي النماذج التي ينشئها المجتمع أو يستعيرها من مجتمع آخر ليستعين بها في حياته الإجتماعية، وهي تقوم بشكل أساسي على العقل والفكر لأنها تختلف عن الأفعال الغريزية التي يرثها الإنسان بشكل فطري، وتنتقل عن طريق الأتصال والاكتساب. ولما كانت الحيوانات الأخرى تعيش حياتها معتمدة على الغريزة والأفعال الموروثة بيولوجياً، لذا كان الإنسان هو الوحيد الذي يستطيع إبداع ثقافته والمحافظة عليها ونقلها وتنميتها. فالثقافة إذن ظاهرة إنسانية تميز الإنسان عن غيره من الحيوانات الأخرى.

وتتألف ثقافة أي شعب من مجموع النظم الإجتماعية التي تسوده كالنظم العائلية والأقتصادية والدينية والسياسية واللغة السائدة ووسائل التفاهم والعادات والتقاليد التي يخضع لها المجتمع والفنون بأنواعها ودرجة التقدم على المستوى المادي في النشاط الأقتصادي من زراعة أو صناعة أو تجارة أو علوم، وما يلحقها من تطبيقات في الطبيعة والطب والكيمياء والفلك وغيرها أي اجمالاً هي كل النماذج المعيشية التي ترجع إلى الحياة الإجتماعية التي اكتسبها الأفراد من المجتمع ولم يولدوا مزودين بها بشكل فطري[1].

وإذا أبدلنا لفظة (الثقافة) بلفظة أخرى هي الحضارة لكان هذا مدخلاً مناسباً لنا لمناقشة الأراء المختلفة حول طبيعة الاختلاف والاتفاق بين كل من

---

(١) حسن شحاته سعفان، علم الانسان، ص ١١٠ - ١١١.

اللفظين، فثمة علماء يذهبون إلى أن الثقافة تقتصر على النواحي اللامحسوسة أو الغير مادية، أي النواحي الروحية والقيم الأخلاقية والمعايير الجمالية التي تسود المجتمع على سبيل المثال، خلافاً للحضارة التي تقتصر على النواحي المادية والمستوى الذي وصل إليه المجتمع في كل ما تعبر عنه العلوم المادية ـ إن جاز التعبير ـ كالطب والهندسة والطبيعة والكيمياء وغيرها، وثمة بعض آخر من العلماء يغالي في هذا التفسير فيجعل الثقافة هي الكل بمعنى أنها تشمل كل المظاهر المتعلقة بمجتمع معين، ثم يجعل الحضارة تختص بجزء من الكل وهو الجزء الذي يتعامل مع المظاهر المادية فقط للمجتمع.

إلا أن هذه الأختلافات في التسميات كادت أن تنتهي إذ يسود الآن الاتجاه بعدم التفريق بين الثقافة والحضارة[1] فمن الممكن استعمال أحد اللفظين للدلالة على نفس المعنى، وإن كنت أفضل استعمال لفظ الحضارة لا لإختلاف في المضمون، وإنما ـ ربما ـ لإتساعه من الناحية اللغوية وشموليته عوضاً عن لفظ الثقافة الذي ارتبط في الأذهان بتصورات مسبقة.

وللحضارة ـ أي حضارة ـ أربعة مقومات أساسية لا بد من توافرها حتى تكتمل صورة هذه الحضارة، وغياب أحد هذه المقومات لا بد وأن يكون له بالضرورة تأثير مباشر على ازدهار هذه الحضارة، وهذه المقومات هي:

المقوم الأقتصادي، المقوم السياسي، المقوم الأخلاقي والمقوم الفكري.

المقوم الأقتصادي للحضارة:

بدأت مراحل التطور الأقتصادي للحضارة بالصيد بأنواعه وتليه مرحلة استئناس الحيوان، ثم اكتشاف الإنسان للزراعة والذي يعد بحق انقلاباً حضارياً بما صاحبه من تطور للأدوات المستخدمة فيها والحيوانات المسخرة

---

(١) حسن شحاته سعفان، المرجع السابق، ص ١١١ ـ ١١٣ واتفق تماماً مع المؤلف في أن الخلاف هو مجرد خلاف لفظي لا جدوى منه طالما كان المعنى المقصود واحداً.

لها. ويلي اكتشاف الزراعة في الأهمية ـ أو ربما يساويه ـ اكتشاف الإنسان القديم للنار وما صاحب ذلك من بدء ظهور الصناعة، فاستعملها في إعادة تشكيل المعادن وفق احتياجاته والآلات الزراعية، ثم عرف الإنسان صناعة النسيج وبالتالي ظهرت الملابس بأشكالها وأنواعها المتعددة، وكذلك تعرف الإنسان على كيفية استخدام ما يحيط به من مكونات للبيئة وأهمها الطين الذي استعمله في البداية نيئاً في بناء أكواخ بدائية له، ثم تطور استخدامه ليصبح طيناً محروقاً أو فخاراً يستخدم في صناعة الأواني بكافة أشكالها وأنواعها واستخداماتها.

هكذا مر الإنسان البدائي بالمراحل الثلاث: الصيد ثم الزراعة ثم الصناعة، ولم يبق أمامه لاستكمال باقي مقومات حضارته البدائية إلا التجارة وما تتطلبه من اختراع لوسيلة ما للتبادل وكيفية هذا التبادل، والذي نعني به طرق ووسائل نقل السلع التجارية وهو الشيء الذي قاد الإنسان القديم بالضرورة إلى إبداع عدد من أعظم الإختراعات في العصور البدائية والتي امتد تأثيرها حتى يومنا هذا كالعجلة والزورق وما صاحبهما من شق للطرق البرية وتمهيد وتحسين للمجاري المائية وما ارتبط بهما من ظهور علم الفلك.

أما وسيلة التبادل في التجارة فلم تزد في البداية عن المقايضة أو تبادل الاحتياجات الأساسية، واستمرت هذه المرحلة لفترة طويلة حتى أخذت المعادن تحل تدريجياً محل البضائع التي يقايض بها الإنسان وأصبح لهذه المعادن أشكال أقرب ما تكون إلى الثبات وقيمة اقتصادية متعارف عليها، وهذه المرحلة كانت الخطوة قبل الأخيرة نحو اختراع النقود والتي بظهورها يمكن القول أن التكوين الأساسي للأقتصاد القديم قد اكتمل.

أما عن طبيعة التنظيم الأقتصادي في المجتمعات القديمة فيبدو أن هذه المجتمعات تشترك كلها في ظهور الشيوعية البدائية بها في بداية تكوينها، إلا أنه مع بداية الاستقرار وظهور الزراعة بدأت الملكية الفردية في الظهور ودعمها نظام التوريث[1]، ثم ظهر نظام الرق كظاهرة ملازمة للمجتمعات

(١) عن الظروف الاقتصادية كمقوم أساسي لظهور نظام العائلة في المجتمعات القديمة وعلاقة =

المستقرة، إذ لم يعرف مثل هذا النظام في مجتمع يقوم على الصيد والترحال، وهكذا ظهرت الفوارق بين الطبقات وتضخمت مما مهد لظهور صراع الطبقات وهو ما يقودنا بالتالي إلى ظهور الدولة كظاهرة سياسية في المجتمع.

المقوم السياسي للحضارة:

لم تعرف المجتمعات القديمة ظاهرة اتحاد عدد كبير من البشر في جماعة واحدة إلا في ظروف خاصة مثل الصيد أو الحرب أو بعض الاختلافات الدينية، وتحت ضغط الظروف الأقتصادية المتغيرة بدأت فكرة القبيلة كنظام إجتماعي جديد في الظهور، وهي عبارة عن مجموعة من الأسر تربطها صلة القرابة اتحدت في بناء واحد تحت رئاسة شخص واحد، وتطور هذا الشكل من التكوين السياسي - وإن كان ببطء - لتظهر فكرة العشيرة - أي مجموعة القبائل المتحدة معاً - والتي شكلت نقله كبيرة في النظم الإجتماعية تجاه النقطة الأساسية التي تهمنا وهي تكوين الدولة.

وأول المظاهر السياسية للدولة بشكلها المستقر كان ظهور «الملكية»، فقد تحول رئيس القبيلة ومن ثم العشيرة إلى ملك لها خاصة وأنه قد تمتع بقدر كبير من السلطان زمن الحروب، أما في السلم فقد كانت السلطة لكاهن أو ساحر القبيلة، ولذلك نجد أن فكرة الملكية منذ بداية ظهورها قد أعتمدت بشكل أساسي على السحر والكهانة أو بمعنى آخر الدين البدائي، ثم على القوة العسكرية كوسيلة للدفاع عن كيان القبيلة أو العشيرة.

وواكب بدء ظهور الدولة بشكلها المتكامل كنظام سياسي بداية اتضاح ملامح (القانون) والذي بدأ أولاً كنوع من العادات والتقاليد والنظام للمجتمعات القديمة وبالتالي الاستقرار المطلوب وساعد مرور الوقت على اكتساب هذه العادات والتقاليد قدراً كبيراً من القوة وخلع عليها صفة الإلزام.

= ذلك بمسألة التوريث، راجع نظرية انجلز فيه:

Frederick Engles, The Origin of the Family, pp. 72 - 81.

وقد ساهم الدين بشكل واضح في تثبيت هذه العادات والتقاليد وبالتالي أصبحت لها قوة القانون.

وكان طبيعياً أن تصبح الدولة تدريجياً هي المسئولة عن تطبيق هذه العادات والتقاليد بشكل منظم يهدف أساساً إلى كفالة التوازن بين ما للفرد من حقوق وما عليه من واجبات بحيث لا يسود أو يطغي أحدهما على الآخر في إطار النظام الإجتماعي المتعارف عليه.

المقوم الأخلاقي للحضارة:

استمرار في الحديث عن التقاليد وأهميتها يمكن القول بأنها تمثل العمود الفقري للتشريعات الأخلاقية لأي جماعة من الجماعات، وأول وظائف هذه التشريعات هي تقنين أو تنظيم العلاقة بين الذكر والأنثى، مما نتج عنه ظهور الزواج وبالطبع مر هذا النظام الجديد بمراحل متعددة من التطور حتى وصل إلى شكله الكامل المعروف بدءاً من الدعارة الدينية التي كانت تمارس في بابل قبل السماح للمرأة بالزواج ومروراً بعادات قد تبدو غريبة الآن على الأخلاق بل ومنافيه لها كإعارة الزوج لزوجته كدليل على الكرم، وحق الليلة الأولى لكبير القبيلة وهي العادة التي ظلت منتشرة حتى أوائل عصر الاقطاع في أوروبا، وغير ذلك من أشكال التطور.

والزواج في أساسه الأقتصادي دليل واضح على أن الجماعات الإنسانية قد أقامت تشريعاتها الأخلاقية على دعامة فحواها المنفعة الأقتصادية المتبادلة، وحتى لا يحدث التضارب المتوقع بين المصالح الشخصية للفرد ومصالح المجتمع ككل، كان لا بد من إيجاد دافع يحدث بعض التوازن بين الكفتين، وتمثل هذا الدافع في الدين(١).

---

(١) راجع رأي سترابون حول هذا الموضوع:

Strabo, Geo graphy, 1, 2, 8.

وحتى في الديانات السماوية كانت العلاقة أو الأفعال التي لها خلفيات اقتصادية مجل اعتبار كبير، مع ملاحظة ما للسرقة والقتل والزنا من آثار اقتصادية خاصة في المجتمعات القديمة،=

والعقائد الدينية لها جذور عميقة وقديمة قدم الإنسان على الأرض، وأهم هذه الجذور أو العوامل التي ساعدت على خلق مثل هذه العقائد كانت الخوف الغريزي عند الإنسان من كل ما هو مجهول مثل الموت، الذي لم يتعامل معه الإنسان البدائي كظاهرة طبيعية وإنما كحدث من فعل قوي لا يدري عنها شيئاً، ثم باقي الظواهر الطبيعية الأخرى مثل النار والبرق والرعد والاجرام السماوية والمطر ونمو النبات وغيرها، ثم الظواهر الفسيولوجية كالحمل والولادة والأحلام وما ارتبط بها من أفكار حول الأرواح وكيفية عودتها بعد الموت، وكل هذه الظواهر المحيطة بالإنسان بالإضافة إلى حاجته الطبيعية لشيء يؤمن به أو يعتمد عليه أحياناً في حياته المليئة بالخطر أقنعته بوجود قوة ما تفوقه في الأمكانيات والقدرة على تسيير الأمور، ومن هنا ولد الدين البدائي.

والدين يدعم المقوم الأخلاقي لأي حضارة ويخدمه بطريقتين: أولاهما هي الأساطير التي تجعل الإنسان يؤمن بما وراء الظواهر الطبيعية، وثانيهما هي أن هذا الإيمان يضمن أن يمارس الإنسان السلوكيات التي يوافق عليها المجتمع ويبتعد عن تلك التي يرفضها هذا المجتمع نتيجة الضغط الذي يمارسه المتحكمون في الأمور الدينية وما يلوحون به لهذا الإنسان من ثواب أو عقاب.

المقوم الفكري للحضارة:

يعتبر اختراع الكلمة أو اللغة هو أهم الاختراعات التي أثرت في الحضارة الإنسانية بوجه عام، فاللغة هي التي يقوم عليها أساساً المقوم الفكري لأي حضارة فهي الوسيلة الوحيدة لنقل المعارف والفنون والآداب من جيل إلى آخر، وبالتالي فعن طريقها تم الربط الفكري بين الأجيال المتعاقبة.

المرحلة التالية كانت لا تقل أهمية عن الأولى وهي اختراع الكتابة

= راجع الوصايا الثلاثة الأولى من الوصايا العشر. ثم راجع حكم الدين الاسلامي حول السارق والقاتل والزاني.

والتي عن طريقها أمكن تدوين كل التراث بدلاً من الاعتماد على الحفظ والتلقين مما ضمن بقاءه إلى حد كبير وبدون العديد من التحريفات التي لا يمكن تجاهلها إذا اعتمد الإنسان فقط على الذاكرة.

وإلى جانب التطور الذي شهدته الآداب والعلوم نتيجة اختراع اللغة والكتابة بدأ الفن أيضاً في الظهور، والفن في حد ذاته هو الجمال أو التناغم في كل ما يحيط بالإنسان، وغالباً ما بدأه الإنسان بتقليد الحيوان الذي يزهو بنفسه في أيام التزاوج، فحاول تجميل جسمه وتزيينه، ثم وبالتالي حاول أن يجمل باقي الأشياء المحيطة به، فالتصوير قد بدأ حين حاول صانع الفخار أن يجمل الآنية الفخارية التي يصنعها. وفن العمارة بدأ حينما حاول الإنسان أن يجمل كوخه البدائي الذي يعيش فيه، وتطور العمود التذكاري الذي أقيم عند القبر إلى تمثال، بينما تطور القبر نفسه إلى معبد.

وكما أن الجمال يتولد من التناغم فقد ولد الإيقاع الصوتي الذي ربما بدأه الإنسان كمحاولة منه لتقليد أصوات الحيوانات والطيور والظواهر الطبيعية المحيطة به والذي بدوره تحول إلى غناء ورقص وموسيقي ثم إلى مسرح.

عن الآثار

يعتبر علم الآثار واحداً من أهم أفرع التاريخ - إن لم يكن أهمها على الاطلاق - فهو الذي يمد المؤرخ بالمصادر الأساسية التي يعتمد عليها في كتابته التاريخية، واللذان يتجها في النهاية - أي الآثار والتاريخ - نحو استكمال الصورة الحضارية للمجتمع موضوع الدراسة. وكم من فترات تاريخية أعيدت كتابتها نتيجة لاكتشافات جديدة قام بها علماء الآثار أدت إلى العثور على لقي أثرية ألقت ضوءاً على جوانب قد تكون قد أهملت أو أمكن في ضوء مثل هذه الاكتشافات الجديدة إعادة تفسير بعض الحوادث التاريخية تفسيراً يقترب كثيراً من الصحة(١).

وينقسم علم الآثار إلى قسمين أساسيين: التنقيب والدراسة الأثرية، أما الآثار نفسها (اللقى) فهي تنقسم أيضاً إلى قسمين هما: الفنون الكبرى وتشمل العمارة والنحت، والفنون الصغرى وتشمل العملة والرسم والفخار وأدوات الزينة وغيرها، وبالإضافة للقيمة المادية والفنية للمكتشفات الأثرية فإن هذه المكتشفات تعيد تجسيد صورة الإنسان القديم بكل نشاطاته المختلفة، فهي المنبع الذي يمكن عن طريقه استشفاف أفكار هذا الإنسان ومعتقداته وإمكانياته المادية وقدرته على استغلال هذه الإمكانيات، وتحدد

---

(١) عن العلاقة بين التاريخ والآثار راجع الدراسة القيمة لدافيد دايموند:
D. P. Dymond, Archaeology and History, A Plea for Reconciliation, Thames & Hudson, London, 1974.

قيمه وفنونه المختلفة، وتلقى الضوء على علاقته بالبيئة المحيطة به، وكيفية تطويعه لهذه البيئة ومدى نجاحه أو فشله في هذا المجال(١).

ومن الواضح أن علم الآثار يفيد كثيراً في إعادة تشكيل صورة ما للمجتمعات القديمة التي لم تعرف الكتابة عن طريق المكتشفات الأثرية التي توضح جوانب النشاط الحضاري لمثل هذه المجتمعات، وحتى في المجتمعات التي عرفت الكتابة فقد تصحح الآثار معلومات المؤرخ في ظروف معينة، فقد تكون الوثائق التي يعتمد عليها غير دقيقة، أو تحمل قدراً من التحيز أو المحاباة أو غير ذلك من الصعوبات الشائعة التي كثيراً ما تواجه المؤرخ(٢).

وعودة إلى الحضارة فيبدو أن علماء الآثار يعرفونها بأنها تجمع لعدة سمات مرتبطة فيما بينها يتكرر حدوثها، وفي الغالب تأخذ هذه السمات الشكل المادي، ويركز عالم الآثار على ما يتغير منها عن عمد أي بفعل الإنسان.

---

(١) هنا تجب الاشارة إلى طبيعة عمل المشتغل بالآثار أو الدارس لها، فهو بالضرورة لا يقف عند حد التأكيد على القيمة المادية أو الفنية للمكتشفات الأثرية، فهو بالضرورة يتجاوزها إلى إضفاء البعد التاريخي ومن ثم الجضاري على هذه المكتشفات، وإلا تحول هذا الدارس أو المشتغل بالآثار إلى مؤرخ لتطور الفن.

(٢) فوزي الفخراني، الرائد في فن التنقيب عن الآثار، منشورات جامعة قاريونس، ١٩٧٨، صفحات ١٩ ـ ٢٢.

وهي دراسة قيمة حول كيفية التنقيب عن الآثار ثم كيفية التعامل مع اللقي الأثرية بشكل علمي مدعم بالجداول والرسوم التوضيحية بالإضافة إلى قائمة مراجع كبيرة تزيد عن الثلاثمائة مرجع حول الآثار بشكل عام والتنقيب بشكل خاص رغم أنه يؤخذ عليها عدم التركيز على التعامل مع الأثر من الناحية التاريخية والحضارية وكيفية تفسيره، فقد تجاوزها المؤلف بسرعة فيما يقل عن عشر صفحات من أصل ما يزيد عن أربعمائة وخمسين صفحة هي عدد صفحات هذه الدراسة. عن هذا الموضوع راجع أيضاً:

توفيق سليمان، الفن الحديث في التنقيب عن الآثار، مطبوعات الجامعة الليبية، كما توجد أيضاً الدراسة القيمة ـ رغم قدمها ـ للسير ليونارد وولي.

Leonard Wooley, Digging up the Past, London, 1930.

وهذه السمات المادية التي يهتم بها علماء الآثار ما هي إلا دلالات تيسر لهم التمييز بين الحضارات، فكلما ـ على سبيل المثال ـ لوحظت عدة تجمعات وثيقة الارتباط بدرجة واضحة تؤكد أن نوعاً معيناً من الأواني الفخارية يظهر دائماً في مجتمع أو حضارة معينة لتأكدنا كلما صادفناه بعد ذلك في مقبرة أو في منزل أو معبد أو غيره من الأماكن التي تتواجد بها مثل هذه الأواني، أن الأشخاص الذين ينتمون إلى أي من هذه الأماكن ينتمون بالتالي إلى نفس المجتمع بشكل ما[١].

وكل قبر، أو منزل أو معبد هي مصادر تمدنا بالعديد من الدلائل على نواحي نشاط المجتمع الذي تنتمي إليه هذه المصادر إذ أنه من الصعوبة بمكان أن توجد كل سمات تجمع أثري معين مع بعضها البعض، أو تكشف عنها حفرية واحدة، فالصورة الأثرية لحضارة ما تتكون من العديد من الدلائل الصغيرة التي أتت من مختلف الأمكنة وفي مختلف المناسبات، ولكن يربط دائماً بينها سمة رمزية تميز ذلك التجمع، هذه الصورة الكلية ربما كانت أكثر ثراءاً وشمولاً من النماذج الأثرية التي غالباً ما تظهر في الدراسات التكتيكية لعلم الآثار كمجرد نماذج، بينما هي في الواقع تتكون أساساً من سمات تعكس العادات، بل وفي الغالب تكون مشروطة بالتقاليد التي سادت في المجتمع موضوع الدراسة[٢].

ومما لا شك فيه أن العلم التطبيقي للمجتمعات القديمة المندثرة ـ أي النسق المادي من حضارة هذه المجتمعات ـ قد ترك أثراً واضحاً على علم الآثار فأدوات ومنازل ومعابد وطرق هذه المجتمعات تعيش ـ بشكل من الأشكال ـ لتوضح لنا المعرفة العلمية التي كان يمتلكها من صنعوها أو بنوها. وبالتالي فهي تمثل تطبيقات للمكتشفات والمخترعات المقبولة اجتماعياً،

---

(١) جوردون تشايلد، التطور الاجتماعي، صفحات ٤٧ وما بعدها، راجع أيضاً الفصل الأول من كتابه «ماذا حدث في التاريخ» عن «التاريخ وعلم الآثار».

Gordon Child, What Happened in History, Penguin 1942.

(٢) جوردون تشايلد، التطور الاجتماعي، صفحة ٤٨.

وهي في نفس الوقت دليل على الحاجات المقبولة إجتماعياً، فعلى سبيل المثال نجد أن الأدلة المادية على وجود أو عدم وجود نظام رئاسي في المجتمعات القديمة فيما قبل اكتشاف الكتابة قد ضاعت في الأغلب الأعم، ومع ذلك فإن الأثار الجنائزية والمنازل ومحتوياتها تسمح لنا شرعاً باستنتاج وجود أو عدم وجود رؤوساء. وإذا كانت أغلب المعتقدات الدينية القديمة قد اندثرت فإن التعبير المادي عنها في شكل معابد ومذابح وتماثيل للآلهة قد يبقي، بل قد يمدنا هذا التعبير المادي بمعلومات يمكن عن طريقها الاستنتاج إلى أي مدى كانت مثل هذه المعتقدات منظمة تحت اشراف كهنة محترفين.

واجمالاً فإن السجل الأثري لا يقتصر على أدوات الأنتاج وأسلحة الحرب، فمن الممكن استنتاج الشيء الكثير لا عن أساليب الانتاج بل ووسائله أيضاً، ويمكننا بالتالي تقدير دور الصناعة الأولية ودور التجارة من الوقائع الملاحظة، كما يمكن استنتاج خطة تقسيم العمل وتوزيع الانتاج، ويمكن اجراء عدة تخمينات قد تكون مقبولة حول العبيد ووضع المرأة ونظم التوريث بل يكاد يكون البناء الأيدولوجي الفوقي موضع فروض قد تصيب في أغلب الأحوال.

أخيراً يمكن القول أن علم الآثار يمكن أن يساهم بشكل واضح في تكوين صورة دقيقة عن الشق المادي من حضارة أي مجتمع ولو أنه يسهم أيضاً ـ عن طريق الاكتشافات ـ في إعادة تصور الشق غير المادي من الحضارة والذي يترك ـ غالباً لعلماء البردي والأديان والفلسفة القديمة والنقوش وغيرها من الدراسات المساعدة وبالتالي يكاد هذا التصور للمجتمعات التي وصلت إلى درجة متقدمة من الرقي الحضاري ـ خاصة بعد اختراع الكتابة ـ أن يكون أمراً لا جدال فيه، إلا أن المسألة تصبح شائكة تماماً إذا تعرض علم الآثار للمجتمعات التي لم تعرف الكتابة، ومن الممكن في مثل هذه الحالة إعادة تصور الشق المادي من الحضارة أما المؤسسات الإجتماعية على سبيل المثال فتكون أصعب في الوصول إليها، فالحكومة والعدالة والأسرة والملكية والحرب والسلام والدين تتفاعل مع بعضها في

المجتمعات البدائية وبالتالي يكون من الصعب الفصل بينها وتمييزها، والأسوأ من هذا في مثل هذه الحالات أن الأدلة الأثرية الأيجابية قد تكون مبهمة، بينما تكون الأدلة السلبية غير ذات قيمة في الغالب، فالقبور الفخمة أو القصور قد تكون دليلاً على وجود رؤساء للحكومات ـ إذا وجدت مثل هذه الحكومات ـ إلا أن غياب هذه القصور أو القبور لا يعد دليلاً حاسماً يثبت عدم وجود مثل هؤلاء الرووساء[1].

---

(١) عن هذا الموضوع بالتفصيل راجع الدراسة القيمة لجوردون تشايلد عن التفسير الاجتماعي للمعلومات الأثرية في: جوردون تشايلد، المرجع السابق، صفحات ٧٥ ـ ٩٢.

القسم الأول

الخلفية التاريخية

الفصل الأول
المصادر

المصادر الأثرية

تعتبر الآثار في مقدمة المصادر الأصلية التي نستقي منها معلوماتنا عن أي مجتمع يراد دراسته فهي التعبير المادي الملموس الذي يتركه لنا مثل هذا المجتمع موضحاً ممارساته في أغلب جوانب الحياة. والآثار بشكل عام تنقسم إلى فنون كبرى تشمل العمارة والنحت، وفنون صغرى تشمل الفخار والنقوش والعملة.

وحتى القرن التاسع عشر كانت المعلومات المتوفرة عن تاريخ العرب قبل الاسلام تجيء من التوراة وكتابات الإغريق والرومان وبعض ما كتبه العرب أنفسهم رغم ما قد يؤخذ عليهم أحياناً من الميل إلى التضخيم أو التقليل من شأن هذه الفترة والتعتيم عليها ـ حسب اتجاه كل مؤرخ ـ هذا بالإضافة إلى المعلومات التي قد يمكن استخلاصها من الشعر الجاهلي.

إلا أن الالاف من النقوش أصبحت الآن في متناول أيدي علماء الآثار والتاريخ وهي تحوي العديد من المعلومات عن ممالك شبه الجزيرة العربية، هذا بالإضافة إلى عشرات الالاف من المخربشات على الصخور في شمال بلاد العرب ما بين ثمودية ولحيانية وسبئية، إلى جانب ذلك وجدت الكثير من النقوش خارج شبه الجزيرة العربية كالتي أطلق عليها اسم النقوش الصفوية لأنها وجدت في جبال الصفا بالقرب من دمشق وهي تتشابه إلى حد كبير مع النقوش الثمودية[1].

---

(١) محمد بيومي مهران. تاريخ العرب القديم، ص ٢٥ أحمد فخري. دراسات في تاريخ الشرق القديم. ص ١٢٥.

يضاف إلى ذلك بعض النقوش الاشورية والبابلية التي أمدتنا بمعلومات لا يستهان بها عن علاقة العرب القدامى بالامبراطورية الآشورية والامبراطورية البابلية، وعدد من النقوش المعينية اكتشفت في مصر والحبشة وغيرها من النقوش النبطية التي ظهرت في اليونان [1].

ورغم ما للآثار (وللنقوش بصفة خاصة) من أهمية لا تنكر في التعرف على الكثير من جوانب تاريخ وحضارة شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام إلا أنه يؤخذ عليها العديد من نقاط الضعف فأغلب النقوش متشابهة في لغتها ومضمونها حيث أنها ترتبط غالباً بأمور شخصية كإنشاء مبنى معين أو تدشين معبد لإله ما وبالتالي فأهميتها ترتبط باللغة أكثر منها بالتاريخ كما أن الكثير من هذه النقوش قد عثر عليه في المعابد والقبور وبالتالي فالصبغة الدينية تكون ملتصقة بها بلا شك، وأيضاً يؤخذ على بعض النصوص أنها ليست بأكثر من مخربشات صغيرة أي أنها اجزاء من نقوش وليست نقوشاً كاملة، وفي الغالب فقد وجدت أغلب الأحجار التي دونت عليها هذه النقوش في غير اماكنها الطبيعية وبالتالي شكل هذا صعوبة كبيرة في الانتفاع منها تاريخياً، يضاف إلى كل هذا أن أغلب هذه النقوش لم تكن مؤرخة، ورغم كل هذا فقد أفادت هذه النقوش الدارسين المتخصصين في الكتابات القديمة وتاريخ وحضارة شبه الجزيرة العربية، فقد أمدتنا بأسماء عدد من الملوك لولاها لما عرفنا عنهم شيئاً، وقدمت معلومات عن العلاقة بين القبائل وبعضها البعض، كما أمكن حصر أسماء العديد من الآلهة التي عبدت في هذه المنطقة [2].

أما فيما يخص الفنون الكبرى (أي العمارة والنحت)، فإذا بدأنا بالعمارة لوجدنا أنه من المنشآت المعمارية البارزة معبد اكتشفت بقاياه بالقرب من صرواح في اليمن وعرف باسم «معبد العوام»، ويبدو من بقاياه أنه بني بقدر كبير من الفخامة والضخامة، وعثر في المعبد على بقايا أثرية من النقوش

---

(١) Lucken Vill, Ancient Records of Assyria and Babylonia, chicago 1927.

انظر أيضاً: سبتينوموسكاتي. الحضارات السامية القديمة صفحة ٣٥٥.

(٢) جواد علي. المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام. الجزء الأول صفحات ٤٤ ـ ٤٦.

وبعض المنحوتات أمكن عن طريقها إرجاع المعبد إلى الإله «المقه» وهو إله القمر الذي عبد في هذه المنطقة، كما أمكن عن طريق تتبع الأساليب المعمارية المتعددة التي ظهرت في طريقة بناء المعبد ارجاع تاريخه إلى الفترة من القرن الثامن إلى القرن الخامس قبل الميلاد(١).

وهنا وعن طريق دراسة مثل هذا الدليل المعماري الأثري يمكن لدارس التاريخ استخلاص العديد من المعلومات الهامة مثل أن منطقة سبأ التي اكتشفت بها هذا المعبد كانت كمثيلاتها من مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية تعبد القمر، كذلك يدلل الاهتمام ببناء المعبد على مدى الاهتمام بالحياة الدينية والذي يعتبر في حد ذاته انعكاس للاستقرار والثراء الذي نعم به هذا المجتمع.

كذلك من أمثلة العمارة الأثرية التي سيستخدمها الباحث في سد الفجوات التي تقابله أثناء عملية التأريخ لهذه الفترة من تاريخ شبه الجزيرة العربية عمارة الأسوار التي تحيط بالمدن والسدود التي أقيمت لحجز مياه الأمطار والتحكم فيها في مجتمع شحيح في موارده المائية كسد مأرب في اليمن، وسد السملقي في ضواحي مدينة الطائف، كذلك النحت في التكوينات الصخرية كما هو حادث في مدينة البتراء عاصمة دولة الأنباط (جنوب الأردن) وفيما يخص الجزيرة العربية فقد تم هذا النوع من العمارة في شمال غرب الجزيرة العربية فيما يعرف باسم مغاور شعيب.

ويبرز هذا النوع من العمارة تأثر منفذوه بالانباط مما يرجح اتساع رقعة دولة الانباط في ذلك الوقت وإمتداد تأثيرهم خارج حدود دولتهم، كما يظهر أيضاً تأثر منفذوا هذا النوع من العمارة بالطرز اليونانية الرومانية خاصة في الواجهات والأفاريز والأعمدة(٢).

أما النحت (والذي ينقسم بدوره إلى قسمين: النحت الدائري،

---

(١) لطفي عبد الوهاب يحيى. العرب في العصور القديمة. صفحات ١٢٨ ـ ١٢٩.
(٢) لطفي عبد الوهاب يحيى. المرجع السابق. صفحات ١٣٢ ـ ١٣٥.

والنحت البارز) ففيما يخص النحت الدائري فقد عثر بقرب الشاطىء الغربي للخليج على تمثال حجري يكاد يتطابق مع التماثيل السومرية التي ظهرت في جنوب العراق ويعود تاريخها إلى حوالي ثلاثة الاف عام قبل الميلاد، مما يدلل على حدوث اتصال بين هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية وبين حضارة وادى الرافدين في هذه الفترة. كما عثر في مدينة العلا (قرب مدائن صالح شمال غرب شبه الجزيرة) على تمثال يشبه كثيراً التماثيل المصرية القديمة ويشير بشكل يكاد يكون مؤكداً إلى التأثير الفني المصري الذي انتشر في هذه المنطقة وينطبق نفس الشيء على تمثال عثر عليه في مدينة تمنع في قتبان جنوب شبه الجزيرة العربية يمثل طفلاً يمتطى أسداً ويعود إلى حوالي القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الأول الميلادي، فهذا التمثال يظهر أيضاً تأثراً واضحاً بالفن اليوناني، وهو ليس بالأمر الغريب إذا عرفنا أن اليونان كانوا قد بدأوا في مزاولة الملاحة في البحر الأحمر منذ القرن الثالث قبل الميلاد واستمر نشاطهم البحري حتى في العصر الروماني فيما بعد.

أما النحت البارز فيمثله شاهد قبر من تيماء شمال غرب شبه الجزيرة ويرجع إلى أواسط الألف الأولى قبل الميلاد ويمثل شخص المتوفي يقدم القرابين إلى إله القمر الثمودي، ويمكن من هذا استنتاج أن الثموديين قد سكنوا هذه المنطقة واستقروا بها وعبدوا القمر والذي كان معبوداً منتشراً آنذاك(٢).

ويندرج تحت مسمى «الفنون الصغرى» الفخار والعملة واللذان ربما كانا من أكثر الأدوات استخداماً في الحياة اليومية في المجتمعات القديمة ومنها كان مجتمع شبه الجزيرة العربية القديم، ومن هنا تأتي أهمية العثور على كميات من الفخار أو العملة في موقع أثري معين مما يدلل على نشاط بشري واضح سواء كان استقرار زراعي أو نشاط تجاري، فقد استخدم الفخار في صنع أغلب الأواني والأوعية المستخدمة في الحياة اليومية، وحتى في

(١) لطفي عبد الوهاب يحيى. المرجع السابق. صفحات ١٣٢ ـ ١٣٥.

(٢) لطفي عبد الوهاب يحيى. المرجع السابق. صفحات ١٣٦ ـ ١٣٨.

الحياة الدينية في المعابد أو أماكن الإجتماعات الدينية.

أما العملة فمن الطبيعي أن تواجدها يعني نشاطاً تجارياً سواء داخلياً أو مع المناطق المجاورة لشبه الجزيرة العربية وفي هذه الفترة الزمنية كان ظهور قطع من العملة يعني بالضرورة أن النشاط التجاري قد بلغ حداً من الكثافة اضطر معه المتعاملون إلى التخلي عن الطريقة القديمة والتقليدية في التعامل التجاري وهي المقايضة والإستعاضة عنها باستعمال الطريق الأسهل والأوثق وهو العملة ولهذا فإن ظهور بعض قطع العملة الأثينية الطراز والصادرة في سبأ حوالي القرن الثالث أو الثاني قبل الميلاد يعني أن التجارة بين اليمن وبين الأثينيين كانت مزدهرة في ذلك الوقت.

المصادر الكتابية

أولاً: كتابات غير عربية:

١ ـ كتابات يهودية:

وأهم هذه الكتابات التوراة والتلمود، والتوراة وهي كتاب اليهود المقدس الذي ينسب إلى موسى ـ عليه السلام ـ تحدثت في العديد من أسفارها عن العرب وعلاقتهم بالاسرائيليين (في أسفار التكوين والخروج والقضاة والملوك ونحميا وغيرها من الأسفار)[١] إلا أن تعرض التوراة للعرب كان دائماً ما يأتي من خلال علاقتهم باليهود سواء كانت هذه العلاقة سياسية أو اقتصادية وغالباً ما كانت الاشارات تأتي مبتورة أو عابرة وبذا يكون على الباحث استكمال الصورة باستعمال المصادر الأخرى المتاحة، وكلمة عرب في التوراة والتلمود أيضاً كانت تعني «البدو» أو «عرب الصحراء» أما سكان الحضر من العرب فكان يشار إليهم دائماً بموطنهم كأهل سبأ مثلاً ويتضح هذا في قصة سليمان وملكة سبأ[٢].

أما التلمود فيعتبر تكملة للتوراة ويشمل الأحكام والشروح ومجموعة الروايات المتصلة بها. ورغم أن التوراة والتلمود يفترض فيهما أنهما من

(١) راجع الدراسة المفصلة عن التوراة في: محمد بيومي مهران. اسرائيل. صفحات ١٩ ـ ١٥٩. وعن أصل التوراة والاراء المتعددة حوله راجع: كامل الصليبي. التوراة جاءت من جزيرة العرب. ترجمة عفيف الرزاز مؤسسة الابحاث العربية. بيروت ١٩٨٦.

(٢) عبد الرحمن الطيب الانصاري. لمحات عن القبائل البادية في الجزيرة العربية. مطبوعات جمعية التاريخ والاثار بكلية الآداب جامعة الرياض. ١٩٦٩ صفحة ٨٦.

المصادر الأصلية في تاريخ العرب قبل الإسلام حيث تعاصرا مع نفس الفترة التاريخية، إلا أن فترة الرواية الشفهية التي مرت بها أسفار التوراة وأحكام التلمود تجعلنا نتعامل معهما بحذر، وذلك من منطلق أن الرواية الشفهية تجعل من السهل التغيير والتبديل والتحوير لصالح فكرة معينة أو ضدها وسواء تم هذا التحوير بقصد أو دون قصد فإنه ينزل بالمصدر التاريخي مباشرة إلى المرتبة الثانية وربما الثالثة[1].

٢ ـ كتابات كلاسيكية:

يجيء أول ذكر مطول للعرب في الكتابات الكلاسيكية عند هيرودوت حوالي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد والذي أرخ للصراع بين اليونان والامبراطورية الفارسية في ٤٩٠ و ٤٨٠ قبل الميلاد والذي انتهى لصالح اليونان، وربما تكون بداية الاهتمام بالعرب وأحوالهم ناتجة عن ظهور وحدات عسكرية عربية ضمن الجيش الفارسي الذي تصارع مع الجيش اليوناني. ورغم مبالغات هيرودوت التي تصل إلى حد الخيال أحياناً ـ وهو الأمر الطبيعي بسبب اعتماده على الرواية في الكثير من الأحيان ـ فقد اورد في تاريخه الكثير من المعلومات عن العرب وعاداتهم وتقاليدهم وديانتهم وعلاقاتهم الخارجية وظروفهم الأقتصادية كما تحدث عن موقع شبه الجزيرة العربية ومنتجاتها من الطيوب والتوابل[2].

يأتي بعد ذلك أريستوبولوس وهو جغرافي من رفقاء الاسكندر المقدوني وصلتنا كتاباته عن شبه الجزيرة العربية عن طريق كاتب كلاسيكي لاحق هو اريانوس، وقد تحدث اريستوبولوس عن مساحة شبه الجزيرة العربية وسواحلها الشرقية وسكانها وعاداتهم وعن الطيوب والتوابل التي رأى أنها من أهم موارد العرب[3].

---

(١) نجيب ميخائيل ابراهيم. مصر والشرق الادني القديم (سورية) صفحة ٣١٢. جواد علي. المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام الجزء الاول. صفحة ٦٣٦.

(٢) Herodotus, Historiae, II. 11; 5, 7. 9; III, 107, 133; II. 12; II, 141; III, 8. 108; VII, 69.

راجع كذلك: لطفي عبد الوهاب يحيى. المرجع السابق صفحات ١٩٦ ـ ٢٠٠.

(٣) Arrianus, Anabasis, VII, 6 - 20; VII, 20, 8 - 10.

أما سترابون الذي كتب في القرن الأول قبل الميلاد فقد اتيحت له فرصة المعايشة عن قرب من خلال صحبته لصديقه الوالي الروماني اليوس جاللوس الذي قاد حملة على بلاد العرب في عام ٢٤ قبل الميلاد ضم لها سترابون الذي وصف مشاهداته في شبه الجزيرة العربية في الكتاب السادس عشر من مؤلفه الشهير «الجغرافيا»(٢).

ومع نهاية القرن الثالث وبدايات الثاني قبل الميلاد تظهر كتابات ايراتوسثينيس (الملقب باراتسطين عند العرب) وقد كان أحد امناء مكتبة الاسكندرية الشهيرة، كتب في الجغرافيا وقدم معلومات لها أهميتها الأقتصادية عن شبه الجزيرة العربية، فقد قسم المنطقة إلى قسمين رئيسيين هما: بلاد العرب الصحراوية وبلاد العرب السعيدة، كما تحدث عن الدول الأربع التي قامت في جنوب شبه الجزيرة وهم المعينيون والسبئيون والقتبانيون والحضارمة مستعرضاً ملامح من حضاراتهم بحديثه عن عواصمهم وحياتهم السياسية ومواردهم الإقتصادية(٣).

هذا غير كتابات اجاثارخيديس الجغرافي الذي كتب مؤلفاً معروفاً بعنوان «الطواف حول البحر الاريثري» ـ أي البحر الأحمر ـ وصف فيه سواحل شبه الجزيرة المطلة على البحر الاحمر ثم كتابات ارتميدوروس الذي نقل كثيراً عن اجاثارخيديس وإن كانت له بعض الإضافات.

ومع منتصف القرن الأول الميلادي يظهر المؤرخ الروماني الشهير «بليني الأكبر» بكتاباته الموسوعية ودراسته الشهيرة «التاريخ الطبيعي» التي تناول فيها الكثير من شؤون شبه الجزيرة العربية الجغرافية والأقتصادية والسياسية، كما تناول بشيء كثير من التفصيل التوابل والطيوب الموجودة في المنطقة كاللبان والمر والمستكة والصمغ اللادن والأخشاب العطرية وغيرها(١).

---

(١) H. L. Jones, The Geography of Strabo, London 1949.
CF. De Lacy O'Leary, Arabia before Muhammed, P. 75.

(٢) Strabo, XVI, 4. 2 - 4.

(٣) Pliny, H. N., VI, 147 - 162.

كذلك لا يمكننا تجاهل كتابات بطلميوس الجغرافي الذي وضع ادق خريطة للعالم في العصر القديم وظلت معمولاً بها حتى فيما بعد عصر النهضة. وقد اختلف بطلميوس عن ايراتوسيثينس الذي قسم شبه الجزيرة العربية إلى قسمين هي العربية الصحراوية والعربية السعيدة كما سبق القول، فقد قسمها بطلميوس إلى ثلاثة أقسام: العربية الصحراوية، العربية الصخرية، والعربية السعيدة، وقد حدد موقع كل قسم بخطوط الطول والعرض الجغرافية (١).

أما كتابات المؤرخ اليهودي الروماني «جوزيفوس» أو «يوسف بن متى» كما عرفه العرب فقد ظهرت في الربع الأخير من القرن الأول الميلادي عن «أثار اليهود» و«الحروب اليهودية» وتظهر تحيزاً كبيراً لليهود والكثير من عدم الدقة التاريخية وخلط الأحداث والتسرع في الأحكام واستخلاص النتائج، إلا أن حديثه عن الفترة التي عاصرها يتسم بشيء من العقلانية والموضوعية وفيه يورد معلومات قيمة عن العرب والانباط لا توجد في كتب أخرى وإن كان لا يهتم بهم إلا في معرض حديثه عن علاقتهم باليهود (٢).

وضمن الكتاب الرومان يظهر ثلاثة منهم ممن تعاملوا أو أشاروا إلى شبه الجزيرة العربية إلا أنهم يعودوا إلى العصر الامبراطوري المتأخر، أولهم «ايوسيبيوس» الذي اشتهر اوائل القرن الرابع الميلادي بكتابه «تاريخ الكنيسة» والذي أورد فيه عدة اشارات عن العرب من منطلق حديثه عن المسيحية وانتشارها، وثاني هؤلاء الكتاب «اميانوس مار كللينوس» الذي عاش في القرن الرابع الميلادي ووصلنا حزء لا يستهان به من كتابه «التواريخ» وتأتي قيمة كتاباته من وصفه الحي لحملات روما ضد الامبراطورية الفارسية والتي اشترك في بعضها مما اتاح له الفرصة للتعرف على بعض القبائل العربية التي ساندت فارس في حروبها ضد روما، أما ثالث هؤلاء الكتاب فهو

---

(١) Ptolomy, Geography, V. 14, 5, 18 - 19.

(٢) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٣١ ـ ٣٢ كذلك: جواد على، المرجع السابق. الجزء الثالث ص ٥٥.

«بروكوبيوس» الذي ظهر في منتصف القرن السادس الميلادي وكتب مؤلفاً ـ بعنوان «عن الحرب» تحدث في جزء منه عن الحروب بين بيزنطة وفارس ومن خلال هذا يتعرض بالحديث للغساسنة واللخميين وهما الامارتان اللتان شاركتا في هذا الصراع[١].

٣ ـ وثائق بردية:

وقد تم اكتشاف مجموعة من الوثائق البردية تعود بتاريخها إلى القرنين السادس والسابع الميلاديين أي فيما قبل وأثناء وبعد البعثة النبوية مباشرة، وقد تم هذا الاكتشاف في منطقة «نيسانا» أو «نصطانة» شمال شرق شبه الجزيرة العربية وهو المكان الذي كان يمثل نقطة حدودية بين بلاد الروم والعرب، وأغلب المجموعة كتب باللغة اليونانية مع قليل منها كتب باللغة اللاتينية وتتحدث غالباً عن الجمارك على البضائع والحركة التجارية في المنطقة، وتكتسب هذه الوثائق أهميتها من كونها معاصرة لبدايات التاريخ الإسلامي وبالتالي فهي تسهم في إلقاء الضوء على فترة التحول هذه من تاريخ العرب القديم إلى التاريخ الإسلامي[٢].

ثانياً: كتابات عربية:

١ ـ القرآن الكريم:

هو كتاب الله الذي «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حميد مجيد»، نزل على رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة (الفترة من ١٣ قبل الهجرة إلى ١١ هجرية أو ما يقابلها بالميلادي أي ٦١٠ إلى ٦٣٢ ميلادية)[٣] ودون حال نزوله بإملاء الرسول الكريم وتلي فيما بعد أمامه وحمل تصديقه النهائي قبل وفاته[٤]، وبذا يصدق فيه قول الله تعالى: «أنا نحن نزلنا

---

(١) لطفي عبد الوهاب يحيى. المرجع السابق. صفحات ٢١٨ ـ ٢٢٨.

(٢) مصطفى العبادي. تاريخ العرب قبل الاسلام. غير منشور. صفحات ٥١ ـ ٥٢.

(٣) محمد عبد الله دراز. مدخل إلى القرآن الكريم. الكويت ١٩٧٤ صفحة ٣٣.

(٤) محمد عبد الله دراز. المرجع السابق. صفحة ٤٩.

الذكر وأنا له لحافظون»[1] ومن ثم فلا سبيل إلى الشك في صحة نصه كما هو حادث مع الكتب الأخرى. وتعود أهمية القرآن الكريم كمصدر تاريخي ـ رغم أنه ليس بكتاب تاريخ ـ إلى محاولته تصحيح أوضاع وممارسات خاطئة كانت تحدث في المجتمع الجاهلي وبالتالي يعطينا فكرة واضحة عن هذه الأوضاع والممارسات وعن ظروف هذا المجتمع التي أدت إلى ظهور مثل هذه الأوضاع والممارسات وتمسكه بها وبالتالي يحصل الباحث هنا على صورة واضحة ـ رغم أنها ليست مؤرخة بالسنين ـ للصراع الذي شهده هذا المجتمع بين اسلوبين للحياة أحدهما كان قائماً فعلاً في نهاية العصر الجاهلي أو بمعنى آخر عصر ما قبل الاسلام والثاني هو ما كان الإسلام في طريقه إلى تقديمه حتى يتبناه هذا المجتمع[2].

وقد تضمن القرآن الكثير من الاشارات إلى الأقوام الذين سكنوا شبه الجزيرة فيما قبل ظهور الإسلام أمثال قوم عاد وثمود وهود ولوط وقص بعض قصص الأنبياء التي ارتبطت بشبه الجزيرة العربية مثل قصة النبي إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وقصة سليمان وملكة سبأ، كما أشار إلى بعض النواحي الأقتصادية كقصة سد مأرب وما أصابه من سيل عرم أثر بالسلب على الرخاء الذي شهدته اليمن، وكذلك رحلة الشتاء والصيف وكانت مصدراً اقتصادياً هاماً للعرب، كذلك تضمن القرآن الكريم بعض الأحداث التاريخية كقصة أصحاب الأخدود وقصة أصحاب الفيل، كما أشار إلى أسماء العديد من الآلهة الوثنية التي عرفها العرب قبل الإسلام مثل اللات والعزى ومناة وسواع ويعوق ونسرا[3].

٢ ـ الحديث الشريف:

وهو المصدر الديني الإسلامي الذي يلي القرآن في أهميته، وهو

(١) سورة الحج. آية ٩.

(٢) قارن: لطفي عبد الوهاب يحيى. المرجع السابق صفحة ١٦١.

(٣) سورة النجم. آية ١٨.

قارن أيضاً: مصطفى العبادي. المرجع السابق. صفحة ٢٣.

الأقوال المروية عن الرسول ﷺ، وأهمية الحديث تنبع من أنه رغم اهتمامه بالأحكام الدينية وقضايا المجتمع الإسلامي بالدرجة الأولى إلا أنه تضمن قدراً من أخبار العرب قبل الإسلام. وقد جمع الحديث ودون على عهد عمر ابن عبد العزيز في أواخر القرن الثاني الهجري، وخلال هذه الفترة الزمنية الطويلة. كان من الطبيعي أن يدخل على الأحاديث الصحيحة أحاديث منسوخة أو منحولة تكفل بها ثقاة علماء المسلمين الذين جمعوا ودرسوا هذا الأحاديث مثل صحيح البخاري، وصحيح مسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي ومسند أحمد ابن حنبل.

٣ ـ الشعر الجاهلي

الشعر يعتبر كأي لون أدبي آخر مصدراً تاريخياً ـ وإن كان غير مباشر ـ فالأدب بشكل عام مصدر تاريخي صحيح غالباً ـ يعبر عن وجدان الشعب وأفكاره ومعتقداته وعقيدته، أجمالاً عن كل ظروفه الحياتية، وهو هنا يختلف عن الوثائق التاريخية المباشرة كالسجلات الحكومية التي تعبر دائماً عن الطبقة الحاكمة ولما كان الشعر هو اللون الأدبي الغالب على حياة العرب قبل الإسلام وإلى حد ما بعد ظهور الإسلام أيضاً، لذا كان من الصعب تجاهله رغم ما يثيره الاعتماد على الشعر كمصدر تاريخي من حساسية لدى بعض المؤرخين.

ورغم هذا فمن الصعب التغاضي عن بعض عيوب الشعر الجاهلي كمصدر تاريخي ومنها على سبيل المثال أنه لا يغطي أكثر من عصر الجاهلية أي حوالي قرنين قبل ظهور الإسلام، بينما الفترة التاريخية التي يتعامل معها دارس تاريخ العرب القديم تمتد من حوالي ١٥٠٠ ق. م إلى ٦١٠م.

وكذلك فعادة ما يتعامل الشعر مع التاريخ الديني والإجتماعي متجاهلاً بذلك التاريخ السياسي، يضاف إلى ذلك أن الشعر الجاهلي تم تداوله شفاهة لأكثر من قرنين قبل تدوينه مما يحيطه بالشك، هذا ولا ننسى أن أغلب الشعر الجاهلي الذي وصلنا كان من ابداع بدو شبه الجزيرة العربية وبهذا فهو لا

يعبر عن الحضر مثل تعبيره عن البدو. وفي النهاية فمهما كانت المعارك الأدبية حول الشعر الجاهلي واصالته من عدمه فإنه وجد بلا شك حتى بعد استبعاد الكثير مما وصلنا منه مما يفيد الباحث الإجتماعي والتاريخي فائدة كبرى[1].

٤ ـ كتاب التاريخ الإسلامي:

مع حلول القرن الثاني الهجري اهتم المؤرخون المسلمون بكتابة تاريخهم وكان من الطبيعي أن تحتل سيرة محمد ﷺ المقام الأول في كتاباتهم ومن خلال هذا تعرضوا إلى تاريخ العرب قبل الإسلام أي القبائل العربية التي سبقت البعثة النبوية أو التي اتصلت اخبارهم بسيرة الرسول الكريم، هذا بالاضافة إلى أن القرآن ذكر الكثير من أحوال العرب القدماء واخبارهم مما دفع المؤرخين إلى محاولة تفسير ذلك وتقديم مادة تاريخية مناسبة.

لكن مما يعيب هذه الكتابات عدم معاصرة أصحابها للفترة الزمنية التي كتبوا عنها مما يضعفها ويقلل الثقة بها، وحتى اعتمادهم على مصادر موثوق بها لم يكن كاملاً واكتفوا ببعض المصادر الفارسية أو البيزنطية، ومن هنا جاء اعتمادهم بشكل واضح على الرواية أو الأخباريين مع ما يشوب هذا من خطر.

وأقدم هؤلاء الأخباريون أو المؤرخون المسلمون أن جاز إطلاق هذا الوصف عليهم كان عبيد بن شرية اليمني الذي ربما ظهر في عصر الخليفة معاوية وقد وضع كتاباً بعنوان «اخبار اليمن وأشعارها وأنسابها»، ونظراً لسبقه

---

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق ـ صفحات ٤٦ ـ ٥٢.
وعن قضية الشعر الجاهلي التي أثارها مرجليوث بادعائه إن هذا الشعر في غالبه منحول وكتب في العصر الاسلامي وأيده في رأيه هذا طه حسين راجع: لطفي عبد الوهاب يحيى المرجع السابق. صفحات ٢٤٥ ـ ٢٨٠.

بين كتاب التاريخ فقد اكتسب مكانة متميزة وأخذ عنه فيما بعد كتاب كثيرون منهم الهمذاني[١].

وثانى الإخباريين كان وهب بن منبه الذي وضع مؤلفاً شهيراً في تاريخ اليمن القديم تحت اسم «كتاب التيجان في ملوك حمير» ويستعرض فيه التاريخ منذ بداية الخلق وحتى استيلاء الحبشة على اليمن ثم طردهم منها بمساعدة الفرس.

أما هشام بن السائب المعروف بابن الكلبي فقد وصلنا من أعماله المتعددة كتاب «الأصنام» الذي خصصه لدراسة الآلهة العربية القديمة وأسمائها والمعابد التي عبدت فيها وهو بلا شك ذو فائدة كبرى خاصة لعلماء الآثار.

يبرز بعد ذلك المؤرخ والجغرافي المعروف الهمذاني الذي اشتهر بكتابه «الاكليل» في ثمانية اجزاء وصلنا منها أربعة فقط، ويعتبر موسوعة كبرى في تاريخ اليمن القديم، وله كتاب آخر بعنوان «صفة جزيرة العرب» ويعتبر من أشمل الكتب في وصفه لشبه الجزيرة العربية من الناحية الجغرافية والتاريخية.

ويعتبر كتاب الطبري «تاريخ الأمم والملوك» المعروف باسم «تاريخ الطبري» محاولة لدراسة تاريخ العالم عامة والتاريخ الإسلامي خاصة، إلا أنه تعرض لتاريخ العرب قبل الإسلام في علاقاتهم بالدولة الساسانية الفارسية خاصة وأنه كان فارسي الأصل[٢].

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد. تاريخ العرب قبل الاسلام. صفحات ٣١ ـ ٣٣ السيد عبد العزيز سالم. دراسات في تاريخ العرب (عصر ما قبل الاسلام) صفحات ٣١ ـ ٣٢.

(٢) مصطفى العبادي. المرجع السابق. صفحات ٢٨ ـ ٣٨.

الفصل الثاني

الارض والسكان

أولاً: الأرض

بلاد العرب عبارة عن شبه جزيرة تقع في جنوب غـرب آسيا أشبـه ما تكون بمستطيل غيـر متوازي الاضـلاع تحيط بها البحـار من ثلاثـة جهات، البحر الأحمر من الغرب، والخليج العربي من الشرق، والمحيط الهندي من الجنوب، و إلى الشمال توجد بادية الشام، وقد علل البعض تسميتهم للمنطقة بجزيرة العرب بأن مياه دجلة والفرات تحدانها من الشمال بالإضافة إلى المياه التي تحيط بها من الجهات الثلاث الأخرى(١).

وتبلغ مساحة شبه الجزيرة العربية أكثر من مليون ميل مربع وبالتالي تعد أكبر شبه جزيرة في العالم، يبلغ طول ساحلها الغربي من رأس خليج العقبة حتى خليج عدن ١٤٠٠ ميل، أما الساحل الشرقي من الخليج العربي شمالاً حتى الجنـوب في أقصى اتساع لخليـج عمان ١٥٠٠ ميـل، كما تمتـد شبه الجزيرة من بحر العرب جنوباً حتى أقصى حدود المملكة العـربية السعـودية ١٦٠٠ ميل، أما اتساعها في أوسع نقطة بين خليج عمان والبحر الأحمر فيبلغ ١٢٠٠ ميـل، وفي أضيق نقـطة بين البحـر الأحمـر والخليـج العـربي فيبلغ ٧٥٠ ميلاً،(٢).

---

(١) الهمذاني. صفة جزيرة العرب. صفحات ٤٥ ـ ٤٨.

أحمد الشامي. في تاريخ العرب والاسلام. صفحات ٧ ـ ٨.

(٢) محمود طه أبو العلاء جغرافية شبه الجزيرة العربية ص ٥ ـ ٧.

ويرى بعض علماء الجيولوجياً إن شبه الجزيرة ما هو إلا امتداد طبيعي للصحاري الإفريقية التي يفصلها عنها الآن منخفض البحر الأحمر، وإنه في جزء من العصر الجليدي كانت هذه الصحاري مناطق خضراء آهلة بالسكان، ولما كانت طبقات الجليد التي غطت اجزاء كبيرة من آسيا في هذه الفترة السحيقة لم تتجاوز جبال آسيا الصغرى جنوباً فإن شبه الجزيرة لم تضار وظلت دائماً آهلة بالسكان(١)، هذا رغم عدم وجود أنهار دائمة الجريان بها ولكن أودية يجري بها الماء حيناً ويجف حيناً آخر وهي غير صالحة للملاحة(٢).

ويغلب على تكوين شبه الجزيرة الصحارى والدارات، والدارات سهول رملية مستديرة بين التلال توجد تحت سطحها مياه منها بادية الشام وبراري العراق، ويعرف القسم الجنوبي من العراق ببادية العراق أو السماوة، أما الأرض الصحراوية فهي على ثلاثة أنواع: «النفود» وهي النوع الأول، عبارة عن قفار متسعة ذات رمال بيضاء وحمراء تجعل منها الرياح كثباناً أو تلالاً وتغطي جزءاً كبيراً من شمال شبه الجزيرة العربية وأحياناً ما يطلق عليها «الدهناء». النوع الثاني يعرف أيضاً «بالدهناء» أو «الربع الخالي» وإلى الغرب منها تقع «الأحقاف» وهي عبارة عن كثبان رملية مستطيلة. أما النوع الثالث فهو «الحرة» وهي عبارة عن أرض من الحجارة الرملية تعلوها حمم البراكين القديمة وتكثر في غرب ووسط شبه الجزيرة العربية(٣).

وقد اختلف الجغرافيون على تقسيمات شبه الجزيرة العربية فالقدماء منهم قسموها إلى منطقتين هما: العربية الصحراوية، والعربية السعيدة، ثم أضاف الجغرافيون الأحدث قسماً ثالثاً هو العربية الصخرية. إلا أن أغلب الأراء قد اتفقت على أن أفضل التقسيمات هو ما اتفق عليه المؤرخون

---

(١) فيليب حتى. تاريخ العرب. الجزء الأول صفحة ١٥.
(٢) أحمد أمين. فجر الاسلام. صفحة ١.
أحمد الشامي. المرجع السابق. صفحة ٩.
(٣) فيليب حتى. المرجع السابق. صفحات ١٦ ـ ١٩.

والجغرافيون العرب وتبعهم المحدثون في ذلك من حيث تقسيم المنطقة إلى خمس مناطق هي[1]:

١ - **تهامة**: وهي سهولة ساحلية في الطرف الغربي لشبه الجزيرة العربية تمتد من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال وتختلف اسماؤها حسب موقعها مثل تهامة الحجاز وتهامة عسير وتهامة اليمن، كما يختلف اتساعها من منطقة لأخرى، ففي الجنوب في تهامة اليمن تبلغ أقصى اتساع لها، وفي الشمال عند خليج العقبة أقل اتساع لها، وفي بعض اجزاءها تتصل المرتفعات مباشرة بسواحل البحر الأحمر حيث لا توجد سهول، كما يطلق على هذه المناطق أحياناً اسم الغور لأنها منخفض بين ساحل البحر الأحمر والمرتفعات.

٢ - **الحجاز**: وسميت كذلك لوجود سلسلة من الجبال بها تحجز بين تهامة ونجد وتقع إلى شرق تهامة ويعتبر الحجاز من أهم مناطق شبه الجزيرة العربية لوقوع مكة والمدينة به ولأن الطريق التجاري الذي يربط بين الشام واليمن يمر من هذ الأقليم.

٣ - **نجد**: ويطلق هذا الاسم على الأرض المرتفعة التي تفصل تهامة واليمن جنوباً وبين العراق والشام شمالاً، وهي هضبة صحراوية تمتد من الحجاز غرباً إلى البحرين شرقاً ومن بادية الشام شمالاً إلى شمال اليمن جنوباً، وتشغل نجد جزءاً كبيراً من وسط شبه الجزيرة العربية وتتكون من عدة أقسام هي بادية السماوة أو النفود الكبير وجبل شمر والدهناء والحرات والربع الخالي أو وادي الأحقاف والحرات (حرة).

٤ - **العروض**: وسميت كذلك لاعتراضها بين نجد واليمن ويقع في الجنوب الشرقي بين نجد واليمن ويقيم هذا الإقليم اليمامة والبحرين والأحساء وعمان.

---

(١) الهمذاني. صفة جزيرة العرب. صفحة ٤٨، ياقوت الحموي. معجم البلدان. الجزء الثالث. صفحة ٢١٩. قارن: أحمد الشامي المرجع السابق. صفحات ٨ وما بعدها.

٥ ـ اليمن: وسميت العربية السعيدة وتقع في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية وتتحكم في مدخل البحر الأحمر الجنوبي وأهم مدنها صنعاء ومأرب ونجران وظفار وحضرموت والشحر. وعكس أغلب شبه الجزيرة العربية فاليمن خصبة التربة ذات ماء وفير وبالتالي ازدهرت فيها الزراعة وبالتالي عرفت اليمن التبادل التجاري مع المدن والدول المجاورة داخل أو خارج شبه الجزيرة العربية مثل الهند والصين(١).

أما مناخ شبه الجزيرة فهو جاف حار على الرغم من وقوعها بين بحرين من الشرق والغرب إلا أن مساحتهما أضيق من أن تكفي لكسر حدة الجفاف في هذه المنطقة العديمة المطر.

وفيما يخص الحاصلات الزراعية فيكثر النخيل في الحجاز ويزرع القمح في اليمن والصمغ العربي في عسير والبن في اليمن وقد دخلها حوالي القرن الرابع عشر. ويعتبر النخيل أشهر نبات في شبه الجزيرة العربية وينتج التمر الذي هو قوام طعام البدو، ورغم أن النخل أشهر الأشجار العربية إلا أنه غير عربي الأصل فقد انتقل من بابل من الشمال إلى شبه الجزيرة.

أما الحيوانات في شبه الجزيرة فقد انتشر النمر والفهد والضبع والذئب والثعلب، أما الأسد فيبدو أنه انقرض الآن، ومن الطيور الكواسر العقاب والبازي والصقر، ومن الحيوانات الداجنة الغنم والماعز والجمل والحمار.

ورغم اشتهار شبه الجزيرة العربية بالخيول العربية الأصلية إلا أنها أيضاً لم تكن عربية الأصل فقد انتقل الحصان إلى غرب آسيا بواسطة الحيثيون حوالي ٢٠٠٠ ق. م. ثم دخل الجزيرة العربية عن طريق سوريا فيما قبل العصر المسيحي، ثم نقله الهكسوس من سوريا إلى مصر، ونقله الليديون من آسيا الصغرى إلى اليونان.

أما الجمل فهو أشهر وأنفع حيوان للعربي في شبه الجزيرة فهو اداة للغذاء والانتقال ووسيلة لتبادل السلع ودليل على الثراء، ولعب الجمل دوراً

---

(١) أحمد الشامي. المرجع السابق. صفحات ١٠ ـ ٢١.

هاماً في حياة العرب الاقتصادية بالاضافة إلى أنه كان من العوامل التي سهلت الفتوح الاسلامية الأولى، وقد دخل الجمل إلى فلسطين وسورية من شمال شبه الجزيرة العربية في القرن الحادي عشر قبل الميلاد[1].

(١) فيليب حتى. المرجع السابق. صفحات ١٩ ـ ٢٧.

ثانياً: السكان واللغة

يتشابه الجزء الجنوبي الغربي من آسيا والذي يشمل شبه الجزيرة العربية، وفلسطين وسوريا والعراق في بيئته الطبيعية وتاريخه الجنسي، فشبه الجزيرة العربية عبارة عن هضبة قاحلة ترتفع من البحر الأحمر والمحيط الهندي لتنحدر تدريجياً نحو الشمال الشرقي في اتجاه الخليج العربي والعراق والجزء الشرقي من سوريا. ومعظم هذه المساحة عبارة عن مناطق صحراوية إلا في شريط ضيق على الحدود الغربية والجنوبية وبعض الواحات، وسكن هذه المناطق منذ أقدم العصور شعوب رحل، باستثناء الشواطىء الجنوبية والغربية ومناطق دجلة والفرات حيث قامت الزراعة والتجارة، وحياة المدن.

أما المعلومات المتاحة لنا عن الملامح الأساسية للأجناس التي سكنت المنطقة فهي تدل على أنه بينما في شبه جزيرة سيناء يسود طول الرأس عند البدو، بالمقابل نجد أن في الحجاز تتساوى نسبة طول الرأس مع عرضه، ويلاحظ أن طوال الرأس في الحجاز لهم انوف عريضة ربما كانت ميراثاً من العبيد الزنوج، أما في أقصى الجنوب فيظهر عراض الرأس (جنس ألبى)، ومصدر عراض الرأس غير واضح في شبه الجزيرة لكن ربما وفد من إيران عبر الخليج العربي إلى عمان ومنها انتشر على طوال السواحل الجنوبية حوالي الألف الثانية قبل الميلاد. ويلاحظ أيضاً وجود أثر زنجي واضح في سكان السواحل لشبه الجزيرة العربية، ومن غير المؤكد تاريخ هذا الأثر وهل

يرجع إلى العبيد الافارقة الذين جلبوا حديثاً إلى المنطقة أو إلى العبيد الذين جلبوا في عصر مملكتي سبأ ومعين.

ومن حيث القامة يلاحظ أن السكان الحاليين لشبه الجزيرة العربية تتدرج قامتهم من القصر في الجنوب إلى الطول في الشمال. ومن حيث البشرة ولونها نجد أن السمرة وأحياناً كثيرة السمرة الشديدة هي الغالبة في شعوب المنطقة(١).

ويعتبر العرب من أكثر الشعوب اقتراباً وتمثيلاً للجنس السامي، ولغتهم رغم أنها أحدث اللغات السامية آداباً فقد احتفظت بخصائص اللسان السامي الأصلي أكثر من العبرية وغيرها من اللغات، ولذا تعتبر دراسة اللغة العربية أحسن مدخل لدراسة اللغات السامية، أما دلالة لفظة «سامى» في أوروبا وأمريكا واقترانها باليهود فلعل مرجع الخطأ هنا يعود إلى انتشار اليهود في هذه المناطق، وحتى الملامح التي اصطلح الأوروبيون على تسميتها بالسامية كبروز الأنف فلا تمت للسامية بصلة بل هي من مميزات اليهود الذين ربما اكتسبوها قديماً من اختلاطهم بالحيثيين(٢).

وتتكون مجموعة اللغات السامية من «الأكادية» وهي أقدمها وقد استعملها البابليون والأشوريون في العراق القديم وظهر بعدها الكنعانيون في سوريا وفلسطين ويشملون الفينيقيون واليهود، يظهر بعد ذلك الآراميون في شمال سوريا وشاعت لهجتهم وانتشرت في كل الاجزاء الجنوبية. ثم تنتشر اللغة السريانية والتي أصبحت اللغة السائدة حتى تحل محلها اللغة العربية. واللغة العربية ترجع في أصولها القديمة إلى اليمن وسائر شبه الجزيرة العربية، ومرت بمراحل من التطور حتى تبلورت في لغة ولهجة أهل الحجاز وبخاصة قبيلة قريش وعندما نزل بها القرآن أصبحت هي الشكل المثالي النهائي الذي انتهت به سلسلة من مراحل التطور والتغير.

---

(١) إبراهيم أحمد رزقانة. العائلة البشرية. صفحات ١٧٠ ـ ١٧٧.

(٢) J. H. Breasted, Ancient Times, pp. 218 - 219.

قارن أيضاً: فيليب حتى. المرجع السابق. صفحة ٨.

ويضاف إلى مجموعة اللغات السامية أيضاً اللغة الحبشية في شرق أفريقيا والتي ظهرت نتيجة هجرة عناصر من جنوب شبه الجزيرة عبر باب المندب واختلطوا بالسكان الأصليين[1].

ومن المرجح أن الجنس السامي لم يظهر إلا حوالي الألف الرابع قبل الميلاد، وصفات هذا الجنس هي الشعر الأسود والوجه البيضاوي والأنف المستقيم أو المحدب، وأحياناً ما يقسم الساميون إلى شقين:

الشق الأول: وهو البدو، والشق الثاني: وهو الحميريون. وقد انتشر الساميون في جنوب غرب آسيا وشمال وشرق أفريقيا ويدخل اليهود الأصليون تحت الشق البدوي من الساميين وقد حدث بينهم وبين العموريين والحيثيين والفلسطينيين اختلاط منذ أقدم العصور، كما سبق القول، وقد ظهرت الأنف اليهودية الشهيرة ـ غالباً ـ نتيجة اختلاطهم بالحيثيين[2].

والجنس السامي يعتبر جنساً وسطاً بين الجنس الحامي من جهة وجنس البحر الأبيض من جهة أخرى، خرجوا من شبه الجزيرة العربية حوالي الألف الرابع قبل الميلاد وانتشروا في شبه جزيرة سيناء والعراق.

وينتسب الكنعانيون إلى الشق الأول (الشمالي) من الساميين، أما عائلة إبراهيم فهي قبيلة سامية من العراق ربما كانت عائلة «عبرى» التي أسماها المصريون «خابيرو» وهم ساميون رعاة يشبهون البدو، دخلوا «أرض جوشن» «وادي الطميلات» خلال حكم الهكسوس وتركوها حينما طرد اليهود من مصر (حوالي ١٥٨٠ ق. م) وأثناء عودتهم إلى فلسطين قابلوا العموريين والحيثيين واختلطوا بهم. والعموريون كانوا ساميين لا يختلف شكلهم عن الخابيرو، أما الحيثيون الذين يمثلهم في الوقت الحالي شعب الأرمن فقد اختلفوا إلى حد ما عن الجماعات السابقة على الأقل من ناحية الشكل[3].

---

(١) مصطفى العبادي. المرجع السابق. صفحات ٢٧ ـ ١٨.

(٢) إبراهيم أحمد رزقانة. العائلة البشرية. صفحة ١٧٨.

(٣) ابراهيم أحمد رزقانة. المرجع السابق. صفحات ١٧٨ ـ ١٨٠.

ثالثاً: القبائل العربية

ينقسم سكان شبه الجزيرة العربية إلى ثلاثة أقسام هي: العرب البائدة، العرب العاربة في الجنوب، والعرب المستعربة في الشمال.

١ ـ العرب البائدة: وسموا كذلك لأنهم بادوا ولم يصلنا من آثارهم شيء، إلا ما ذكر في القرآن الكريم وأخبار العرب، وظهروا قبل زمن إبراهيم (أي فيما قبل القرن التاسع عشر قبل الميلاد)[١] وأشهر قبائلهم عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم والعماليق[٢]. وبما أنهم قد بادوا تماماً ولا يستطيع أي عربي أن يرجع بنسبه إليهم لذا نجد أن معظم النسابين يرجعون أصل العرب إلى عرب عاربة (القحطانيون) وعرب مستعربة (العدنانيون)[٣].

٢ ـ العرب العاربة: وهم عرب الجنوب، ويعرفون بالقحطانيين نسبة إلى قحطان بن عاثر. سكن القحطانيون اليمن وحضرموت وكانوا على جانب من الاستقرار والتحضر فقد عرفوا القليل من الزراعة والتجارة والصناعات اليدوية البسيطة، وقامت بالتالي دولتي معين وسبأ، وبعد حادثة سد مأرب الذي قضي عليه السيل العرم قامت دولة حمير على أثر زوال دولة سبأ

(١) ولد في أور بالعراق غالباً حوالي ٢٠٠٠ ـ ١٩٥٠ ق. م.

وعن حياة ابراهيم بالتفصيل راجع: Charles Pfeiffer, The Biblical World, pp. 13 - 16. James Sanders, Near Eastern Archaeology in Twentieth Century, pp. XX - XXi.

(٢) ابن كثير. الجزء الأول: صفحات ١٢٠ ـ ١٢٣، الجزء الثاني صفحة ١٥٦.

(٣) ابن كثير. الجزء الأول. صفحة ١٢١.

حوالي ١٥٠ ق. م تقريباً ودام نفوذها إلى بداية عصر البعثة المحمدية وقد تكلم القحطانيون اللغة السبئية أو الحميرية التي تكتب بالخط المسند. ومن أهم قبائلهم جرهم ويعرب، ومن يعرب ظهرت شعبتان هما كهلان وحمير. وأشهر قبائل كهلان كانت الأوس والخزرج والغساسنة وأشهر قبائل حمير كانت قضاعة وقد استوطنوا شمال الحجاز ومن فروعها جهينة على الساحل الغربي لشبه الجزيرة، وقبيلة عذرة بالحجاز والذين اشتهروا برقة العاطفة وطهارة العشق[١].

٣ ـ العرب المستعربة: وهم عرب الشمال وعرفوا بالعدنانيين سكان الحجاز، وهم بدو رحل حتى أنهم عرفوا باسم «أهل الوبر»[٢]، لا يستقرون في مكان بحثاً عن المراعي والماء لا يبنون بيوتاً أو مدناً خلافاً لأهل الجنوب من العرب العاربة الذين عرفوا الاستقرار والزراعة والتجارة وبعض الصناعة، وينتسب العرب المستعربة أو العدنانيون إلى إسماعيل بن إبراهيم، وسكنوا تهامة ونجد والحجاز باستثناء قبيلة قريش التي سكنت مكة وتحولت إلى حياة الحضر.

ويتفق هذا التقسيم مع اصطلح عليه العرب من تقسيم أنفسهم إلى قبائل شمالية وقبائل جنوبية، إلا أنه ومع مراعاة التغيرات في البيئة والظروف الأقتصادية وحركة التنقلات المستمرة في العالم القديم بين الأجناس والشعوب المختلفة يصبح مثل هذا التقسيم غير دقيق وغير ملزم لأي مؤرخ أو متتبع لانساب وقبائل العرب، ومن الأدلة على ذلك هجرة الجنوبيون إلى الشمال بسبب بعض الظروف الأقتصادية مثل هجرة بني حارثة إلى مكة بعد تصدع سد مأرب، وقد تمكن بني حارثة الذين عرفوا بالخزاعيين من اجلاء قبيلة جرهم عن مكة واستقروا هم بها حوالي قرنين (من القرن الثالث إلى الخامس الميلادي)، كما هاجرت قبائل الشمال إلى حوض نهر الفرات قبل

(١) أحمد الشامي. المرجع السابق. صفحات ٢٥ ـ ٢٨.

(٢) جواد على. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحة ٢٩١.

ظهور الإسلام ومنهم ظهرت قبيلة قريش التي كانت متفرقة حتى ظهر قصي بن كلاب واستطاع توحيدهم، وهزمت قريش قبيلة خزاعة واجلتهم عن مكة وأصبح لها السيطرة على الكعبة(١).

ومن أهم قبائل العدنانيون أو عرب الشمال المستعربة كانت قبيلة «معد» التي أنقسمت إلى جزئين هما: نزار وقنص، وأنقسمت نزار إلى عدة أفرع أهمها ربيعة ومضر وقضاعة وأياد. وتشعبت قبلة مضر إلى شعبتين هما قبيلة قيس بن مضر وآياس بن مضر، وإلى قيس بن مضر تنتسب قبيلتي عبس وذبيان اللتان اشتهرتا بحرب داحس والغبراء. وقبيلة تميم ومن أقسامها قبيلة حنظلة بن مالك ومنها تنحدر ذرية الوهابيين اتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الرياض ومنهم أيضاً تنحدر أسرة آل ثان امراء قطر الحاليين.

كذلك من القبائل العربية القديمة في شبه الجزيرة العربية قبيلة بني خالد، وقبيلة ثقيف وقبيلة حرب. ولا شك أن بأسماء هذا القبائل وأنسابها الكثير أو القليل من التحوير والتعديل والخلط أحياناً بحيث لا تصبح هذه الأنساب صادقة مائة بالمائة، إلا أن استقرارها على هذا النحو وأخذ العرب بها جعل من الصعب تغييرها وبالتالي يأخذها المؤرخون كما هي(٢).

---

(١) عن قريش واصل تسميتها ونسبها: ابن كثير. الجزء الثاني. صفحة ٢٠٢، ابن منظور. لسان العرب (قريش)

قارن: أحمد الشامي. المرجع السابق. صفحات ٢٩ ـ ٣٠.

(٢) أحمد الشامي. المرجع السابق. صفحات ٣٠ ـ ٣٣.

الفصل الثالث

دول شبه الجزيرة العربية

اولاً: دولة معين

قامت دولة معين في منطقة الجوف بين نجران وحضر موت شمال اليمن وهي من أوائل الدول التي تظهر في التاريخ القديم لشبه الجزيرة العربية، وقد ساعدت الظروف الجغرافية والبيئية على أن تكون هذه المنطقة مركزاً حضارياً هاماً في شمال اليمن، فالمنطقة تشتهر بنخيلها ومراعيها، تتوفر فيها مياه الأمطار، كما تحيط بها الجبال من ثلاث جهات مما يوفر لها حماية طبيعية.

ومصادر دراسة دولة معين تتركز في الكتابات التي تركها المعينيون، وكتابات المصادر الكلاسيكية أمثال ديودروس الصقلي وسترابون وبليني[1] فقد ذكر ديودور وسترابون عاصمتهم قرناو ووضعوهم إلى الشمال من سبأ وقتبان وغرب حضر موت، لكن بليني يضعهم على حدود حضر موت. أما المصادر العربية فلا تذكر عن معين أكثر من أنها موضع في الجوف[2].

وحول الحدود الزمنية لتاريخ دولة معين وهل كانت أقدم من دولة سبأ أو معاصرة لها تعددت آراء المؤرخين، فمنهم من يبالغ في قدم دولة معين فأرجعها إلى الألف الثالث أو الثاني قبل الميلاد، ومنهم من أخذ تاريخاً وسطاً فجعل قيامها حوالي ١٥٠٠ ـ ١٢٠٠ قبل الميلاد واستمرت حتى ٧٠٠ ق. م وهناك من حاول أن يكون أكثر تحديداً فجعل تاريخها

(١) Diod. Sicul., III. 24; Strabo XVI. 768; Pliny, H. N. VII 28 - 32, XII. 30.
CF. J. Philby, The Background of Islam, P. 141.

(٢) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، صفحة ٢١٤.

١١٢٠ ق.م وينهي وجودها في ٦٣٠ ق. م وآخر هذه الاراء تأخر بقيام دولة معين إلى الفترة من ٥٠٠ إلى ٤٠٠ قبل الميلاد، وأنها انتهت حوالي منتصف القرن الأول الميلادي[١].

ويبدو أن بليني في كتابه «التاريخ الطبيعي»[٢] كان من أهم الأسباب التي حدت ببعض المؤرخين أن يرجعوا دولة معين إلى ١٥٠٠ ـ ٧٠٠ ق. م؛ فقد ربط بليني بين المعينيين وبين المينويين من أهل كريت وجعلهم من أصل واحد[٣] ويبدو أن الخلط هنا جاء من تشابه كتابه الاسمين بالحروف اليونانية أو اللاتينية، وبالتالي فقد تغلب الاتجاه الذي يقول بأقدمية دولة معين على دولة سبأ واستمر سائداً حتى بداية القرن العشرين.

ألا إنه مع تقدم دراسة تاريخ الكتابات القديمة وتطورها ثبت أن الكتابة المعينية هي هجائية متطورة عن الهجائية الفينيقية وبالتالي فلا بد أن تكون لاحقة عليها لا سابقة لها، وبما أنه ثابت أيضاً من دراسة تاريخ الكتابات الفينيقية أنها بلغت مرحلة النضج في القرن العاشر قبل الميلاد، وبذلك فلا يمكن أن تكون الكتابات بالخط المسند في اليمن سابقة على القرن العاشر. وبهذا ثبت الآن أن معين وسبأ كانتا دولتين متعاصرتين تقريباً بالإضافة إلى معظم دويلات اليمن الأخرى حتى تمكنت سبأ من احتوائهم تدريجياً[٤].

ويبدو أن دولة معين قد اشتهرت بدورها التجاري مع شمال شبه الجزيرة العربية حتى أن بليني يذكر ذلك في كتابه بل ويربط المعينين بالبخور الذي كان من أبرز صادراتهم[٥] وفي هذا المجال يوجد نقش شهير معروف باسم ناشره (جلاسر رقم ١١١٥) يظهر مدى انتشار تجارة المعينيين وازدهارها

---

(١) جواد على. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ٧٧ ـ ٧٩.

(٢) Pliny, H.N., VI. 32.

(٣) الحضارة الكريتية أو المينوية نسبة إلى أشهر ملوكها مينوس. ازدهرت في الفترة ما بين ١٦٠٠ ـ ١٤٠٠ ق. م في جزيرة كريت وكانت أشهر مراكزها مدينتي كنوسوس وفايستوس.

(٤) مصطفى العبادي. المرجع السابق. صفحات ٦١ ـ ٦٢.

(٥) Pliny, H. N., XII. 30.

ويتحدث النقش عن عودة قافلة كبرى إلى قرناو عاصمة معين بعد تعرضها لمحاولة سلب، ويشير النقش إلى أن تلك القافلة كانت تمارس التجارة مع مصر ويظهر بجلاء تأثر تجارة معين بالأحداث السياسية المحيطة بها خاصة في منطقة شرق البحر المتوسط.

وقد عثر على نقش على أحد جدران المعابد بمدينة منف العاصمة المصرية القديمة، ويشير هذا النقش إلى اسم رجل معيني يدعى «زيد ايل بن زيد» كان يقوم بإمداد المعابد المصرية بالمر واللبان والبخور ويستورد من مصر الأقمشة الكتانية، أي أنه كان يقوم بمهمة الوكيل التجاري لدولة معين. هذا وقد ظهر نقش آخر في جزيرة ديلوس يرجع إلى النصف الثاني من القرن الثاني ق. م يرد فيه اسم الاله «ود» إله معين مما يؤكد فكرة تجاوز خطوط التجارة المعينية لحدود شبه الجزيرة إلى مصر وعبر البحر المتوسط إلى ديلوس[1].

ولما كانت وسيلة التجارة في شبه الجزيرة العربية بين جنوبها وشمالها هي القوافل، لذا كان لا بد من إيجاد نظام لتأمين طرق هذه القوافل من الغارات التي كانت تستهدفها، ومن أجل تحقيق هذا الهدف أقام المعينيون مراكز تجارية على طرق القوافل المتجهة شمالاً، حتى أنه ظهر فيما بعد ما عرف باسم «المعينيون الشماليون» وكانت هذه المراكز التجارية أو المستوطنات وثيقة الصلة بالدولة الأم، ويدير شؤونها نائب لملك معين كما يظهر من النقوش التي عثر عليها، ومن أهم وأشهر هذه المستوطنات كانت واحة ديدان أو ما تسمى حالياً «العلا».

وقد اختلف العلماء في تحديد عدد حكام دولة معين وفترة حكم كل منهم ويرجع ذلك ألى عدم اتفاقهم أصلاً على بداية دولة معين ونهايتها، وإلى أن الكتابة المعينية نفسها غير مؤرخة طبقاً لأي تقويم من التقاويم، هذا بالإضافة إلى أنها كتابات شخصية أكثر منها كتابات سياسية.

---

(١) مصطفى العبادي. المرجع السابق. صفحات ٦٣ ـ ٦٥.

وقد أدى هذا النشاط التجاري إلى احتكاك ملوك معين بحكام سوريا وآشور على طريق التجارة الرئيسي، وبالتالي فلم يهتم حكام سوريا وآشور بالمستوطنات التجارية الصغيرة التي تقع على هذا الطريق وإنما كان اهتمامهم منصباً على الحاكم الفعلي المقيم في الجنوب في قرناو، وبالتالي فقد كان أحياناً يحدث خلط بين هذا الحاكم وبين نوابه المقيمون في الشمال، وهذا يفسر بعض الإشارات في الوثائق السريانية والعبرية التي تتحدث عن المعينيين والسبئيين المقيمين جنوب شرق البحر الميت، وطبيعي أن المقصود هنا هم ساكنوا هذه المستوطنات المعينية في الشمال وليس أهل الجنوب.

أما أهم المدن المعينية فكانت قرناو العاصمة وتقع على بعد حوالي السبعة كيلو مترات إلى الشرق من قرية «الحزم» في الجوف، وأهم آثارها معبد «رصاف» الذي يقع خارج حدود المدينة، وكذلك بعض بقايا سكنية في أجزاء متفرقة من المدينة التي ظلت غالباً مأهولة بالسكان حتى القرن الثاني عشر الميلادي ثم تحولت تدريجياً وبسبب تغير الظروف إلى خرائب.

كذلك من المدن المعينية الهامة كانت مدينة «ياثل» أو «براقش» والتي ظلت موجودة حتى وصف الهمذاني في أواخر القرن العاشر الميلادي خرائبها، وهي نفسها مدينة «اثلولا» وهي آخر مكان وصله الوالي الروماني ايليوس جالوس أثناء حملته على اليمن في ٢٤ ق. م وربما حرف الاسم بسبب صعوبة نطقه وهناك أيضاً مدينة «نشق» ويرى البعض أنها هي مدينة «ميسكا» التي ذكرها الكتاب الكلاسيكيون ومنهم سترابون الذي أسماها «أسكا» وقد استولى عليها الوالي الروماني ايليوس جالوس أثناء حملته السابق ذكرها على اليمن.

كذلك هناك مدينة «نشأن» أو «نشن» (الخربة السوداء حالياً) وربما كانت مركزاً صناعياً هاماً في وقت من الأوقات(١).

---

(١) جواد أحمد علي. المرجع السابق. الجزء الثاني صفحات ١١٨ ـ ١١٩.
قارن: محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٢١٩ ـ ٢٣٣.

ثانياً: دولة حضرموت

وهـو الاسم المستعمل حتى الآن وبـالتـالي يكـون من أقـدم الأسمـاء العربية التي استمر استخدامها حتى العصر الحـديث، وتقع حضـر موت إلى الشرق من اليمن على ساحل بحر العرب تحيط بها من الشمال الاحقاف ومن الشرق عمان ومن الغرب قتبان ويقول ياقوت الحموي إن بهـا قبر هـود عليه السلام(١). وقد تردد اسم حضر موت عند عدد من الكتاب الكلاسيكيين ولكن بشكل محرف قليـلاً إلا أنه يقتـرب من الشكل العـربي للإسم مثل «كاتـرو مويتاي» و «هادر اميتاي» و «اترامیتاي»(٢). ويقتـرح صاحب كتـاب «الطواف حول البحر ا لأحمر» السابق ذكره أن كلمة حضر موت أتت من أن سـواحل هذه المنطقة كانت موبوءة يتجنبها الناس ولهذا السبب فإن من كانوا يعملون في جمع التوابل واللبان كانوا من المجرمين أو العبيد الذين لا يخشى عليهم من حضر موت أو كما هو مقترح في التفسير «دار الموت»(٣)

ويقدم ياقوت الحموي تفسيراً آخر لاسم حضر موت فيقترح أنه جاء من اسم رجل هو «عامر بن قحطان» الذي اشتهر بإسـم حضر موت لأنه كان كثير التقتيل في الحروب، أو أن المكان سمي باسم حضر موت بن قحطان الذي

---

(١) ياقوت الحموي، الجزء الثاني، صفحة ٢٧٠.

(٢) Strabo, XVI. 42; Pliny, VI. 28, 32; Ptol., VI. 7, 10.
قارن: جواد علي. الجزء الثاني. صفحة ١٢٩.

(٣) Periplus Peri Maris Erythraei, 21.

نزل بالمكان فأخذ المكان اسمه وإسم قبيلته[1].

ويقترح البعض الآخر تفسيراً اسطورياً للاسم من أن المدينة أخذت اسمها من الإله «موت» إله العالم السفلي في الاساطير السامية القديمة، وفي أساطير أوجاريت القديمة فالإله موت هو إله الموت والعالم السفلي والعقم وهو عدو الإله بعل إله الخصب والنماء.

وكما تعددت التفسيرات حول منشأ اسم حضر موت فقد تعددت أيضاً الآراء حول تاريخ بداية ونهاية هذه الدولة فالبعض يرجع بداية تاريخها إلى الألف الثاني قبل الميلاد وتنتهي في القرن الثالث الميلادي، لكن الرأي الأكثر اعتدالاً يقول بتاريخ قريب إذ يرجعها إلى الفترة من القرن الخامس ق. م. إلى القرن الثاني الميلادي، وما لا شك فيه أن دولة حضر موت قد عاصرت في فترة من تاريخها دول معين وقتبان وسبأ، وبالتالي فمهما اختلف المؤرخون حول تاريخ حضر موت فتوجد على الأقل فترة معروفة ومؤكدة وهي التي عاصرت فيها حضر موت باقي دول جنوب شرقي الجزيرة[2].

وقد وصلنا نتيجة لجهود البعثات الاثرية التي عملت في المنطقة ولا زال بعضها يعمل حتى الآن عدد كبير من النقوش (تجاوز الألف نقش) أهمها نقوش منطقة «العقلة» التي تضمنت قائمة بأسماء حكام حضر موت وسبأ.

وتعطينا هذه النقوش صورة شبه واضحة عن ظروف الحياة في المنطقة وعلاقات حضر موت بجيرانها من الدويلات المجاورة ومن أهمها نقش تركه أحد كبار موظفي حكومة حضرموت والذي يذكر فيه أن الحاكم «ليهررعش ابن ابشع» قد كلفه ببناء تحصينات لحصن «قلت» الذي يحمي الطريق الواصل بين مدينة «حجر» وميناء «قانا» وكذلك الاشراف على تحصين مدينة «حجر» لحمايتها من الغزو الأجنبي وخاصة من غزوات الحميريين الذين كانوا

---

(١) ياقوت الحموي. الجزء الثاني. صفحة ٢٧٠.

(٢) ST. John Philby, The Background of Islam, pp. 141 - 144. S. Moscati, op. cit., p. 179.

يهددون حضرموت ـ فيما يبدو ـ بشكل مستمر[١] ويبدو أن هذا النقش الذي دونه أحد كبار موظفي حكومة حضرموت ويدعى (شكيم سلحان بن رضوان) هو من أقدم الكتابات الحضرمية التي وصلتنا ويعود إلى أواخر القرن الخامس أو أوائل الرابع ق. م.

وفيما يخص الظروف السياسية التي مرت بها حضرموت فيبدو أنه قد تتابع على حكمها نوعين من الحكام، ففي الفترة الأولى من تاريخها حكمها من سموا بالمكربين (مكرب) وهم من رجال الدين والكهنة والذين تنتهي فترة حكمهم حوالي منتصف القرن الخامس ق. م، حين يتحول الحكام إلى استخدام لقب (ملك) ويبدو أن تغير لقب الحاكم من «مكرب» إلى «ملك» يوضح انتفاء الصفة الدينية عن الحاكم وتحوله إلى شخص مدني تماماً وبالتالي فهو يعني انتقال الحكم من أيدي الكهنة ورجال الدين إلى كبار تجار المنطقة على اعتبار أن التجارة هنا كانت هي المورد الاقتصادي الأول.

وفي الغالب فإن مرحلة انتقال السلطة السياسية من الحاكم الكاهن أو رجل الدين إلى الحاكم المدني قد تمت في أغلب المجتمعات القديمة بهذه الطريقة مع اختلافات بسيطة في التفاصيل، ففي المجتمع اليوناني القديم على سبيل المثال انتقلت السلطة من الحاكم رجل الدين إلى الارستقراطية الزراعية، وذلك على اعتبار أن الزراعة كانت هي المورد الاقتصادي الأول، وفيما بعد حينما تظهر التجارة وتحتل مكانة لا بأس بها، أخذت طبقة التجار في الضغط على الزراع في محاولة منهم للاشتراك في الحكم[٢].

ولعل الملك (يدع ايل) هو أول من حدثت في عهده هذه النقلة السياسية (الانتقال من لقب مكرب إلى ملك) حوالي منتصف القرن الخامس ق. م، ويليه بعد ذلك الملك (صداق ايل) الذي كان ملكاً على حضرموت ومعين معاً حوالي نهاية القرن الخامس ق. م[٣].

---

(١) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٢) حسين الشيخ. اليونان. صفحات ٢٩ ـ ٣٢.

(٣) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ١٣٥ ـ ١٣٦.

ومن بعض النقوش التي وصلتنا يمكننا أن نستنتج أن العلاقة بين حضر موت وسبأ اتسمت بطابع الود فقد أرسل ملك سبأ مبعوثين للمشاركة في الاحتفال بتتويج ملك حضر موت هذا بالإضافة إلى أن الملك «العزيلط» ملك حضر موت قد استقبل وفوداً من الهند ومن تدمر والآراميين، كما ذكر في أحد النقوش مرافقة عشر نساء قرشيات للملك «العزيلط» في رحلته إلى حصن أنود (الذي احتل موقع عقله الحالية، وأشرف على واد يتصل بتلال شبوة وقد أقام فيه الجيش لحماية مزارع الوادي)، وإذا كان المقصود هو قبيلة قريش الشهيرة في مكة يكون ذكرها في هذا النقش هو أقدم ذكر لها وصلنا حتى الآن[1] وقد كانت الاتصالات من حضر موت ومثل هذه الأماكن تتم عن طريق ميناء «قانا» الذي كانت السفن تأتي وتخرج منه إلى افريقيا والهند وعمان وفارس.

أهم مدن حضر موت

وأهم مدن حضر موت كانت «شبوة» العاصمة، وعنها وصلنا نقش يؤرخ بحوالي ١٠٠ ميلادية ورد فيه اسم الملك «يدع ايل بين» الذي قام ببناء سور لمدينة شبوه، مما يدلل على عدم استقرار الأمور في ذلك الوقت واحتمال تعرض المدن والوديان للغارات المعادية، يؤكد هذا نقش آخر يعود إلى أواخر القرن الثاني أو بداية الثالث الميلادي ورد فيه اسم الملك «يدع ايل بين بن رب الشمس» الذي عمر مدينة شبوه بعد أن كانت قد خربت وبنى معبداً بها وأنه قد أمر بتقديم القرابين احتفالاً بهذه المناسبة[2] كما كانت هناك مدينة «ميفعة» العاصمة القديمة لحضر موت والتي خربت في القرن الرابع الميلادي وحل مكانها موضع عرف باسم غيران.

وهناك مدين «قانا» الميناء الرئيس لحضر موت إلى الشرق من عدن. كما وجدت مدينة «مذب» أو «مذاب» واشتهرت بمعبدها المكرس لعبادة الإله

---

(١) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ١٤٢ - ١٤٤.
قارن: محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٢) مصطفى العبادي. المرجع السابق. صفحة ٧٥.

«سين» إله القمر بقاياه توجد الآن بموضع يعرف باسم «الحريفة»[1].

وفي مطلع القرن الرابع الميلادي نجد أن ملك سبأ «شمر يرعش» قد أضاف حضرموت إلى ممتلكات سبأ ولقب نفسه بملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ومعنى ذلك زوال مملكة حضرموت المستقلة واندماجها في مملكة سبأ.

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٢٤٣ ـ ٢٤٥.

ثالثاً: دولة قتبان

وقد جاء ذكرها عند سترابون - نقلاً عن أيراتو ستينيس - وبليني وثيوفراستوس، وحددوا موقعها بالجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية، وأهم مدنها كانت «تمنع» على ساحل المحيط الهندي[1].

كما جاء ذكرها عرضاً في بعض المصادر العربية على أنها موضع من نواحي عدن، وأنها بطن من «حمير»[2].

واختلفت الآراء حول بداية دولة قتبان ونهايتها، فرغم أنها قد عاصرت دولة معين ودولة سبأ، ورغم ارتباط تاريخ هذه الدول بعضها بالبعض، إلا أن بعض الباحثين يرجعون تاريخ قتبان إلى ما قبل ١٠٠٠ ق. م وحتى ٢٠٠ ق. م، والبعض يرى إنها ظهرت في الفترة من ٦٠٠ إلى ٣٠٠ق. م، والبعض الآخر يرى أنها كانت في الفترة من ٤٠٠ إلى ٥٠ ق. م، هذا بالإضافة إلى عدد آخر من الآراء لم تقدم جديداً في هذا الصدد[3].

ورغم هذا الخلاف فقد أجمع عدد لا بأس به من الباحثين على أن

(١) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ١٧١ - ١٧٢.
قارن: حسن ظاظا. الساميون ولغاتهم. صفحات ١٢٩ وما بعدها.
CF. Theoph., II. 235; Strabo, 16. 4. 2; Pliny, 6. 32.

(٢) ياقوت الحموي. الجزء الرابع. صفحة ٣١٠. تاج العروس. الجزء الأول. صفحة ٤٣١.

(٣) عن هذه الآراء المختلفة راجع: محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٢٤٨ - ٢٥٠.

دولة قتبان قد احتلت المساحة الزمنية من القرن العاشر وحتى الأول قبل الميلاد، وينقسم تاريخها إلى ثلاث فترات:

- الفترة الأولى واستمرت منذ ظهور قتبان وحتى حوالي ٣٥٠ ق. م، وأشهر ملوك هذه الفترة كان «يدع أب ذبيان بن شهر» الذي حكم حوالي نهاية القرن الخامس ق. م وكان أول من حمل لقب «ملك» بالإضافة إلى حمله لقب «مكرب» وفي هذا إشارة واضحة إلى تحول حكام قتبان من حمل لقب «مكرب» وهو اللقب الديني الذي يعني «كاهن» والذي رمز إلى فترة حكم رجال الدين، ليحملوا لقب «ملك» والذي عنى تحول الملكية من نظام حكم ديني إلى نظام حكم سياسي مدني وإن ظل يحتفظ ببعض من أصوله الدينية القديمة.

وطبقاً لنقش «جلازر ١٦٠٠» فقد كان «يدع أب ذبيان» هو الذي شيد المدخل الجنوبي لمدينة «تمنع» وهو: مكرب قتبان وجميع ابناء الإله عم، كما هو مكرب أو سان وكحد ودهس وتمنع» هذا بالإضافة إلى إشارة في النقش إلى أن هذا الملك هو الذي أعاد بناء معبد الإله «ود وعشتر».

ويبدو أن «يدع أب ذبيان» قد شن عدة حروب كانت نتيجتها في صالحه مما جعل في إمكانه أن يمد حدود قتبان حتى مملكة سبأ، ويفسر هذا اهتمامه بإنشاء عدة طرق جبلية تربط بين أجزاء مملكته.

ويبدو أن قتبان قد عرفت نوعاً من المجالس القبلية - سمي المزود - وتكون غالباً من رؤساء المدن والقبائل، وكان هذا المجلس هو الذي يقترح القوانين ويعرضها على الملك لإقرارها ثم الأمر بتنفيذها. وربما وجد مجلس استشاري تكون من الملك والأشراف أصحاب الأملاك[١].

الفترة الثانية واستمرت حوالي القرن من الزمان (٣٥٠ - ٢٥٠ ق. م)،

---

(١) نيكولوس رودكناكيس. الحياة العامة للدول العربية الجنوبية (التاريخ العربي القديم). صفحات ١٣٢ - ١٣٦. قارن: جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ١٩٢ - ١٩٣.

وكان أول ملوكها «أب شيم» ثم خلفه ابنه «شهر غيلان»، وفي أحد النقوش التي تعود إلى هذه الفترة (جلازر ١٦٠١) جاء ذكر الضرائب التي تؤدي إلى خزينة الدولة في نهاية كل عام وتقدر بالعشر من كل ربح صافي، بالإضافة إلى الضرائب التي تؤدي للمعابد وسميت في هذا النقش باسم «عصم».

ويبدو أن إدارة المعابد قد تركزت في العاصمة «تمنع»، كما يبدو أن الإدارة الحكومية قد منحت هذه المعابد إمتيازات عدة أهمها الحصول على جزء من دخل أراضي الدولة، بالإضافة إلى أن القبائل كانت مطالبة بأن تدفع للمعابد عشر الدخل والميراث أو أي معاملات تجارية أخرى[1].

ومن أحد نقوش هذه الفترة (ريكانز ٢١٦) نعرف أن «شهر غيلان» ثاني الملوك قد انتصر على حضرموت، وتخليداً لذكرى هذا النصر فقد أقام معبد للإلهة «عشتر» في (ذبحان) وهي «بيجان الحالية عند جبل ديدان».

ومن أشهر ملوك هذه الفترة أيضاً كان «شهر يجيل» وقد ورد إسمه في نقش «جلازر ١٦٠٢»، ويبدو أنه قد حكم حوالي عام ٣٠٠ ق. م وأنه قد تغلب على دولة معين وأخضعها لسلطانه، ثم خلفه أخوه الذي عرف باسم «شهر هلل يهنعم»، والذي ترجع إلى فترة حكمه المسلة التي عثر عليها في العاصمة «تمنع». وكان آخر ملوك هذه الفترة «يدع أب غيلان».

ـ الفترة الثالثة واستمرت حوالي قرنين من الزمان (٢٥٠ ـ ٢٥ ق. م)، وأول ملوك هذه الفترة كان «هوف عم يهنعم»، وجاء بعده «شهر يجل يهرجب» الذي أعاد بناء المدخل الجنوبي لمدينة تمنع»، ويبدو أن قتبان في عهده قد مارست نوعاً من السيطرة على جارتها دولة «معين» أو على الأقل كان هناك نوع من التحالف بين الدولتين كانت فيه قتبان صاحبة اليد العليا[2]. أما ابنه «ورواِل غيلان يهنعم» فقد كان أول من سك نقوداً ذهبية عثر عليها في مدينة «حريب».

---

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ١٥٢ ـ ٢٥٣.

(٢) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحة ٢٠٧.

وعثر في «تمنع» العاصمة على نقش باسم الملك «شهر هلال بن ذر أكرب» وهو عبارة عن قانون أصدره الملك لشعب قتبان وذي علش ومعين وأصحاب أرض شدو، وينظم هذا القانون استغلال هذه الشعوب الأربعة للأراضي الزراعية، وأنذر الذين يخالفون هذا القانون بالعقاب، ويستفاد من هذا النقش أن هذه الشعوب السابق ذكرها كانت خاضعة لدولة قتبان.

ومن المرجح أن فترة ازدهار قتبان تركزت في المرحليتن الثانية والثالثة من تاريخها واللتان استمرتا من ٣٥٠ وحتى ٢٥ ق. م كما سبق القول، ويميل بعض الباحثين إلى أن دولة سبأ هي التي قضت على دولة قتبان، إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن دولة حضر موت أيضاً قد ساهمت في النهاية التي وصلت إليها قتبان، ويبدو أن حوالي ٢٥ ق. م وحتى بداية القرن الأول الميلادي سقطت العاصمة «تمنع» في أيدي السبئيين، بينما اكتفت حضر موت بالاستيلاء على جزء من شرق قتبان، وفي نفس الوقت استطاع بعض ملوك قتبان الإحتفاظ بالجزء الغربي منها واتخذوا من «حريب» قصراً لهم.

وتعتبر مدينة «تمنع» أهم مدن قتبان وقد ورد ذكرها في كتابات المؤرخين اليونان والرومان باسم Thumna, Thomna, Tamna، وربما كانت هي نفس المدينة التي ورد ذكرها عند بطليموس الجغرافي بإسم Thouma،[1] وقد وصفها «بليني» المؤرخ الروماني بأنها من أكبر المدن في العربية الجنوبية[2] وتقع «تمنع» في وادي بيجان في منطقة ذات أرض زراعية خصبة وفيرة المياه، (حالياً تقع مكانها خرائب كحلان) وربما خربت المدينة بسبب حريق هائل أتى عليها، وربما كان السبئيون هم الذين احرقوا «تمنع».

ومن المدن الهامة في قتبان أيضاً كانت «حريب» التي ذكرها «الهمذاني»[3]، واشتهرت بالنقود التي سكت فيها وبأنها عاصمة لدولة قتبان قرب نهاية هذه الدولة.

---

(١) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٢) قارن De Lacy O'Leary, Arabia before Muhammad, p. 97.
Pliny, 6. 32.

(٣) الهمذاني. المرجع السابق. صفحات ٨٠، ٩٥، ١٠٣، ١٣٤.

رابعاً: دولة سبأ

حظيت دولة سبأ بأهمية خاصة بين الدول التي ظهرت في جنوب الجزيرة العربية، ويرجع ذلك إلى الصلة التي ربطت بين ملكة سبأ والنبي سليمان ـ عليه السلام ـ وورود اخبار هذه العلاقة في القرآن الكريم والتوراة. وتشير الادلة الاثرية التي كشف عنها في العراق القديم وورود إسم سبأ في النقوش الاشورية التي ترجع إلى عهد الملك سرجون الثاني (٧٢١ ـ ٧٠٥ ق.م) وذلك في معرض الدول التي تؤدي إليه الجزية، ويتجه بعض العلماء إلى الاعتقاد بأن هذا النص يشير إلى قيام السبئيين بدفع الجزية عن تجارتهم في شمال جزيرة العرب، حتى يسمح لهم بالمرور إلى شواطيء البحر المتوسط، وذلك نظراً لأن سرجون الثاني لم يصل بفتوحاته الخارجية حتى اليمن. ويشير بعض العلماء إلى أن كلمة SA - Ba - A - A = Sabu الواردة في أحد النصوص السومرية التي عثر عليها في لجش حوالي ٢٥٠٠ ق. م تعني سبأ، وإذا كان ذلك صحيحاً، لأصبحت هذه النصوص السومرية أقدم نصوص تاريخية تصل إلينا ـ حتى الآن ـ وفيها ذكر سبأ، ويكون السبئيون بذلك أول شعب عربي جنوبي يصل ذكره إلينا[١].

وقد اثار هذا النقش جدلاً كبيراً بين العلماء، فاتجه البعض إلى الاعتقاد بأن السبئيين المذكورين في النصوص السومرية كانوا يقيمون في بادية شمال بلاد العرب ومنها انتقلوا إلى اليمن، واختلفت الآراء كذلك بشأن زمن

(١) أحمد أمين سليم. معالم تاريخ العرب قبل الإسلام. صفحات ٨٣ وما بعدها.

هذا الانتقال فاتجه البعض إلى تحديده بالقرن الثاني عشر قبل الميلاد، وأرجعه البعض الاخر إلى القرن الحادي عشر، بينما أرجعه فريق ثالث إلى القرن الثامن قبل الميلاد(1).

ولقد اشارت بعض كتابات المؤرخين والرحالة اليونان والرومان إلى دولة سبأ، وكان المؤرخ اليوناني «ثيوفراستس» هو أول من اشار إليهم، وقد اعتمد في معلوماته التي ذكرها عن دولة سبأ على ما سمعه من تجار الاسكندرية ومن البحارة الذين كانوا يجوبون البحر الاحمر ويصلون إلى العربية الجنوبية وسواحل افريقية والهند، ونظراً للاطماع السياسية للسيطرة على بلاد العرب، فقد حاول الرومان الحصول بكافة الطرق على المعلومات المتصلة ببلاد العرب عن طبيعة أرضها ومواردها وحالة سكانها ومواطن الضعف لديهم، واعتبروا هذه المعلومات من اسرار الدولة التي لا يجوز افشاؤها، ولقد تم جمعها وخزنت في الاسكندرية، ولم يسمح إلا لبعض الخاصة من العلماء بالاستفادة منها، ولقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى زيادة المعلومات عن بلاد العرب، ومحاولة تنقيتها من الشوائب وتوثيقها إلى أبعد حد ممكن(2).

وفيما يتصل بالأدلة الاثرية السبئية، فإننا نعتمد في دراستنا لدولة سبأ اعتماداً كبيراً على الكتابات السبئية التي عثر عليها في مواضع متعددة من جنوب الجزيرة العربية وبخاصة في الجوف مقر السبئيين، إلا أنه يؤخذ على الكتابات السبئية إنها لم تتخذ تأريخاً مطلقاً كبداية للتاريخ، وإنما أرخت الاحداث نسبة إلى الاشخاص، وبعض الاحداث الهامة، وذلك مما يجعل عملية تحديد زمن هذه النصوص أمراً من الصعوبة بمكان ومع ذلك فلقد أمدتنا هذه النقوش بمعلومات لا بأس بها عن نظام الحكم وتتابع الحكام في

---

(1) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٢٦٥ - ٢٧٠.

قارن: نجيب ميخائيل. مصر والشرق الأدنى القديم. صفحات ١٦٠ - ١٦٢.

Cf. De Lacy O'leary, op. cit., P. 87.

(2) أهم هذه المصادر وأكثرها تفصيلاً هو:

Strabo, 16. 4. 19; Pliny, 6. 32.

بعض الاحايين والاعمال الهامة التي قاموا بإنجازها والاحداث الكبيرة التي حدثت في عهودهم(1).

وفيما يتصل بالكتابات المقدسة، فلقد أشار القرآن الكريم في سورة سميت بإسم «سبأ» وهي السورة رقم «٣٤» من القرآن الكريم، إلى ما كانت تتمتع به دولة سبأ من رخاء.

ولقد وردت كلمة «سبأ» و «شبا» في التوراة، ولكن كاتبي التوراة كانوا مترددين في نسبهم، فهم مرة من الحاميين، فلقد ورد في الآية السابعة من الاصحاح العاشر من سفر التكوين: «وبنو كوش سبا وحويلة وسبته ورعمه وسبتكا. وبنو رعمه شبا وددان». وورد كذلك في الآية التاسعة من الاصحاح الأول من اخبار الأيام الأول: «وبنو كوش سبا وحويله وسبتا ورعما وسبتكا. وبنو رعما شبا وددان». فلقد ذكروا في هذين الموضعين على انهم من كوش أي من الحاميين(2).

وهم مرة أخرى من الساميين، فلقد ورد في الآيات من ٢١ - ٢٨ من الاصحاح العاشر من سفر التكوين ما يشير إلى ذلك: «وولد لسام أيضاً بنون وهو أبو جميع بني عابر أخو يافث الاكبر، بنو سام عيلام واشور وازمكشاد ولود وأرام، وبنو أرام عوص وحول وجاثر وماش وارفكشاد ولد شالح ولد عابر، وولد لعابر ابنان إسم أحدهما فالج لأنه في ايامه انقسمت الأرض وإسم أخيه يقطان، ويقطان ولد الموداد وشالف وحضرموت ويارح، وهدورام واوزال ودقله، وعوبال وابيمائيل وشبا»(3).

ووصفت أرض «شبا» في التوراة بأنها كانت تصدر اللبان، وإن تجارها كانوا يقومون بالتبادل التجاري مع العبرانيين، انظر في ذلك ما جاء في الآية

---

(1) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٢٦٥ - ٢٧٠.

(2) سفر التكوين، ١٠، ٧. - ١٠، ٢٨. - ١٩، ٢٨.

(3) سفر التكوين، ٢٥، ٣ - ٢٥، ١ - ٢.

CF. W. F. Albright, The Bible and The Near East, P. 300.

العشرين من الاصحاح السادس من نبوءة إرميا: «لماذا يأتيني اللبان من شبأ وقصب الـذرة مـن أرض بعيدة». وما جاء في الآيات ٢٢ ـ ٢٤ من الاصحاح السابع والعشرين من نبوءة حزقيال وجاء فيها:

«تجار شبأ ورعمه متجرون معك وبأفضل كل طيب وبكل حجر كـريم وبـالذهب أقـاموا اسـواقك، حـاران وكنه وعـادان وتجار شبأ واشور وكلمـد متجرون معك، هؤلاء يتجرون معك بالانسجة الفاخرة وبأردية من السمنجوني والـوشي وبالنفـائس من الثياب المبـرمة المشـدودة بـالحبـال المعكـومـة بين بضائعك».

ولقد أشارت التوراة إلى قصة سليمان ـ عليه السلام ـ مع ملكـة سبأ، ويـلاحظ أن التوراة لم تـذكر إسم ملكـة سبأ. ولقـد وردت هـذه القصـة في الآيات من ١ ـ ١٠، ١٣ من الاصحاح العاشر من سفر الملوك الثالث وجاء فيها: «وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان وإسم الرب فقدمت لتختبره بأحاجي، فدخلت اورشليم في موكب عظيم جداً ومعها جمال موقره اطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة وأتت سليمان وكلمته بجميع ما كان في خاطرها، ففسر لها سليمان جميع كلامها ولم يخف على الملك شيء لم يفسره لها، ورأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان والبيت الذي بناه، وطعام موائده ومسكن عبيده وقيام خدامه ولباسهم وسقاته ومحرقاته التي كان يصعدها في بيت الرب فلم يبق روح بعـد، وقالت للملك حقـاً كان الكـلام الذي يلقي في أرضي عن أقوالك وعن حكمتك، ولم اصدق ما قيل لي حتى قدمت وعاينت بعيني فإذا إني لم أخبر بالنصف فقد زدت حكمة وصـلاحاً على الخبـر الذي سمعتـه، طـوبي لرجـالك طـوبي لعبيدك هؤلاء القـائمين دائماً بين يـديـك يسمعـون حكمتك، تبارك الرب إلهك الذي رضي منك وأجلسك على عرش اسرائيل فـإنه لأجـل حب الرب لاسـرائيل إلى الابـد، اقامـك ملكاً لتجـري الحكم والعـدل، وأعطت الملك مـائة وعشـرين قنطار ذهب واطيـابـاً كثيـرة وحجارة كريمة ولم يرد بعد في الكثرة مثل ذلك الطيب الذي وهبته ملكة سبأ للملك سليمان. . . واعطى الملك سليمان ملكة سبأ كل بغيتها التي سألتها فوق ما

أعطاها من العطايا على حسب كرم الملك سليمان وانصرفت وذهبت إلى أرضها هي وعبيدها»[1].

وتشير أحداث هذه القصة إلى معرفة العبرانيين بالسبئيين، وإن اختلفت وجهات نظر المؤرخين في مكان دولة سبأ التي ورد ذكرها في أحداث هذه القصة، فاتجه بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأنها كانت مملكة عربية صغيرة في أعالي جزيرة العرب كان سكانها من السبئيين القاطنين في الشمال[2].

ورغم الإختلاف في تفاصيل كيفية تعرف سليمان ـ عليه سلام ـ بمملكة سبأ والهدف من الزيارة بين ماورد في القرآن الكريم والتوراة، إلا أنها تشير إلى معرفة العبرانيين بالسبئيين وإلى وجود المملكة في القرن العاشر قبل الميلاد.

أصل السبأيين:

اختلف المؤرخون في أصل السبئيين، فتذكر الروايات العربية إن سبأ من قحطان، ويسمونهم العرب المتعربة، تمييزا لهم عن العرب الذين كانوا قبلهم، وتشير هذه الروايات إن والده هو يشجب بن يعرب بن قحطان، وتذكر إن من اولاده قبائل كثيرة انتشرت في كل مكان من جزيرة العرب قبل الإسلام وبعده، ونسب إليه نسله من السبئيين، وقد ذكروا أن إسمه الحقيقي هو «عبد شمس» وأما«سبأ» فهو لقب تلقب به، وذهبوا في سبب هذه الكنية مذاهب متعددة، فقالوا إنه لقب به لأنه أول من سبأ، أي سن السبي من ملوك العرب، واتجه البعض الاخر إلى احاكة الاساطير حوله فقالوا إنه بنى مدينة «سبأ» وسد مأرب، وغزا الاقطار وبنى مدينة عين شمس في مصر، وهي أمور لاتعدو أن تكون خيالاً في مخيلة كاتبيها[3].

---

(١) سفر الملوك الأول. ١٠ (١ ـ ١٣) قارن انجيل متى. (١٢: ٤٢) محمد بيومي مهران. العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة. صفحات ٢٨٧ وما بعدها.

(٢) عبد العزيز سالم. المرجع السابق. صفحات ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٣) تاريخ الطبري. الجزء الأول. صفحة ٢١١، ابن الأثير. الجزء الأول. صفحة ٢٣٠.

ولم يعثر في النصوص العربية الجنوبية التي كشف عنها عن شيء يتصل بشخص يدعى سبأ أو إسمه واعماله، وكل ما ورد في هذه النقوش يشير إلى أن سبأ هو إسم شعب كوّن له مملكة وكان له حكامه ونظامه السياسي والإداري والإقتصادي، وعلاقاته الخارجية.

ويتجه بعض العلماء إلى الاعتقاد بأن السبئيين كانوا في الأصل شعب بدوي يتنقل بين شمال شبه الجزيرة العربية وجنوبها، ثم استقر في بلاد اليمن فيما يقرب من عام ٨٠٠ ق. م، وأخذوا يوسعون منطقة نفوذهم على حساب جيرانهم من المعينيين والاوسانيين والحضارمة، وعملوا بالتجارة وسيطروا على الطرق التجارية الرئيسية التي تصل ما بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها وبلاد الشام، وكان لذلك أثره الكبير في ازدهار دولة سبأ ونموها بين ممالك العرب الجنوبية.

مراحل التاريخ السبئي:

امكن بفضل النقوش السبئية تقسيم عصر دولة سبأ إلى عدة مراحل وذلك على أساس تغير لقب حكام سبأ، حيث تغير هذا اللقب عدة مرات، وفي كل مرة كان يتغير فيها كان يحدث تغيير في نظام الحكم، وتدخل سبأ في عهد جديد يختلف عنوانه عن العهد السابق، ولقد امكن تحديد مراحل اربعة رئيسية مرت بها سبأ، وهذه المراحل هي:

١ ـ **مرحلة المكاربة**: وهي مرحلة كان يتلقب فيها حاكم سبأ بلقب مكرب، أي المقرب من الآلهة، أو الوسيط بين الآلهة والناس، وقد اتخذ المكاربة من صرواح عاصمة لهم ثم نقلوها إلى مأرب، ويمتد عصر المكاربة من عام ٨٠٠ ـ ٦٥٠ ق. م.(١)

= وهب بن منبه كتاب التيجان. صفحات ٤٨ ـ ٥٠.
قارن: عبد المنعم ماجد. التاريخ السياسي للدولة العربية. الجزء الأول. صفحة ٧٢

(١) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحة ٢٦٩.
قارن: حسن ظاظا. المرجع السابق صفحة ١٣٢.

٢ ـ مرحلة ملوك سبأ: وهي المرحلة التي تلقب فيها حكام سبأ بلقب «ملك سبأ» وتمتد هذه المرحلة حتى عام ١١٥ ق. م أو ١٠٩ ق. م.

٣ ـ مرحلة ملوك سبأ وذي ريدان (١١٥ ـ ٣٠٠ م).

٤ ـ مرحلة ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت واليمن وأعرابها في المرتفعات وفي التهائم. وهو آخر دور من ادوار الحكم في سبأ (٣٠٠ م ٥٢٥ م)(١).

١ ـ سبأ في عهد المكاربة

: إتخذ حكام سبأ في أقدم عهودهم لقب «مكرب» وذلك كما ورد في الكتابات السبئية وتشير اللفظة إلى التقرب من الآلهة، فكان «المكرب» هو المقرب أو الوسيط بين الآلهة والناس، وغلب على حكام سبأ في هذه المرحلة الصفة الدينية.

وفيما يتصل بالتحديد الزمني لحكم المكاربة فهناك عدة آراء تدور حول هذا الأمر، فهناك من يرى إن بداية حكم المكاربة ترجع إلى القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد، بينما هناك رأي ثان يرى إن بداية حكمهم كان في بداية عام ٨٠٠ ق. م واستمر عهدهم لمدة قرنين ونصف أي حتى حوالي عام ٦٥٠ ق. م بينما رأي فريق ثالث إن مدة حكم المكاربة قد استمرت ثلاثة قرون وذلك من حوالي ٧٥٠ ق. م وحتى ٤٥٠ ق. م(٢).

ونلاحظ من ذلك اختلاف آراء المؤرخين حول بداية عهد المكاربة وكذلك نهاية هذا العهد، فبينما يرجع البعض بدايته إلى القرن العاشر ق. م، نجد البعض الآخر يرجع بدايته إلى اواسط القرن الثامن ق. م، وبينما يجعل البعض نهاية هذا العهد في منتصف القرن السابع ق. م، نجد البعض الآخر

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد. المرجع السابق. صفحة ١٨٩.
قارن: أحمد أمين سليم. المرجع السابق صفحات ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٢) جواد على. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحة ٢٦٩.

يجعلها في اواسط القرن الخامس ق. م. ويرجع ذلك ـ كما سبقت الإشارة ـ إلى عدم وجود تواريخ محددة وثابتة نستطيع التأريخ على أساسها لدولة سبأ ولعدم وجود تواريخ أخرى تثبت حكم كل ملك بصورة قاطعة.

ومن أقدم مكاربة سبأ الذين وصلتنا معلومات عنهم المكرب «سمه على» وقد وصلنا من عهده بعض الكتابات المكتوبة بالطريقة الحلزونية، ولكن هذه الكتابات كانت قصيرة وناقصة، ولقد ورد فيها اسماء بعض المعبودات مثل: عشتر والمقه وذات حميم(1).

ولقد اختلفت آراء العلماء حول حكام سبأ وترتيب تتابعهم في الحكم وكذلك سنوات حكمهم، وحاولوا ترتيبهم على أساس تقدير عمر البقايا الاثرية التي تخلفت من عهودهم والطبقات الاثرية المتخلفة فيها وكذلك على أساس دراسة نماذج الخطوط والكتابات التي وردت عنهم، ويلاحظ في ذلك تباين آراء المؤرخين حول عددهم وتتابعهم، ومن أشهر هؤلاء المكاربة:

سمه على.
يدع ايل ذريح.
يثع أمر وتر.
يدع إيل بين.
يثع أمر وتر.
كرب إيل بين.
ذمر على وتر.
يثع أمر بين.
ذمر على ينف.
كرب إيل وتر(2).

---

(1) J. B. Philby, op. cit., 141.

(2) جواد على. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ٣٠٧ ـ ٣١٤. وعن الموضوع بالتفصيل راجع:

محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٢٧٣ ـ ٢٨٦.

سياسة سبأ الداخلية في عهد المكاربة

١ ـ بناء المعابد:

إهتم مكاربة سبأ ببناء معابد الآلهة وتقديم القرابين لها، وتشير نقوش المكاربة الاوائل إلى تشييدهم لمعابد الآلهة في صرواح ومأرب وغيرها من المناطق السبئية، ولعل من أشهر هذه المعابد، المعبد الذي شيده المكرب «يدع ايل ذريح» للاله المقه في مأرب، ويسمى المعبد «معبد أوام» وهو يعرف حالياً بإسم «محرم بلقيس»، وهو يقع جنوب شرق مأرب الحالية بحوالي أربعة كيلومترات.

وفي محاولة لتفسير معنى التسمية الحالية للمعبد، يذكر الأستاذ الدكتور أحمد فخري إن كلمة «محرم» تعني المكان المقدس للاله أو بعبارة آخرى «المعبد». أما «بلقيس» فيري المؤرخون العرب إنها ملكة سبأ التي زارت سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ ويرون أن إسمها كان «بلقيس» أو «بلقمه» ويرجح علماء الساميات أن «بلقمه» هو الارجح، وربما كان أسم الاله «المقه» يدخل في تركيبه. أما إسم «بلقيس» الذي تكرر ذكره في كتب المفسرين المسلمين فلم يرد على الاطلاق بين الأسماء السبئية المعروفة، وهناك إحتمال بأن الإسم منقول عن العبرية التي نقلته بدورها عن اليونانية ومعناه «أمة» أو جارية.

وفيما يتصل بالتصميم المعماري لمعبد أوام أو محرم بلقيس، فيلاحظ إنه يكاد يكون بيضاوي الشكل، ويوجد مدخله الرئيسي في الناحية الشمالية، ويوجد أمام المدخل بهو ذي أعمدة على جوانبه، وبعد المدخل بحوالي عشرة أمتار تقوم ثمانية أعمدة كبيرة في صف واحد، وذلك عدا الاعمدة الصغيرة. ويوجد في الجهة الشرقية من البناء هيكلاً صغيراً من الحجر له أربعة أعمدة. وشيد السور الخارجي للمعبد من احجار منحوتة، وهي تتفاوت في احجامها، وقد زين أعلى السور ببعض الزخارف. وكان للمعبد باب جانبي آخر في الناحية الغربية وهو مواجه للمدينة القديمة، وربما كان هناك طريق موصل بين

الاثنين، ومن المحتمل أن تكون هناك أبواب جانبية أخرى مغطاة الآن بالرمال.

وقام مكاربة سبأ بعد ذلك بترميم المعبد وتوسيعه، ومن هؤلاء المكاربة «يثع أمر بين» الذي حكم في النصف الثاني من القرن السادس قبل الميلاد، الذي سجل نقشاً على الناحية الغربية من سور المعبد أشار فيه إلى قيامه بإتمام بناء المعبد. ولقد ظل هذا المعبد يؤدي وظيفته في عبادة الاله المقه مدة تناهز الألف عام، حيث عثر على كتابات بالقرب من باب المعبد تشير إلى القيام ببعض الترميمات فيه، وترجع هذه الكتابات إلى القرنين الثالث والرابع الميلاديين[1].

وقام المكرب «يدع ايل ذريح» ببناء معبد للاله المقه أيضاً في مدينة صرواح، ولكن لا يمكن معرفة التصميم الخاص بهذا المعبد، وذلك نظراً لأنه قد استخدم خلال العصور الوسطى كحصن، فاستحدثت فيه مداخل وسدت منافذ وهدمت كثيراً من أحجاره.

٢ ـ تشييد السدود

إهتم مكاربة سبأ بالاصلاحات الزراعية، فعملوا على استصلاح الأرض واستغلالها، ومن أجل ذلك وجهوا إهتمامهم لبناء السدود لحجز المياه للاستفادة منها في أعمال الزراعة، وأقام العرب السدود لقلة المياه في بلادهم فلم يدعوا واديا يمكن استثمار جانبيه بالماء إلا وحجزوا سيله بسد، فتكاثرت السدود بتكاثر الاودية حتى تجاوزت المئات.

وكانوا يسمون كل سد بإسم خاص به، أو بنسبة إلى البلد المقام فيه، ومن أعظم هذه السدود في بلاد العرب وأشهرها سد مأرب. ومن أقدم النقوش التي وصلتنا عن سد مأرب نقش من عهد المكرب «سمه على ينف»

---

(١) أحمد فخري. دراسات في تاريخ الشرق القديم. صفحة ١٦٢ أحمد فخري. احدث الاكتشافات الاثرية في اليمن. صفحات ٢٥٥ ـ ٢٥٦.
قارن فؤاد حسنين. التاريخ العربي القديم. صفحة ٢٩٠.

وأشار فيه إلى تصميمه لسد رحاب للسيطرة على مياه الامطار والاستفادة من السيول، وهو جزء من مشروع سد مأرب، ويشير هذا النقش كذلك إلى قيام هذا المكرب بثقب حاجز من الحجر، وفتح ثغرة فيه لمرور المياه منها إلى سد رحاب لتسيل إلى منطقة يسران، وكانت تغذيها مسايل وقنوات عديدة تأتي بالماء من حوض هذا السد[1].

وتشير نقوش «سمه على ينف» وهي أقدم كتابات تصلنا عن سد مأرب إلى قيامة بأعمال هامة فيه، إلا إنه لا يمكن القول إنه هو مشيده، فقد يكون تشييده قد بدأ من قبل حكمه وإنه أتم هذا العمل، ولكن نظراً للنقص الشديد في الوثائق المتصلة بهذا الموضوع يظل «سمه على ينف» هو أقدم المكاربة الذين نعرف عنهم قيامهم بتشييد سد مأرب، وكان ذلك في اواسط القرن الثامن قبل الميلاد. ولقد سار على نهجه من جاء بعده من المكاربة في الإهتمام بسد مأرب وتعلية جدرانه وترميمها واستحداث اضافات إليه.

ويعتبر سد مأرب أعظم عمل هندسي قديم في الجزيرة العربية كلها، ولقد حظي بكثرة ماورد عنه في اخبار العرب واشعارهم وذلك على سبيل العظة والعبرة لما أصاب سبأ نتيجة انهياره، ولقد أشار القرآن الكريم في سورة سبأ إلى ما أصاب سبأ نتيجة حدوث سيل العرم، فقال تعالى في كتابه الكريم: «لقد كان لسبأ في مساكنهم آية، جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذوات أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور، وجعلنا بينهم وبين القري التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين، فقالوا ربنا باعد بين اسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم احاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور». الآيات من ١٥ ـ ١٨. [2]

---

(١) فؤاد حسنين. المرجع السابق. صفحة ٢٩١.

CF. J. B. Philby, op. cit., P.39.

(٢) سورة سبأ. الآيات ١٥ ـ ١٨.

وسيل العرم الذي يشير إليه القرآن الكريم، والذي كتب فيه المفسرون كثيراً، وكان سبباً في خراب المنطقة حدث في وقت ما بين أعوام ٥٤٣، ٥٧٠ م، أي قبيل مولد النبي عليه أفضل الصلاة والسلام. ولكن بالرغم من أن حادث هذا السيل كان قريباً من البعثة المحمدية فإن ما كتبه الشراح والمفسرون مليء بالقصص الخيالية سواء كانت عن سبب تخريب السد وتهدمه أو عن سبب الذين قاموا ببنائه، فقال بعضهم إن بانيه هو سبأ بن يشجب. وقال غيرهم بناه لقمان بن عاد، وجعله فرسخاً في فرسخ، وجعل له ثلاثين فتحة، إلى غير ذلك من المبالغات[1].

ولعل من أوثق روايات العرب عن سد مأرب ما ذكره أبي محمد الحسن ابن يعقوب الهمذاني في كتابه الاكليل، وكان قد شاهد انقاضه بنفسه في اوائل القرن الرابع للهجرة، وكان يقرأ خط المسند ويفهمه، فوصف انقاضه مع تطبيقها على ما جاء في القرآن الكريم، ولقد جاء في رواية الهمذاني[2]:

«ذكر مأرب: وهي مسكن سبأ الذي قال الله فيه»: «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلده طيبة ورب غفور». وهي كثيرة العجائب. والجنتان عن يمين السد ويساره، وهما اليوم غامرتان، والغامر العافي، وإنما عفتا لما اندحق السد فارتفعتا عن ايدي السيول. ووجدت في احداهما غريق اراك، وفي اصله جذع نخلة اسود قد كبست باقية السواقي، فقال بعض من كان معي: لا اظنه إلا من بقايا نخل الجنتين، وما اظنه بقي من العصر القديم. وأما مقاسم الماء من مداخر السد فيما بين الضياع فقائمة كأن صانعاً فرغ من عملها بالامس. ورأيت بناء أحد الصدفين وهو الذي يخرج منه الماء، قائماً بحاله على أوثق ما يكون ولا يتغير إلا أن يشاء الله، وإنما وقع الكسر في العرم وقد بقي من العرم شيء مما يصل إلى الجنة اليسرى يكون عرض اسفله خمسة عشر ذراعاً، قال تبارك

(١) جواد على. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ١٣٧ ـ ١٤٦ فؤاد حسين. المرجع السابق. صفحة ٢٩٢.

(٢) عن: أحمد سليم. المرجع السابق. صحفة ٩٩.

وتعالى: «فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل» قيل الخمط الاراك والاثل الطرفاء، والسدر المعروف العرج وهو العلب وجمعه علوب والواحدة علبة.

ومن امثال العرب في الرجل المنيع الجانب: هو رجل لا يفاش عليه ولا يخلف وثله ودومه، وبها من الاراك ما ليس ببلد ومن الحمام المطوق في الاراك ما يجل عن الصفة. وكان السيل يجمع من اماكن كثيرة ومواضع جمة باليمن، من (عروش وجانب ردمان وسرعة وذمار وجهران وكومان وأسبيل وكثير من مخاليف خولان).

وفيما يتصل بوصف السد، فيلاحظ أن السيول المتدفقة في الوديان تصل إلى منطقة قريبة من مأرب في وادي أذنه حيث تدخل في جبل يسمى «جبل بلق» وتسمى الفتحة التي تدخل منها المياه بإسم «الضيقة» ولكل من جهتيها إسم حسب وصفها فهي بلق الايمن وبلق الايسر[1].

ويرتفع جبل بلق في تلك المنطقة إلى حوالي ٣٠٠ متر، ويبلغ متوسط اتساع «الضيقة» ٢٣٠ متراً، ولكنها تتسع في الوسط فيصبح اتساعها ٥٠٠ متراً، ثم تضيق بعد ذلك فلا تزيد عن ١٩٠ متراً تقريباً، ثم تستمر الناحية الشمالية في امتدادها بينما تنفرج الناحية الاخرى. وقد اختير هذا المكان لتشييد السد، فبني فيه جداراً قوياً يعترض الوادي ويوقف مياه السيول المتدفقة، وجعلوا في الناحيتين فتحتين احداهما إلى اقصى اليمين واستغلوا ذلك الجبل المرتفع في هذا الغرض فلم يبنوا إلا جداراً ضخماً واحداً ليكون ثانياً للبوابة، أما البوابة التي في الناحية اليسري (الجهة الجنوبية) فهي أكبر وأعظم، وتنقسم إلى قسمين، وبنوا لها جدارين كبيرين يسيران مسافة غير قليلة، ثم ينتهيان بحوض كبير مبني بالحجر ترى في جهاته المختلفة فتحات متعددة يخرج من كل منها قناة تسير لري ناحية من نواحي الوادي الفسيح.

ولقد شيد هذا السد لغرضين، (الأول) السيطرة على مياه السيول

---

(١) محمد عزة دروزة. المرجع السابق. صفحات ٧٢ وما بعدها

المتدفقة فلا تخرب ما يعترضها إذا جاءت فجأة بكثرة غير عادية، (وثانيهما) تخزين تلك المياه ورفع مستواها أمام السد وعدم صرف شيء منها إلا بالمقدار اللازم، وبذلك يضمنون ري وادي مأرب الذي يرتفع عن مستوى السابلة بخمسة امتار، ويأمنون توفر كميات المياه اللازمة للري حين يحين موعد مجيء سيول أخرى.

وفيما يتصل بوقت تهدمه، فيلاحظ إن السد لم يتهدم مرة واحدة وإنما صارع عوامل الزمن والطبيعة، واهمال الإنسان طيلة الفترة التي كان قائماً فيها، ولا ريب أنه تأثر بتلك التحولات السياسة والإقتصادية التي شهدتها اليمن قديماً، وتعرض للإهمال والكوارث الطبيعية مراراً. ومن النقوش التي سجلت تهدم السد والقيام بترميمه، نقش عثر عليه في مأرب ويعرف بإسم «جام ٦٧١» ويرجع إلى اواسط القرن الرابع الميلادي، وفيه يشير «تأران بن يهنعم» وابنه «ملكي كرب يهأمن» إلى إصلاح ما تهدم من السد في حوالي ثلاثة أشهر. ووصلنا النقش الثاني من عهد الملك «شرحبيل يعفر بن أبي كرب أسعد» التبع اليماني وذلك بين عامي ٤٤٩، ٤٥٠ م، وفيه يشير إلى إصلاح ما تهدم من السد من جداره، أو قنواته واعيد بناؤه سوياً، كما كان، وذلك في خمسة أشهر من العمل المتواصل[١] واشترك في اصلاحه عشرون ألف رجل.

وتهدم سد مأرب للمرة الثالثة في عهد ابرهة الذي حكم اليمن بعد الغزو الحبشي والياً لنجاشي الحبشة ثم حاكماً مستقلاً عنه، وكان ذلك حوالي عام ٥٤٣ م. وقد عمل في إصلاح السد آنذاك عدد كبير من العمال وصرف على ترميمه اموال طائلة اشير إليها في نقش ابرهة الذي عثر عليه قرب السد ويطلق عليه (المدونه ٥٤٢) وكان خبر انكسار السد قد بلغ ابرهة وهو في احدى حملاته لإخضاع بعض القبائل الثائرة، وعاد ابرهة ومعه من ثار عليه من القبائل واشترك الجميع في إصلاح السد وباشراف ابرهة نفسه. وقد خلد ابرهة ذكرى هذا العمل في نقش عثر عليه في جلازر. ونورد فيما يلي ما جاء

(١) مصطفى العبادي. المرجع السابق. صفحات ٩٩ ـ ١٠١.

في هذا النص إعتماداً على ما ورد في مؤلف الاستاذ جرجي زيدان عن العرب قبل الإسلام[1]:

«بنعمة الرحمن الرحيم ومسيحه والروح القدس، إن ابرهه عزيز الاحباش الاكسوميين، ملك اراخميس زبيمان، ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت واعرابهم في نجد وتهامه، قد نقش هذا الاثر تذكاراً لتغلبه على يزيد ابن كبشه، عامله الذي كان قد ولاه كندة وريء، وعينه قائداً ومعه أقيال سبأ الصحاريين، وهم مرة ونمامة وحنش، ومرثد وصنف ذو خليل واليزنيون أقيال معدى كرب بن السميفع وهفان واخوته ابناء الاسلم، فأنفذ الملك إليه الجراح ذازنبور، فقتله يزيد وهدم قصر كدار، وحشد من اطاعه من كندة وحريب وحضرموت، وفرهجان الزماري إلى نجران. وبلغ الملك الاستصراخ، فنهض بجنده الاحباش الحميريين الوفاء في شهر ذو القياط من سنة ٦٥٧ (من تاريخ اليمن) فنزل اودية سبأ... فجاء يزيد وبايع وخضع للملك بين يدي القواد. وهم في ذلك جاءهم النبأ بتهدم السد والحائط والحوض والمصرف في شهر ذو المدرح سنة ٦٥٧ فأمر بالعفو... وبعث إلى القبائل بانفاذ الحجارة للاساس والحجر الخام والأخشاب ورصاص الصب... لترميم السد في مأرب... فتوجه أولاً إلى مأرب وصلي في كنيستها، ثم عمد إلى الترميم فنبشوا الانقاض حتى وصلوا إلى الصخر وبنوا عليه. وعلم وهو في ذلك إن القبائل تضايقت من العمل، ورأي اعدامهم يعود بالضرر فعفا عنهم: احباشهم وحميريهم، وأذن بانصرافهم... ورجع الملك إلى مأرب بعد أن عقد تحالفاً مع الاقيال الآتي ذكرهم: اكسوم ذو معاهر بن الملك ومرجزف ذو ذرناح وعادل ذو غائش وازداد شولمان وشعبان ورعين وهمدان والكلاع... الخ وجاء إليه وفد النجاش ووفد ملك الروم ورسول من المنذر وآخر من الحارث بن جبلة، وآخرون جاءوا بعون الرحمن يخطبون مودته في أواخر شهر داوان، وبعثوا إليه من غلة اراضيهم لترميم ما انصدع من البناء فرمموه ووسعوه حتى بلغ طوله ٤٥ ذراعاً وارتفاعه ٣٥ ذراعاً

(١) أحمد سليم. المرجع السابق. صفحات ١٠٠ ـ ١٠٣.

(ثم ذكر ما انفق فيه من الحجارة والاطعمة للعمال والحيوانات للعمل)، واستغرق العمل في ذلك ٥٨ يوماً و ١١ شهراً، وكان الفراغ منه في شهر ذو معان سنة ٦٥٨. «وهذه السنة في حساب الحميريين تعدل عام ٥٤٣ للميلاد، لأنهم كانوا يبدأون تاريخهم سنة ١١٥ قبل الميلاد».

أما متى تفجر سد مأرب للمرة الأخيرة، وهي الحادثة التي ذكرها القرآن الكريم، فلا يعلم زمانها بدقة وإن كان جمهور العلماء يرى أن تلك الحادثة لا بد وأن تكون قد تمت بعد منتصف القرن السادس الميلادي، أي بعد عام ٥٥٠ ميلادية، وذلك قبل ميلاد الرسول الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه، بسنوات قليلة(١).

٣ ـ بناء المدن:

اتخذ مكاربة سبأ من صرواح عاصمة لهم في باديء الأمر، وظلت قرونا طويلة عاصمة لهم، وعني الكثير من حكام سبأ بتشييد المعابد فيها. وتقع مدينة صرواح في وادي صرواح الذي يكاد يكون مستديراً، وتحيط به المياه من كل ناحية، وكان له سد لتخزين مياه الامطار. وتوجد المناطق الاثرية في صرواح في ثلاثة مناطق متقاربة واحدة منها هي منطقة السد وتعرف بإسم «البنا»، والثانية هي المنطقة المسماة «القصر»، والمنطقة الثالثة وتعرف بإسم «الخريبة» وتوجد فيها بقايا المعابد، ومن أشهرها المعبد الكبير الخاص بالاله «المقه» والذي سبقت الاشارة إليه(٢).

سياسة سبأ الخارجية في عهد المكاربة:

تشير العديد من النقوش السبئية إلى الاهتمام بمدينة نشق وتحصينها وهي مدينة معينية في الاصل، مهمة بالنسبة لهم، فقرروا إصلاح ما تخرب

---

(١) مصطفى العبادي. المرجع السابق. صفحات ٩٩ ـ ١٠١.

(٢) الهمذاني. صفة جزيرة العرب. صفحات ١٠٢، ١١٠، ٢٠٣.

ياقوت الحموي. الجزء الخامس. صفحة ٤٠٢ أحمد فخري. أحدث الإكتشافات الأثرية في اليمن. صفحات ١٥٩ ـ ١٦٢.

منهـا، واستصلاح أرضهـا لاسكـان السبئيين فيهـا، ووسعـوا في حـدودهـا، واصلحوا نظم الري فيها، ووزعوا اراضيها الزراعيـة على إتباعهم السبئيين، وحولوها بذلـك إلى مدينـة سبئية. ومن هـذه النقوش التي تشيـر إلى إهتمام مكاربة سبأ بمدينة نشق، نقش خاص بالمكرب «كـرب ايل بين» ويشيـر فيه إلى إنه وسع حدود مدينة (نشق) وحسن المدينة، واشار ابنـه المكرب «ذمـر على وتر» إلى إنه أمر بتوسيع مدينـة (نشق) وإصلاح الأرض المحيـطة بها، وبتحسين نـظم الري فيهـا، وذلك فيمـا وراء الحد الـذي وضعه أبـوه لهـذه المدينة، وإنه قد جعل ذلك وقفا على شعب سبأ.

ويشير إلى توسع السبئيين أيضاً نقش يرجع إلى عهد المكرب «يثع امر بين» وفيه يذكر أنه سوّر وحصن قلعة (حريب) وهما من مـدن قتبان، ويشيـر ذلك إلى توسع السبئيين في عهد المكاربة وإلى اتخاذهم هذه الحصون مواقع هجومية تغير منها جيوشهم على جيرانهم الذين أصابت حكوماتهم الضعف.

ولقد ورد في نقش خاص بالملك سرجون الثاني (٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق. م) إنـه تسلم هدايـا من عدد من الملوك، من بينهم «يثـع أمر» السبئي، وذهب بعض البـاحثين إلى الاعتقاد بـأن «يثع أمـر» هذا كـان أحد الملوك السبئيين الحاكمين في شمال جزيرة العرب على مقربة من البادية في اعالي الحجاز، أو نجد مثلاً أو في الأرض الواقعة في المناطق الجنوبية من الاردن، بينما يرى آخرون إنه هو المكرب السبئي الذي حكم في الجنوب، وهـو ما يتجـه إليه معظم الباحثين، وفي هذه الحالة، فإن هذه الهدايا لا تشير إلى خضوع سبأ للاشوريين، إذ إنه من المستبعد بلوغ نفـوذ الاشوريين في ذلـك الوقت إلى اليمن، وعلى ذلك فإن هذه الهدايا تكون مجرد تعبير عن الصداقة التي كانت تربط بين أشور وسبأ، خاصة وإن بين اليمن والعراق تجارة مستمرة قـديمة، ومواصلات متصلة، فلتوطيد الصداقة بين الحكومتين وتسهيل التبادل التجاري بين العراق واليمن أرسل حكام سبأ تلك الهدايا لكسب ودهم وتسهيـل أمور تجارتهم في أسواق العراق[١].

(١) جواد على. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ٢٨٣ ـ ٢٨٥ أحمد فخـري. المرجـع =

٢ ـ عصر ملوك سبأ

يبدأ عصر ملوك سبأ بالملك «كرب أيل وتر» الذي كان «مكرباً» ثم لقب «ملك» كما تشير إلى ذلك النقوش التي ترجع إلى عهده، ومن أهمها نقش صرواح المنقوش على وجه جدار مشيد من المرمر في بهو المعبد الرئيسي في صرواح، وقد افتتح هذا النقش بجملة: هذا ما امر بكتابته كرب أيل وتر بن ذمر على مكرب سبأ عندما صار ملكاً. ويشير استخدام حكام سبأ لهذا اللقب إلى زيادة صفتهم السياسية عن صفتهم الدينية. وقد انتقلت الحكومة من صرواح العاصمة الأولى القديمة إلى مأرب العاصمة الجديدة، حيث استقر الملوك فيها متخذين من قصر سلحين مستقراً لهم.

وفيما يتصل بالتحديد الزمني لعصر ملوك سبأ، فهناك من المؤرخين من يجعل بداية هذا العصر حوالي عام ٦٥٠ ق. م، بينما يرجعه آخرون إلى حوالي عام ٤٥٠ ق. م، إلا أن الرأي الأول هو الارجح. أما عن تحديد نهايته، فيتجه غالبية العلماء إلى تحديده بحوالي عام ١١٥ ق. م أو ١٠٩ ق.م. (١)

وقد اختلف المؤرخون في عدد ملوك سبأ، فذكر «هومل» في قائمته تسعه عشر ملكاً، وذكر «كليمان هوار» اثنا عشر ملكاً، وأورد «فلبي» اسماء خمس وعشرين ملكاً، ومن هؤلاء الملوك:

- سمه على ذريح.
- الشرح بن سمه على ذريح.
- كرب أيل وتر بن سمه على ذريح.
- يدع أيل بين بن كرب أيل وتر.
- يكرب ملك وتر.

= السابق. صفحة ١٦٣ محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٢٨١ ـ ٢٨٥.

CF. J. B. Philby, op. cit., P. 3q.

(١) فريتز هومل. التاريخ العربي القديم. صفحات ٨٧ ـ ٨٨.

CF. J. B. Philby, op. cit., P. 14.

- يثع أمر بين.
- كرب أيل وتر.
- سمه على ينف.
- الشرح بن سمه على ينف.
- يدع أيل وتر.
- ذمر على بين بن يدع أيل وتر.
- كرب أيل وتر بن ذمر على بين.
- نشأ كرب يهنعم.
- وهب آل يحز.
- كرب أيل وتر يهنعم[1].

سياسة سبأ الداخلية في عصر الملوك

١ ـ الإهتمام بالنواحي الاقتصادية:

إهتم ملوك سبأ باقامة السدود وحصر السيول وشق القنوات لاستصلاح الأراضي الصالحة للزراعة وتنظيم وسائل الري. وفي ذلك يشير أول ملوك سبأ وهو «كرب ايل وتر» في نقش النصر إلى شكره لالهته وثنائه عليها لمباركتها أرضه وأرض شعبه، ووهبت أرضه مطراً سال في الاودية فأخذت الأرض زخرفها بالنبات، وإذ مكنته من انشاء السدود وحصر السيول حتى صار في الامكان اسقاء الاراضي المرتفعة، واحياء الاماكن التي حرمت من الماء. وكذلك احياء اراضي واسعة بإنشاء سد لحصر مياه الامطار يتصل بقناة روت أراض لم تكن المياه تصل اليها، فوصلت إليها بامتلاء حوض السد بالماء، وبانشائه مسايل أوصلت المياه إلى أراض اخرى، كما نظم الري، حتى صارت المياه تسقي كل أرض. كما اشار في نقش آخر يعرف بإسم Glaser 1000B إلى اقامته لخزان ماء في وادي أذنة، وأقام مسايل للماء فوصلها إلى

---

(١) عن هؤلاء الملوك والخلاف حول ترتيبهم زمنياً ومدة حكم كل ملك واعماله راجع:
محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٢٨٧ ـ ٢٩٦.

(يسران) وإنه شيد وحصن وقوي جدار ماء (يلط) وما يتفرع منه من مساق ومسايل. ويشير في هذا النقش كذلك إلى تعميره لأراض زراعية، في أرض (يسران) وغرسه لنباتات فيها[1].

وورد نقش من عهد الملك «كرب ايل وتر» سجله أحد كبراء القبائل بمناسبة قيامة بأعمال زراعية وبأمور تتعلق بري الأرض مثل حفر الانهار وبناء السدود. وقد ورد في هذا النقش اسماء الاماكن التي أجريت فيها هذه الاعمال وهي (أثين) و(مطرن) و(مأتم) و(ذو فنوتم) و سمطانهان) وهي من مزارع الملك. وغوطة (ذو ضأم) في (سرر أمان).

وقد ذكر أسم الملك « كرب ايل وتر يهنعم » في النص المعروف Jamme 563 وقد دونه أناس من (بني عثكلان) حمداً وشكراً للاله المقه الذي انعم عليهم وحباهم بنعمه، واعطاهم حصاداً جيداً وغلة وافرة، وليزيد في توفيقه لهم ونعمه عليهم، وليبعد أذي الحساد وشر الشائنين. ويوضح ذلك مدى الإهتمام بزيادة المحاصيل الزراعية.

كما جاء أسم هذا الملك في نص آخر دونه قيل من أقيال (غيمان) معروف بـ Jamme 464 دونه عند تقديمه تمثالاً للاله المقه حمداً له وشكراً على إنعامه عليه وعلى جيش واقيال الملك كرب ايل وتر يهنعم، ولأنه منّ عليه وأعطاه حاصلاً طيباً وغلة وافرة وأثماراً كثيرة، وليمنّ عليه وعلى قومه في المستقبل أيضاً، وذلك بحق المقه وبحق الآلهة عشتر. . . ثم يعدد النقش العديد من الآلهة السبئية[2].

٢ ـ النواحي المعمارية

العمارة الدينية: إهتم ملوك سبأ بإقامة معابد الآلهة وترميمها وتقديم القرابين إليها، ومن بين النقوش التي وصلتنا وتشير إلى إهتمام الملوك بترميم

---

(١) أحمد سليم. المرجع السابق. صفحة ١٠٩ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق. نفس الموضع.

قارن: جورجي زيدان. المرجع السابق صفحات ١٨٧ ـ ١٨٨.

المعابد وزيادتها، نقش يعرف بـ CIH 374 وورد فيه «إن الشرح بن سمه على ذريح» قد أقام جدار معبد المقه من موضع الكتابة إلى اعلاها، ورمم ابراج هذا المعبد، وحفر الخنادق، ووفي بجميع نذره الذي نذره لالهة المقه على الوفاء به بعد أن اجاب دعاءه، وقد استجاب إلهه لسؤاله، فيسر أمره وأعطاه كل ما أراد، فشكراً له على نعمه، وشكراً لبقية آلهة سبأ، وهي: عشتر وهبس وذات حميم، وذات بعدن وتمجيداً لإسم والده «سمه على ذريح» إن أمر بتدوين هذه الكتابة ليطلع عليها الناس»[1].

العمارة المدنية: اشار أول ملوك سبأ «كرب ايل وتر» في نقش النصر الذي يرجع إلى عهده بعض ما قام به من أعمال عمرانية، فذكر أنه أتم بناء الطابق الاعلى من قصر سلحين ابتداء من الاعمدة، والطابق الاسفل إلى اعلى القصر.

وفيما يتصل بعاصمة سبأ في عهد الملوك فكانت مأرب، وكان يحيط بها سور قوي حصين له أبراج، وشيد السور بحجر البلق، كما ورد في النقش المعروف بـ Glaser 418, 419، وأقيم السور على أساس قوي من الحجر، وكان بالسور بابين. ومن أعظم ابنية مأرب وأشهرها قصر ملوكها وهو المعروف بقصر سلحين، ومعبدها الكبير الخاص بالاله المقه. وفي خارج أسوارها توجد بقايا مقبرة جاهلية، يبدو أنها كانت مقبرة مأرب قبل الاسلام[1].

٢ ـ النظم السياسية:

توجد بعض الإشارات التي يمكن الاستدلال منها على بعض نواحي التنظيم السياسي في عصر ملوك سبأ. ومن هذه الإشارات ماورد في عهد الملك «يكرب ملك وتر» وهو النقش المعروف بـ Halevy 51، وقد سجل عليه تأييد هذا الملك لقانون كان قد صدر في أيام حكم أبيه لشعب سبأ، وقبيلة «يهبلح»، وهو يتصل بحقوق الأرض وكيفية استغلالها واستثمارها في

---

(١) D. Neilson, op. cit., P 87.

(٢) جواد على. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ٣١٥ وما بعدها.

مقابل نسبة معينة تدفع إلى الدولة، وفي الواجبات المترتبة على سبأ وعلى (يهبلح) في موضوع الخدمات العسكرية، وتقدم الجنود لخدمة الدولة في السلم والحرب. وقد شهد على صحة هذا القانون وأيد صدق صدوره من الملك ووافق عليه جماعة من الاشراف وسادات القبائل المتضامنة مع سبأ. وقد ذكرت اسماؤهم بعد جملة «شهد على صحة هذا البيان، وأيده، ووافق على ما جاء فيه»(١).

ويتضح من هذا النقش أهمية القبائل السياسية في اتخاذ قرارات القوانين والموافقة عليها، وإنه كان يوجد ـ ما يمكن أن يطلق عليه مجلس قبائل سبأ، وإن هذا المجلس يتكون من ممثلين لإشراف كل قبيلة ويرأسه الملك، ويبدو إنه لا بد من موافقة هذا المجلس على ما يصدره الملك من قرارات، وبعبارة أخرى كان هذا المجلس هو الذي يصنع سياسة الدولة بما يتفق ومصالح القبائل الممثلة فيه.

ويؤيد ذلك نقش يرجع إلى عهد الملك «كرب ايل وتر» ويعرف بـ Glaser 1571 وهو يتضمن أمراً ملكياً يتصل بجباية الضرائب، وقد شهد عليه ووقعه ممثلون عن القبائل: قبيلة ذي يفعان، قبيلة نزحتن (نزحتان)، وقبيلة اربعنهان، وقبيلة فيشان، وكبير صرواح.

السياسة الخارجية:

استمر «كرب ايل وتر» أو ملوك سبأ في سياسة المكاربة الخارجية، وذلك فيما يتصل بسياسة التوسع والقضاء على الحكومات العربية الجنوبية الاخرى، أو إخضاعها لحكم سبأ، وقد سجل في نقشه المعروف بإسم نقش النصر ما قام به من أعمال حربية ونتائج هذه الحروب، ونستطيع من دراستنا للاعمال العسكرية في هذا النص معرفة الاتساع الذي بلغته سبأ في عهده وما غنمه في هذه الحروب وما أوقعه بأعدائه أو المتحالفين معه. ولقد اطال في ذكر البلاد التي فتحها ودمرها، ويذكر أنه في حربه ضد أوسان قتل ١٦٫٠٠٠

(١) المرجع السابق. صفحة ٣١٨.

من أعدائه وأسر ٤٠٠٠٠ر٤٠، ويقول إنه استمر في فتوحاته حتى وصل إلى البحر ودانت أوسان وملكها «مارتو» لسلطانه. وبعد أن تم له إخضاع الجنوب، اتجه ببصره نحو مدن المعينيين فأخضعها واحدة بعد اخرى، وقبل ملوكها دفع الجزية له، وأن يكونوا من أتباعه. ويشير في آخر النقش إلى حملته على نجران. ولقد كانت حروب هذا الملك فاتحة عهد جديد في تاريخ اليمن القديم، وأصبح ملك سبأ، ملكاً على اليمن بأكملها بما في ذلك حضرموت ونجران، وما يسمى الآن بالمحميات، واستمر ذلك الملك الواسع الكبير لسبأ لمدة عدة قرون.

ومنذ عهد الملك «يثع أمر بين» دخلت سبأ في صراع مع قتبان، ومما يشير إلى ذلك نقش سجله كاهن الآلهة ذات غضران بمناسبة اقامته هو وافراد اسرته جداراً في معبد الاله المقه وشكرهم لآلهة سبأ لأنها انعمت عليه إذ كان قائداً عسكرياً بالتوفيق في عقد صلح بين حكومة سبأ وحكومة قتبان وذلك بعد حرب ضاربة استمرت لمدة خمس سنوات، كانت قتبان هي التي اشعلت نارها بهجومها على أرض سبأ، وقد عهد إلى هذا الكاهن والقائد بمحاربة القتبانيين والدفاع عن المملكة، فاستطاع وقف الهجوم القتباني واجلائهم وانتهى الأمر بعقد صلح معهم. تمكن السبئيون من استعادة اراضيهم التي احتلها القتبانيون[١].

ولم تنته جولات الحروب بين سبأ وقتبان عند ذلك، فهناك العديد من الاشارات إلى وقوع حروب بينهم بعد ذلك، استمر بعضها سنين طويلة استغرقت عهد العديد من الملوك، وكان لقتبان الغلبة في بعضها حيث استولت على بعض املاك القبائل السبئية وسجلتها بإسمها.

ويستدل من النص المعروف بـ Glaser 1228 إن «وهب ايل يحز» قد دخل في صراع حربي مع الريدانيين، وقد ساعد السبئيين في هذه الحرب بعض القبائل ومنها مخطران، وسخيم ، وزو خولان، وبنوتبع بينما انضم إلى جانب الريدانيين سعد شمس، ومرتد.

---

(١) جواد على. نفس المرجع. صفحة ٣٢٠.

ويشير نص آخر إلى هذه الحروب مع الريدانيين، وهو يعرف بـ Jam-me 561 BIS وقد سجله بعض اقيال همدان وذلك عند تقديمهم تمثالاً إلى الاله المقه لأنه منّ عليهم وعلى قبيلتهم، وأغدق عليهم نعماءه واعطاهم غنائم كثيرة في الحرب التي وقعت بين ملوك سبأ وبين ذي ريدان واشتركوا فيها، إذ ترأسوا بعض القوات وكذلك في غاراتهم على أرض العرب المجاورين لقبيلتهم والنازلين على حدودها، أولئك العرب الذين أخطأوا تجاه امرائهم وساداتهم ملوك سبأ، وتجاه بعض قبائل ملك سبأ، ولأن الاله المقه أنعم عليهم بأن جعل الملك «وهب ايل يحز» ملك سبأ راضياً عنهم، مقرباً لهم[1].

ويتبين من هذا النقش أن هؤلاء الاقيال من قبيلة همدان كانوا في خدمة ملك سبأ، وإنهم قد اشتركوا مع ملك سبأ «وهب ايل يحز» في تكبيد بني ذي ريدان خسائر فادحة في الحرب التي نشبت بينهم وبين هذا الملك كما يتبين من هذا النقش كذلك أن أرض همدان قد تعرضت لغارات الأعراب وقد نجحوا في تأديبهم.

وقد وردت أولى الإشارات عن الاعراب وغاراتهم على السبئيين وقوافلهم من عهد الملك «نشأ كرب يهنعم»، وقد دون هذا النص بعض الافراد من قبيلة بني آل الجميل العرج وهم من كبراء قبيلة يدع، وذلك حمداً للآله المقه الذي أجاب نداءهم وأغاثهم ومنّ عليهم وعلى بيتهم سلحين في الجميل وحماهم من الغارة التي أمر بها الملك «نشأ كرب يهنعم» على (أرض عربن)، أي الاعراب لانقاذ اصدقائهم واهليهم في مأرب، وكذلك الجنود والحيوانات التي كانت معهم واعادتهم إلى مأرب.

ويتضح من هذا النص إن اعراب البادية كانوا قد أغاروا على جماعة من السبئيين، أو إنهم هاجموا أرض سبأ، فأرسل الملك السبئي «نشأ كرب يهنعم» قوة من الجيش ومن الاهالي للاغارة عليهم في مضاربهم (أرض العرب) ولا سترجاع ما أخذوه من غنائم وأسلاب واسرى، وقد رجعت

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

الحملة سالمة. ومن الواضح إن (أرض عربن) تشير هنا إلى اعراب البادية المتنقلون الرحل والذين لم يكن لهم موطناً محدداً ولا إسماً معيناً، وذلك بعكس القبائل المستقرة في اليمن والتي كانت تذكر بأسماء قبائلها ومواطنها[1].

٣ ـ دولة سبأ وذي ريدان

اتخذ ملوك سبأ في هذا العهد لقب جديد وهو «ملوك سبأ وذي ريدان» وذلك اشارة إلى ضم ذي ريدان إلى مملكة سبأ. إلا إنه لا يمكن الجزم بذلك، فقد ظل للريدانيين كيانهم إلى جانب دولة سبأ، مما قد يرجح إن ذلك يعني تحالفاً بين سبأ وقبائلها وكيان ذي ريدان وحمير[2].

وقد اختلف المؤرخون حول بداية هذا العهد، فيتجه اغلب العلماء إلى أن ذلك كان في حوالي عام ١١٨ أو ١١٥ أو ١٠٩ ق. م، إلا أن البعض يتجه إلى الاعتقاد بأن ذلك اللقب لم يظهر إلا في أواخر القرن الأول قبل الميلاد.

وتتميز هذه المرحلة من الناحية الداخلية بالاضطراب وعدم الاستقرار وكثرة الحروب الداخلية، وأدى ذلك إلى تهدم المدن وتخريب القري وعدم الإهتمام بوسائل الري مما حول الكثير من الأراضي الزراعية إلى صحاري مجدبة. وتوجد من هذا العصر الكثير من النصوص التي يتوسل فيها الأهالي إلى الآلهة بأن تمنّ عليهم بنعمة الطمأنينة والهدوء والاستقرار، وكان من نتائج هذه الحروب انتشار الاوبئة والامراض التي كانت تفتك بالناس بالجملة.

وأول ملوك هذا العصر هو «الشرح يحضب» وتشير النقوش المتبقية من عهده أنه كان مقاتلاً خاض العديد من الحروب حتى قبل أن يصبح ملكاً، استمرت الحروب للتنافس على العرش بينه وبين «شمر» وهو من حمير، ولقد

---

(١) المرجع السابق. صفحات ٢٩٤ وما بعدها.

(٢) مصطفى العبادي. المرجع السابق. صفحات ١٢٥ ـ ١٢٧.
قارن: سعد زغلول عبد الحميد. المرجع السابق. صفحة ١٩٣.

تدخل الاحباش في هذا الصراع الداخلي، ولم تكن لهم سياسة ثابتة، فقد كانوا يغيرون سياستهم تبعاً للاحوال المتغيرة، فنراهم مرة مع الحميريين وتارة عليهم، وكان ذلك نتيجة للاحوال القلقة المضطربة التي كانت تتحكم في العربية الجنوبية آنذاك، ولمصالح الحبش الذين كانوا يريدون تثبيت اقدامهم في السواحل العربية المقابلة وتوسيع رقعة ما يملكونه باستمرار.

وينسب إلى الشرح يحضب تشييد قصر غمدان في صنعاء، وقد ذكر هذا القصر في نصوصه مع قصر سلحين، وقد يشير ذلك إلى إقامته في القصرين وحكم منهما. وقد لمع إسم (صنعو) أي (صنعاء) في أيام الشرح يحضب، وهي لا بد أن تكون قد بنيت قبل عهده، وكان لتشييده قصره فيها أثره في زيادة مكانتها، حتى صارت عاصمة اليمن ومقر الحكام.

ومن الناحية الخارجية، فلقد تعرضت سبأ خلال هذا العهد للحملة الرومانية التي قام بها اليوس جالوس حاكم مصر الرومانية عام ٢٤ ق. م، وذلك بهدف الاستيلاء على اليمن للسيطرة على طرق التجارة التي كان يحتكرها السبئيون، فقد تمكنت بحكم موقعها من التحكم في نقل السلع الآتية من الهند وافريقيا الشرقية إلى الشمال، وذلك بالإضافة إلى تصدير ما تنتجه بلاد الجنوب العربي من محاصيل إلى الشمال، ومثلت هذه التجارة والطرق التجارية مصدر ثروة اليمن.(١)

وإعتمد اليوس جالوس في حملته على مساعدة الانباط له، إلا أن الحملة فشلت فشلاً ذريعاً، ولم تحقق أغراضها، إذ تعرضت للأمراض والاوبئة والجوع والعطش ووعورة الطريق، ولقد وصف سترابو الذي يبدو أنه قد رافق الحملة، ما تعرضت له الحملة وصفاً دقيقاً، إلا انه ألقى بتبعه فشل الحملة على كاهل الوزير النبطي «صالح» الذي رافق الحملة وعمل دليلاً لها.

---

(١) Pliny, 11, 415

CF. O'Leary, op. cit., PP. 74 - 75.

جواد على. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ٤٣ ـ ٤٤ أحمد فخري. المرجع السابق. صفحة ١٤١.

وكان لفشل الحملة اثره في عزوف الرومان عن السيطرة على بلاد العرب بطريق القوة، واقتصروا على محاولة السيطرة على التجارة البرية، وتدعيم مصالحهم التجارية عن طريق تحسين علاقاتهم السياسية بالدول العربية والامارات في الجنوب العربي[1].

دولة سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت:

يبدأ هذا العهد من حوالي عام ٣٠٠ ويستمر حتى عام ٥٢٥ م ويشير اتخاذ الملوك لهذا الإسم على أن دولة سبأ وذي ريدان أصبحت تضم إليها حضرموت وكذلك يمنت، وهي في رأي غالبية العلماء تشمل المنطقة الجنوبية الغربية من بلاد العرب، من باب المندب وحتى حضرموت.

وأول ملوك هذه الدولة هو «شمر يهرعش» ولقد نسب إليه القيام بالكثير من الفتوحات في العديد من البلدان، حتى قيل إنه وصل حتى الصين وأخضع فارس وخراسان والشام ومصر، ومن الواضح إن في ذلك نوعاً من المبالغة، إذ لا تثبت الادلة النصية والاثرية في منطقة الشرق الادنى القديم حدوث مثل هذا العمل، ولكن يبدو إن هذه المبالغة ترجع إلى قيامه بالعديد من الفتوح في جنوب بلاد العرب، مما دعا الاخباريين العرب إلى المبالغة في أمر فتوحاته.

وبعد وفاته تمكن الاحباش من احتلال اليمن في سنة ٣٤٠ م، واخذ نجاش الحبشة لقب «ملك أكسوم وحمير وذو ريدان والحبشة وسبأ وصلح وتهامة والبجاء وكسو»، وربما كان الاحتلال الحبشي لليمن راجعاً في المقام الأول للعوامل الإقتصادية، وذلك لحماية التجارة الحبشية كرد فعل للغزو الذي قام به ملوك حمير للسواحل الشرقية للحبشة[2].

---

(١) Strabo, xvi, 23 - 24.

O'Leary, op. cit., p. 75

قارن: فؤاد حسين. المرجع السابق. صفحات ٣٠٠ ـ ٣٠١.

(٢) وهب بن منبه، المرجع السابق. صفحة ٢٢٢؛ ياقوت الحموي.

ونظراً لحدوث بعض الثورات في المناطق الافريقية لملك الحبشة وانشغال الاحباش بالقضاء على هذه الثورات، فلقد انتهز اليمنيون الفرصة وطردوا الاحباش من اليمن وذلك فيما بين عامي ٣٧٠، ٣٧٨ م.

وكان لاعتناق آخر ملوك سبأ «ذو نواس» الدين اليهودي ومحاولته فرضه بالقوة على شعبه، واضطهاده للمسيحيين، أثره في تشجيع الأثيوبيين على غزو اليمن واحتلالها عام ٥٢٥ م وذلك بتشجيع من الدولة البيزنطية.

وأدت هذه الاحوال المضطربة إلى توقف التجارة العالمية التي اشتهر بها عرب الجنوب وكان مصدر ثرائهم وازدهارهم ورخائهم، ويضاف إلى ذلك تصدع سد مأرب مما أدى إلى ضعف هذه المنطقة ضعفاً شديداً، وفي عام ٥٧٥ م تمكن الفرس من إحتلال اليمن، وظل اليمن خاضعاً لهم حتى ظهور الفتوحات الإسلامية الكبرى في القرن السابع الميلادي التي أنهت دولتهم[١].

= المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحة٢٤٧؛ سعد زغلول عبد الحميد. المرجع السابق. صفحة ١٩٦.

(١) جواد على. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ٤٥٩ ـ ٤٦٠.

خامساً: دولة الأنباط

تعد دولة الأنباط التي قامت على الأطراف الخارجية لمنطقة فلسطين في حوالي القرن السادس قبل الميلاد من أهم الدويلات التي قامت على طول حدود الصحراء من ساحل البحر الأحمر إلى أطراف سوريا وفلسطين والعراق، وقد اتخذت من البتراء عاصمة لها[1].

وقد بلغت دولة الأنباط أقصى اتساعها الجغرافي أيام ملكها «حارثة الرابع» في أواخر القرن الأول قبل الميلاد والنصف الأول من القرن الأول الميلادي، إذ ضمت منطقة واسعة إلى جنوب البتراء بلغت حتى حدود العلا، وكان وجودها واضحاً في منطقة النقب، ومن الشمال وصلت أقصاها بضم دمشق، وهذا الاتساع في معظمه سياسي وتجاري. فمن الناحية السياسية كان التوسع ناحية الشمال أسهل لأنهم لم يجدوا مقاومة تصدهم عنها، ومن الناحية التجارية كان يمثل المكان الذي تتجه إليه السلع الآتية من الجنوب، فهو الاتجاه الطبيعي الذي لا بد من تأمينه، وربما يكون ذلك السبب وراء عدم اتجاههم في بداية تاريخهم للسيطرة على المناطق الجنوبية، لأن الامتداد نحو الجنوب لم يكن يمثل أهمية لهم في هذه المرحلة أو ربما كان راجعاً إلى وجود قبائل قوية رأوا من مصلحتهم حينئذ أن لا يستثيروا عداوتها. وتعويضاً عن ذلك قاموا بتوسيع رقعتهم في المنطقة الساحلية عند العقبة، أما

---

(١) سبتينو موسكاتي. المرجع السابق. صفحة ٢٠١.
فيليب حتى. المرجع السابق. صفحة ٤٢٦.

الامتداد جنوباً فلم يتجاوز الحوراء على الساحل وتيماء والحجر في الداخل.

وبعد تأمينهم للمنطقة الساحلية استولوا على المنطقة المعروفة اليوم باسم شرق الأردن حتى بلغوا مادبا إلى الشمال، وإن كانوا قد اتجهوا إلى ما وراءها بعد ذلك. وحين اتسعت تجارة القوافل النبطية كان من الضروري لهم تأمين الطرق التجارية التي تذهب من البتراء مخترقة النقب إلى غزة أو العريش. ومن ثم عملوا على الاستيلاء على النقب كله لتأمين طرقهم التجارية من ناحية واستغلاله في الزراعة من ناحية أخرى.

وعلى ذلك فإن المناطق التي شملها الامتداد النبطي كانت ثلاث مناطق رئيسية أنشأوا لهم فيها مراكز ومواقع استيطانية تعد بالمئات، وهذه المناطق هي:

١ ـ منطقة النقب وكانت أهم مراكزهم فيها عبده وكرنب ونصتان وخلصه.

٢ ـ منطقة جنوبي سوريا وكانت أهم المراكز فيها ـ بالاضافة إلى بصرى ـ هي سيعاء والسويداء.

٣ ـ المنطقة الواقعة شرقي نهر الأردن وتمتد جنوباً لتشمل جانباً من شمال الحجاز، وبالاضافة إلى البتراء أهم مركز نبطي في هذه المنطقة فإنها تحتوي على أكبر نسبة من المراكز النبطية ومنها موقع ذبيان ووادي روم وهو يقع عند نهاية شرق الأردن وبداية الجزيرة العربية، ومن أهم المنشآت النبطية في هذه المنطقة معبد لا يزال في حالة جيدة نسبياً[1].

وفيما يتصل بالتسمية، فهناك من الباحثين من يربط بين كلمة «نبط» ولفظة: «نبايوت» التي وردت في العهد القديم كاسم للابن البكر لاسماعيل، ومن الباحثين من قرنها بلفظة «النبياتيين» و«النبيتي» التي وردت في نصوص

(١) فيليب حتى. المرجع السابق. صفحة ٤٢٢ جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث صفحة ١٥.

الملك العراقي تجلات بلاسر الثالث، ثم في نصوص أسرحدون، ومن بعد ذلك في نصوص الملك أشوربانيبال[1].

وفيما يتصل بالمصادر التي نعتمد عليها في دراسة التطور السياسي والحضاري لدولة الأنباط، فمن أهمها المصادر الأثرية وكتابات المؤرخين والرحالة اليونان والرومان، وما سجله المؤرخ اليهودي «يوسفوس فلافيوس ٣٧ ـ ١ م»، وسنتناول هذه المصادر بشيء من التفصيل فيما يلي:

أولاً المصادر الأثرية:

بدأت الجهود الأثرية الجادة تأخذ طريقها في المواقع النبطية من عام ١٩٢٩، حينما قامت بعثة برئاسة جورج هورسفيلد بالعمل في موقع البتراء، وتتابعت بعد ذلك البعثات، فتمكن البرايت من الكشف عن «معلاة كونواي» عام ١٩٣٤ وعن خزنة فرعون وقبر الجرة وقبرة الجندي الروماني عام ١٩٣٦. ومنذ عام ١٩٥٤ بدأت دائرة الآثار الأردنية بالقيام بأعمال حفظ وصيانة الآثار النبطية وكذلك عمليات الكشف المستمرة في هذه المواقع مما كان له الأثر الكبير في الكشف عن الكثير من الأدلة الأثرية التي أماطت اللثام عن تاريخ وحضارة الأنباط.

ومن أهم هذه المكتشفات الأثرية ما كشف عنه من نقوش استدل منها على نوع كتابتهم ولغتهم وأسماء الأعلام الشائعة بينهم، وأسماء الآلهة التي عبدوها، وأسماء عدد من ملوكهم وملكاتهم، وبعض شعائرهم الدينية وغير ذلك من الأمور.

ويمكن أن نميز في نفوشهم النماذج التالية:

١ ـ نقوش تذكارية قصيرة كالتي وجدت في البتراء والحجر وسيناء.

٢ ـ نقوش مدونة على نصب المقابر.

---

(١) سفر التكوين: ٢٥، ٣.
جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحة ١٦.

٣ ـ نقوش معمارية يذكر فيها اسم المبنى والذي قام بتشييده وتاريخ البناء، وفي بعض الأحيان كان لا يكتب اسم المبنى إذا كان بناء شهيراً.

٤ ـ نقوش وقفية يذكر فيها اسم واهب الوقف والشيء الموقوف واسم المعبود الذي قدم إليه الوقف.

٥ ـ نقوش تمثل توقيعات البنائين أو توقيعات تدل على الملكية.

٦ ـ نقوش تكريمية وهي نادرة عند الأنباط.

ومن الواضح أن هذه النقوش على كثرتها لا تتحدث عن أحداث تاريخية، ومن ثم تنحصر الاستفادة منها في معرفة أسماء الأعلام والآلهة والمباني، وعلى ذلك يستعين المؤرخ بالمصادر الأثرية الأخرى كالمسكوكات وبقايا المقابر والتماثيل والرسوم والمصنوعات المختلفة[1].

ثانياً: المصادر اليونانية والرومانية:

من أهم المؤرخين اليونان والرومان الذين كتبوا عن الأنباط نذكر كلا من ديودور الصقلي واسترابو، ولقد اعتمد ديودور الصقلي فيما كتبه عن الأنباط على مصدر معاصر للأنباط في القرن الرابع قبل الميلاد وهو «هيرونيموس القارديائي Hieronymus of Cardia»، ويرجع الفضل لهذا المؤرخ في اماطة اللثام عن تاريخ الأنباط في هذه الفترة المبكرة.

وأما استرابو فقد اعتمد في كتابته عن الأنباط على بعض المصادر والتي من أهمها ما كتبه صديقين له أحدهما هو «أثنودور الطرسوسي Athenodorus of Tarsus» الفيلسوف الرواقي الذي ولد وعاش في البتراء وخبر حياة أهلها وعاداتهم ومعتقداتهم. أما الآخر فهو ايليوس جالوس الذي قاد حملة إلى اليمن أيام أوكتفيان ورافقه فيها استرابو[2].

ثالثاً: المصادر اليهودية:

أشار يوسفوس فلافيوس في كتابيه حروب اليهود، وآثار اليهود إلى

(١) A. Musil, Arabia Deserta, P. 471.

(٢) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحة ٥٠٣.

الكثير من المعلومات الخاصة بالأنباط وذلك من خلال علاقاتهم بالدولة المكابية سلماً كانت تلك العلاقة أم حرباً. وهو متعصب كثيراً للمكابيين، ولهذا فقد يكون حديثه عن الأنباط في لحظات صراعهم مع الدولة اليهودية مشمولاً بالهوى، وثمة جانب غير مأمون فيما يقصه من أخبار وأحداث، وذلك أنه ينصب من نفسه مفسراً للوقائع، فيحجب بتفسيره حقيقة الرواية التي قد تتحمل ـ لو رويت على وجهها ـ تفسيراً آخر أو تفسيرات أخرى، هذا إلى أنه كثيراً ما يقع في الخطأ والتضارب والتشويه، ويخلط الشائعة بالحقيقة التاريخية.

وقد اختلف المؤرخون في الموطن الأصلي للأنباط، فذهب فريق منهم إلى أنهم من أهل العراق، وأنهم قد هاجروا من العراق إلى (ادوم)، وذهب فريق آخر إلى أنهم عراقيون أتى بهم «نبوخذ نصر» في القرن السادس قبل الميلاد عندما اكتسح فلسطين، فأنزلهم «البتراء» ومجاوراتها، وذهب فريق ثالث إلى أنهم من جبل شمر في أواسط بلاد العرب، ثم سرعان ما نزحوا إلى العراق وظلوا بها، حتى دهمهم الأشوريون فأخرجوهم من هناك.

والثابت أن الأنباط الأوائل هم من سكان العراق، إذ ورد ذكرهم في آثار أشور منذ القرن السابع قبل الميلاد على أيام اشوريانيبال. وهذا يفسر كيف أن العرب عندما عرفوا الأنباط لأول مرة كان ذلك في بطائح العراق حيث يكثر الماء حتى قالوا: «وسمي نبط السواد نبطاً، لاستنباطهم المياه وسقيهم الأنهار». هذا وقد دخل الأنباط في نطاق العرب عن طريق اتخاذهم للثقافة الأرامية واصطناعهم لكتابة ولغة الأراميين، ويرجع ذلك إلى أنها كانت اللغة الشائعة في ذلك العصر، بل أنها أصبحت لغة المراسلات الدولية في الشرق الأدنى القديم منذ حوالي عام ٥٠٠ ق. م، كما أصبحت اللغة التي يستعملها سكان منطقة الهلال الخصيب ـ وكذا الأنباط ـ كما أنها سوف تصبح لغة المسيح وشعبه فيما بعد[١].

---

(١) المرجع السابق. صفحات ٤٩٦ وما بعدها.

فعندما بدأ الأنباط يعملون بالتجارة، ولم يعودوا نقلة لمتاجر غيرهم مقابل أجر معلوم اكتشفوا حاجتهم الماسة إلى الكتابة، وكانت اللغة السائدة في كل أنواع المعاملات والسفارات في بلاد الشرق الأدنى حينئذ هي الأرامية، فكتبوا بها، وظلوا يستعملون لغتهم العربية في حياتهم اليومية فيما بينهم. وقد كان اختيارهم للأرامية ضرورة حضارية ووسيلة عملية للتفاهم مع من حولهم ممن يستعملونها في مكاتباتهم، وظلت هي لغة الكتابة بعد أن سقطت دولتهم لمدة مائتي سنة.

ويتبين من أقدم الأخبار الواردة في كتابات المؤرخين اليونان والرومان أن النبط كانوا في بادىء أمرهم اعراباً ورعاة ماشية.

ومع ذلك فإنهم - فيما يبدو - لم يقنعوا بتربية الإبل والماشية ولم يقتصروا على حياة الرعي، بل كانوا قد تميزوا عن كثير من البدو، بالإقبال على حياة التجارة شراءاً وبيعاً، وعلى القيام بدور الوسطاء في دنيا البيع والشراء حتى عرفوا بالثراء[1].

أما أقدم ما وصلنا من أخبار عن الأنباط فهو ما ذكره (ديودور الصقلي) من أن «انتيجونوس» الذي خلف الاسكندر في سورية قد جرد حملة على النبط قوامها أربعة آلاف جندي من المشاة ليجبرهم على التحالف معه وتأييد مصالحه، وكان ذلك في عام ٣١٢ ق. م، وسار قائد هؤلاء الجنود وباغتهم عند الصخرة (أم البيارة) في منتصف الليل، فقتل من حاول المقاومة وأسر خلقاً منهم، وترك الجرحى، واستولى على ما وقعت عليه يده من البخور والتوابل والفضة، ثم أمر قواته بالإسراع بالرجوع، فلما قطعت مسافة، أضناها التعب، واضطرت إلى الإستراحة في معسكر اقامته، وفيما كان الجنود ينعمون بنومهم، هاجمهم النبط وأعملوا فيهم السيوف، فلم ينج من رجال الحملة إلا خمسون فارساً هربوا بسلام. وبعد هذا الإنتقام من جانب النبط عادوا إلى الصخرة ونظموا أمورهم، ثم كتبوا إلى الملك «انتيجونوس» كتاباً بالسريانية

---

(١) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحة ١٠.

يلومون فيه قائد الحملة التي بعثها الملك على ما فعل بهم، ويعتذرون فيه عما بدر منهم، وقد أجابهم الملك بأن ما حدث إنما كان بغير علم منه، وأن قائده قد تصرف برأيه، ثم يختم رسالته بإعلان صداقته لهم، بينما كان في واقع الأمر، إنما يعد لجولة جديدة قد يهيء لها من الأسباب ما يكفل لها النجاح. وهكذا ما أن يمضي وقت طويل حتى يرسل إليهم ولده «ديمتريوس» على رأس حملة قوامها أربعة آلاف من الفرسان ومثلهم من المشاة. ويبدو أن الأنباط إنما كانوا يتوقعون الخيانة من «انتيجونوس»، ومن ثم فقد كانوا في حيطة من أمرهم، فأمنوا أموالهم في مواقع حصينة لا تصل إليها أيدي الطغاة الطامعين، ثم تفرقوا في الصحراء، وهكذا ما أن وصل «ديمتريوس» إلى الصخرة (أم البيارة) حتى هاجمها بعنف وشراسة، إلا أن محاولته هذه لم يكتب لها نصيب من النجاح، ومن ثم فقد عاد بخفي حنين، قانعاً بما قدمه إليه الأنباط من هدايا(١).

ومن المعروف أن البطالمة قد طمعوا في دولة الأنباط بسبب موقعها كمحطة تجارية هامة، وبسبب خيراتها الوفيرة، ومن ثم فقد اهتموا بالسيطرة على البحر الأحمر من أجل تأمين تجارتهم في بونت والهند. فلقد كانت سفن الهند تفرغ بضائعها في بلاد اليمن ومن هناك كانت تنقل شمالاً بطريق البحر الأحمر أو بالطريق البري إلى أيلة ثم إلى بترا. وفي عهد بطلميوس الثاني (٢٨٣ ـ ٢٤٦ ق. م) ونتيجة لتحرش الأنباط بسفن البطالمة ومهاجمة سفنهم المتجهة إلى مصر وأخذ ما فيها ـ قام بانشاء قوة بحرية لحراسة السفن التجارية، وقد ألحقت هذه القوة خسائر فادحة باسطول النبط، وأدت سياسة بطلميوس الرامية إلى السيطرة على البحر الأحمر، وإعادة فتح القناة القديمة التي كانت تصل النيل بالبحر الأحمر إلى الحاق خسائر فادحة بالنسبة للأنباط الذين كانوا يحصلون على أرباح باهظة من تجارة القوافل التي كانت تمر

---

(١) المرجع السابق. صفحات ١٩ ـ ٢٠.
صالح العلي. محاضرات في تاريخ العرب. الجزء الأول. صفحة ٣٧.

ببلادهم، فأخذوا يشنون الغارة تلو الغارة على السفن الذاهبة أو الآتية من مصر[1].

وفيما يتصل بملوك الأنباط، فيختلف المؤرخون حول ترتيبهم، ويزيد من صعوبة هذا الأمر وجود العديد من الفجوات التي لا يوجد ما يملأها، ومن أهم هؤلاء الملوك:

الحارث الأول:

هو أول ملوك الأنباط، عرف اسمه، وهو اسم كثير الشيوع في أسماء الأعلام، ولما كان هو أول من عرف اسمه دعي «الأول» تمييزاً له عن كل من جاء بعده ممن اسمه «الحارث». ولكنه ليس من الضروري أن يكون أول ملك نبطي.

وكان الحارث الأول معاصراً لمؤسسي الأسرة المكابية (أسرة حاكمة يهودية)، فلقد ورد ذكره في سفر المكابيين الذي أطلق عليه «اريتاس» وذلك عندما حدث نزاع بين اليهود عام ١٦٩ ق.م حول من يتولى الكهانة العليا، وفر أحد المتنازعين إلى الحارثة. ولكنه طرده ربما لوجود اتفاق ما بين الحارث والأسرة المكابية.

ولم يصلنا أي شيء آخر بخصوص الحارث الأول، وإن كان هناك من الباحثين من يرى أن النقش الذي عثر عليه في الخلصه يخصه، وقد جاء في هذا النفش «هذا هو الموضع الذي أقامه عبد نثيرو لحياة حارثة ملك النبط (نبطو)». ويتجه أصحاب هذا الرأي أن هذا النقش لا يتجاوز في تاريخه عام ١٥٠ ق. م[2].

---

(١) M. Rostovtzeff, Social and Economic History of the Hellenistic world, vol. I, P. 387.

(٢) G. A. Cooke, Palmyra, p. 216.

سفر المكابيين (ثان): ٥، ٨.

جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحة ٢٢.

عبد العزيز سالم. المرجع السابق. صفحة ٢٣٠.

الحارث الثاني:

وجاء بعد الحارث الأول الملك زيدال وذلك في حوالي عام ١٤٦ ق.م، ثم تلاه على العرش الملك الحارث الثاني الذي حكم حوالي عام ١١٠ ق. م، ودام حكمه حتى حوالي عام ٩٦ ق. م، وقد نعته المؤرخ يوسفوس بلقب «ملك» مما يدل على أن هذا اللقب صار لقباً رسمياً لحكام النبط في ذلك العهد.

وفيما يتصل بالأحوال التاريخية خلال هذه المرحلة يذكر المؤرخ يوسفوس في كتابه «آثار اليهود» عن بداية تضارب المصالح بين الأسرة المكابية والأنباط، وكانت الدولة السلوقية حينئذ قد أخذت تدخل مرحلة ضعف وتقهقر مما أغرى ملك المكابيين بانتهاز الفرصة للتوسع وجعل هدفه مدينة غزة التي استغاث أهلها بالملك الحارث الثاني المجاور لهم، إلا أنه خيب آمالهم فلم يقدم يد العون لهم رغم وعده لهم بذلك مما مكن المكابيين من الاستيلاء على غزة، ولم يتركوها إلا لوجود حرب أهلية عندهم.

وأشار يوسفوس أيضاً إلى أن الملك الحارث الثاني قد انتهز فرصة ضعف الأوضاع في مصر وبلاد الشام، فهاجم بجنوده بعض هذه الأراضي، وغنم منها غنائم كثيرة، فكوّن بذلك لنفسه وللعرب صيتاً بعيداً.

وفي زمن الحارث الثاني، صدرت نقود نبطية، ولعله أول ملك نبطي يفعل ذلك، إذ لم تصلنا نقود لملك قبله. وتحمل النقود المنسوبة إليه حرف «A» وهو الحرف الأول من اسمه «Arethas»، وقد وجدت حديثاً كمية غير قليلة من العملة البرونزية وفيها نماذج تحمل حرف (ح) بالآرامية إشارة إلى حارثة.

ولقد انتهى حكم الحارث الثاني عام ٩٥ ق. م، وخلفه على العرش النبطي ابنه عبادة الأول[1].

---

(١) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ٢٥ ـ ٢٦.
فيليب حتى. المرجع السابق. صفحة ٤١٩.

عبادة الأول:

ورد نقش سجله رجل يدعى أصلح بن أصلح من أهل البتراء على غرفة للعبادة في الصخر في الممر الضيق المؤدي إلى البتراء وجاء فيه: «هذه هي القاعة التي أقامها أصلح بن أصلح لذي الشرى إله منبتو لحياة عبادة ملك النبط في أول سنة من سني حكمه». وقد أرخ هذا النقش بعام ٩٥ ق. م. في إشارة أكيدة لتاريخ اعتلائه العرش.

ولقد استمر في عهده النزاع بين الأنباط والمكابيين في عهد ملكهم اسمكندر جينوس، لأن اطماع جينوس التوسعية امتدت إلى جلعاد وموآب، واستطاع التغلب على عرب هاتين المنطقتين، ولذلك تصدى له عبادة في معركة عند جدارة (أم قيس) إلى الشرق من بحيرة طبرية، وإضطرته «هجانة» الأنباط على الوقوع في واد عميق، وكاد يفقد حياته. واضطر جينوس إلى التخلي عن طموحه والتفرغ لضغوط أخرى بزغت في مكان آخر، فرد إلى ملك العرب ما كان استولى عليه من موآب وجلعاد وما فيهما من معاقل في مقابل أن يمتنع عبادة عن مساعدة خصومه(١).

رب إيل الأول:

هو ابن الحارث الثاني وأخو عبادة الأول، حكم في الفترة من ٨٨ ـ ٨٧ ق. م، لم يذكره يوسفوس بالاسم، ولذلك اضطربت المصادر بشأنه، ونسبت الأحداث التي تمت في عهده إلى عهد أخيه عبادة، غير أن المؤرخ أسطفانس البيزنطي ذكره لدى حديثه عن الحملة الثانية التي قام بها انطويوخوس الثانى عشر ضد العرب، وكانت هذه المعركة في أواخر عام ٨٨ ق. م، أو أوائل التي بعدها. وقد أحرز الأنباط في هذه المعركة نصراً مؤزراً، وقتل انطويوخوس وفر جيشه وهلك معظمه جوعاً(٢).

---

(١) المرجع السابق. نفس الموضع.

(٢) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحة ٥٠٩ هامش ٣.

الحارث الثالث:

هو ابن حارثة الثاني أيضاً وأخو عبادة الأول إيل الأول، وهـو يعد من أشهر الملوك المتقدمين من النبط. ويرى بعض الباحثين أنه حكم من عام ٨٧ حتى عـام ٦٢ ق. م، وقد قـطف ثمار الانتصـار الـذي حققـه سلفـه ضـد انطيوخس، إذ خـلا جواره المبـاشر من تـدخل السلوقيين مؤقتـاً واستطاع أن يمضي قدماً في السياسة النبطية التوسعية. وقد اقترن عهده بفتوحات واسعة بدأت باستيلائه على دمشق، وعلى سهل البقاع، في حوالي عام ٨٥ ق. م، وذلك بناء على دعـوة تلقاهـا من سكان المـدينة العـريقة ـ وكـانت عاصمـة السلوقيين وقتذاك ـ لإنقاذهم من هجوم «الأيتوريين» الذين كانوا يطمعون في الإستيـلاء عليها، وأدخلهـا في جملة أملاكـه، ولقبه أهلهـا (محب اليـونـان وحاميهم) لأنه أنقذهم من غزو الاعراب لهم.

وهكذا أصبح (للحـارث الثالث) مملكـة واسعة الأطـراف، عمل على تدعيمها ببناء جيش قوي، فبعد أن كان جيش النبط في بـادىء الأمر مجـرد جماعات غـزو غير منـظمة تهـاجم عدوهـا وتباغتـه على طريقـة الأعراب ثم تتراجع، حاول الحارث إدخال الكثير من الإصطلاحات عليه، واستعان بعدد كبير من اليونان في تدريب جيشه، وتكوين وحدات نظامية مدربة، استعان بها في تقوية مركزه حتى صار من أقوى ملوك النبط الذين حكموا حتى أيامه ومن ثم فقد بدأ الحارث يتدخـل في شئون مملكـة يهوذا المتـداعية، فغـزا أرض يهوذا، وفي معركة واحدة وقعت عند موضـع (أويدا) انهـار الجيش اليهودي وتشتت شمله ولم يبق أمام ملكهم إلا طلب الصلح، وعاد النبط منتصرين إلى ديارهم. كذلك عمل (الحارث الثالث) على مجابهة الرومان ولكنهم تغلبـوا عليه، ويرجع ذلك إلى حيازة الرومان لجيوش منظمة مدربة.[١].

ودعت الظروف السياسية الحارث مرة أخرى للتدخل في شئون مملكة

---

(١) فيليب حتى. المرجع السابق. صفحات. ٢٧ ـ ٢٧١.

يهوذا، ابان الخلاف الذي دب بين ولدي «اسكندر جينوس» (ارسطوبولس وهركانوس)، وانقسام اليهود إلى فريقين، الصدقيون ويؤيدون «أرسطوبولس» والفريسيون ويؤيدون «هركانوس» الذي فر إلى البتراء، لعله يجد الحمى عند الحارث، فضلاً عن اعادة التاج إليه وتثبيت ملكه، على أن يعيد للحارث في مقابل ذلك، المدن الأثني عشر التي كان قد أخذها أبوه من العرب، ويقبل الحارث آملاً في أن يوسع أملاكه على حساب يهوذا، إن لم يقدر له أن يوجه إليها الضربة القاضية. وهكذا يوجه الحارث جيشاً قوامه خمسون ألف رجل لمهاجمة «ارسطوبولس» الذي سرعان ما يفر إلى القدس بعد هزيمة منكرة، فيتابعه الحارث إلى المدينة المقدسة، ويكاد يستولي عليها، لولا قيام الرومان بالهجوم على دمشق، ثم ارسال حملة عسكرية إلى القدس نفسها للتدخل في النزاع القائم بها وقتذاك، ولمنع الأنباط من الاستيلاء عليها. وأدرك الحارث أن جيشه لا يستطيع الوقوف أمام جيوش الرومان المدربة، المنظمة والمسلحة تسليحاً جيداً حديثاً بالنسبة إلى أسلحة النبط، ففك الحصار وتراجع، إلا أن «ارسطوبولس» الذي نجح في اكتساب ثقة قائد الحملة الرومانية سرعان ما تعقب الأنباط وهم في طريق عودتهم، فانتصر على الحارث وقتل ستة آلاف من أتباعه.

وتعقدت الأمور مرة ثانية بين الرومان والأنباط، فهدد الرومان النبط بالزحف عليهم وتخريب بلادهم، ووجد الحارث أنه من المستحيل عليه الثبات أمامهم، وتم عقد الصلح بين الطرفين على أن يدفع الحارث جزية للرومان. واعتبر «بومبي» حاكم الرومان أن ذلك إنما هو خضوع من الأنباط للرومان، ومن ثم فقد وضع صورة الحارث في موكب نصره، كما أمر القائد الروماني أن تضرب النقود وعليها صورة الحراث راكعاً على ركبتيه إلى جانب جمل وهو يقدم غصناً في خضوع إلى القائد الروماني، تعبيراً عن استسلامه. أما الأنباط فلعلهم وجدوا أن دفع بعض الأموال لا يخدش وجه سيادتهم واستقلالهم الذاتي، خصوصاً وأن استيلاء الرومان على كل سورية قد وضح لهم مدى قدرتهم على المبادرة بالتحدي. وكانت هذه الأحداث هي خاتمة

حياة الحارث الثالث الذي وافته المنية في عام ٦٢ ق.م.[١]

الملك عبادة الثاني:

وحكم بعد(الحارث الثالث) ابنه الملك (عبادة الثاني) الذي حكم في الفترة ٦٢ ـ ٤٧ ق. م على رأي، وفي الفترة من ٦٢ ـ ٦٠ ق. م على رأي آخر. ولدينا من عهده نقد من الفضة ضرب بأمره في السنة الثانية أو الثالثة من حكمه وهو من فئة الـ (دراخما) وقد صور عليه وجه الملك حليقاً، وشعر رأسه قصيراً[٢].

مالك الأول:

حكم الملك (مالك الأول) بعد (عبادة الثاني) وفي عهده شارك النبط يوليوس قيصر في حصاره لمدينة الاسكندرية عام ٤٧ ق. م، فأمدوه بقوة من جيوشهم. ثم حدث بعد ذلك أن تدهورت العلاقات بين الرومان والنبط، وربما يرجع ذلك إلى امتناع الأنباط عن دفع الجزية للرومان، أو لأن النبط قد وقفوا إلى جانب الفرس عندما أرادوا الاستيلاء على فلسطين. وأيا كان السبب فإن الروم وبعد انتصارهم على الفرس، بدأوا يتجهون نحو النبط وأجبروهم على دفع جزية كبيرة، ثم زاد الموقف تعقيداً عندما منح (مارك أنطونيو) وهو الذي عهد إليه الرومان بتولي أمور الشرق)، جزءاً كبيراً من فينيقيا وسوريا، فضلاً عن بلاد الأنباط، إلى «كليوباترا» صاحبة الحق في جزية الرومان من الأنباط، غير أن النبط قد امتنعوا عن دفع الجزية لملكة مصر، ومن ثم فقد طلبت كليوباترا من مارك انطونيوا الإسراع في تأديب الأنباط. وفي نفس الوقت دفعت كليوباترا بملك اليهود (هيرودوس) لمحاربة الأنباط، وكانت تهدف من وراء ذلك اضعاف مركز كل من ملك اليهود والأنباط حتى تتمكن

---

(١) Josephus, The Jewish War, 302.
C A H., IX, P. 400.
جواد علي. المرجع السابق. صفحات ٣٠ ـ ٣١.

(٢) جورجي زيدان. المرجع السابق. صفحة ٨٨.

منهما، وتصبح سيدة بلاد العرب. وبادر هيرودوس بمحاربة النبط، فالتقى بهم عند (اللد) وانتصر عليهم، ثم التحم بهم في (قنا) في البقاع، وكاد يتغلب عليهم، إلا أن موازين النصر سرعان ما تغيرت إلى جانب النبط، فقتلوا عدداً كبيراً منهم وأسروا آخرين، وفر «هيرودوس» إلى القدس(١).

وفي القدس أخذ (هيرودوس) يحرض قومه على الإنتقام من العرب. والأخذ بالثأر، ولا سيما أن الأنباط أخذوا في الهجوم على مدنه، فنشبت سلسلة من الحروب بين الطرفين، كلفت كل منهما خسائر كبيرة.

ويزعم المؤرخ (يوسفوس) أن النصر كان في الخاتمة في جانب اليهود، واضطر النبط بعد ذلك إلى دفع الجزية إلى (هيرودوس) وعقدوا صلحاً معه، ولم يخالفه الأنباط بعد ذلك. وليس هناك شك في أن قوة هيرودوس لم تكن هي في الحقيقة التي جعلت الأنباط يقبلون بمصالحة اليهود أو دفع الجزية لهم، إنما كانت قوة الرومان وراء تلك الإنتصارات التي حققها هيرودوس نتيجة ما تقدمه له من مساعدات عسكرية فعالة(١).

عبادة الثالث:

يصفه كل من يوسفوس واسترابو بالكسل وتراخي الهمة، وبأنه لم يكن يعير الشؤون العامة، فضلاً عن الشؤون العسكرية أي اهتمام. وفي نفس الوقت فقد أسهبوا في مقارنته بوزيره الشاب النشط «صالح» أو «سيلوس» Syllaeus، وبذلك تضاءلت شخصية عبادة الثاني بجوار وزيره صالح، وتصدرت الأحداث شخصية الوزير صالح الذي كان يلقب في النقوش «أخا الملك» أي اليد اليمنى للملك.

وعلى الرغم من ضآلة الدور الذي ينسب إلى عبادة فهناك نقشاً يستشف منه أنه قد أله في عهد خليفته، وليس لهذا التأليه من سبب إلا إذا كان خليفته الذي قام بهذا العمل كان يهدف من وراء ذلك إلى جعل هذا التأليه سنّة

---

(١) فيليب حتي. المرجع السابق. صفحات ٣١١ ـ ٣١٢.

(٢) Josephus, op. cit., I. XVIII, 4.

متبعة، وبذلك يضفي في نفوس أهل المملكة هيبة جديدة لملك الأنباط ليكتسب لنفسه تلك المكانة بعد موته أيضاً، وقد يكون من أسباب ذلك أيضاً إضفاء نوع من التقديس والاحترام على شخص عبادة بسبب قوة وزيره صالح الذي كان أشبه بالوصي عليه.

ومن أهم الأحداث التي حدثت في عهد هذا الملك الحملة الرومانية على بلاد العرب الجنوبية عام ٢٥ ـ ٢٤ ق. م، وكانت تهدف إلى الإفادة من مصادر الثروة السبأية، ونظراً لمرور هذه الحملة في أراضي تحت سيطرة الأنباط أو موالية لهم، وأن دليل الحملة كان الوزير صالح، فقد ارتبطت هذه الحملة بالأنباط. وقد فشلت الحملة في تحقيق أهدافها فشلاً ذريعاً، وحاول استرابو أن يضع كل مسؤولية الفشل على عاتق الوزير صالح واتهمه بالمكر والخداع وأنه قد غرر بالجيش، إلا أنه قد بالغ كثيراً في إلقاء التهم على الوزير صالح في محاولاته المستميتة في تبرير فشل الحملة.

ومن الناحية الداخلية، فقد أصدر عبادة الثاني نوعين من النقد أولهما صدر في أوائل حكمه ويسمى النقد البطلمي، وقد صور على أحد وجهيه رأس عبادة وعلى الثاني رسم صقر، وثانيهما يسمى النقد اليوناني وقد صدر بين السنة العاشرة والعشرين من حكمه، وقد صور على أحد وجهيه رأس الملك وعلى الوجه الثاني صورة رأس الملك والملكة، وكتب على جميع النقود عبارة «عبادة الملك، ملك الأنباط»(١).

الحارث الرابع (٩ ق. م- ٤٠ م):

ورد اسمه في عدد من الكتابات النبطية، وقد حمل لقب «رحم عم» أي المحب لأمته، وقد قام هذا الملك بتزويد القائد الروماني (واروس) بقوة من المشاة والفرسان حن زحف على يهوذا، وقد فعل ذلك انتقاماً من اليهود وتقرباً إلى الرومان. ثم حدث بعد ذلك أن اصطدم النبط باليهود وذلك نتيجة قيام هيرودوس بطلاق ابنة الحارث الرابع، وكان قد تزوجها منذ حين،

---

(١) فيليب حتى. المرجع السابق. صفحة ٤٢٣.

وبسبب اختلافهما أيضاً على حدود المنطقة.

وانتهت الحروب بين الطرفين بانتصار الحارث على خصمه انتصاراً كبيراً في جلعاد وتشتيت شمل جيوشه، فاستنجد هيرودوس بسيده وحاميه قيصر الروم، الذي غضب وكتب إلى عامله في سورية يحثه على السير لمحاربة الحارث والقبض عليه حياً وارساله مكبلاً بالسلاسل إلى روما، أو يبعث برأسه إليه إن قتله. وبينما كان العامل يهم بالزحف على مملكة النبط جاءته الأخبار بوفاة القيصر فتوقف عن الحرب، وساء موقف هيرودوس ونحاه الرومان عن عرشه(١).

ويستدل من رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثة أن دمشق كانت تتبع الحارث ملك الأنباط، وقد كان بولس في دمشق حوالي عام ٤٠ م وهي آخر سنة في حكم حارثة. وفي ذلك يقول: «كان الحاكم بدمشق تحت أمرة ارتاس (الحارث) الملك»، ويدل ذلك على عودة دمشق إلى الدولة النبطية وربما كان ذلك حوالي عام ٣٧ م ابان الحرب التي استعر أوارها بين الحارث وهيرودوس، وربما بقيت تحت سيادة الأنباط في مقابل مبلغ يدفعونه للرومان.

ويتميز عهد الحارث الرابع بحركة عمرانية واسعة تركزت حول القسم الجنوبي من المملكة، فتحولت المنشأة النبطية في مدائن صالح (الحجر) إلى مدينة كبيرة، وظهر ذلك أيضاً في المقابر المنحوتة في الصخر والتي تضاهي في فخامتها المقابر المنحوتة في الصخور في البتراء نفسها، ويحمل أكثرها نقوشاً تشير إلى أنها قد شيدت في النصف الأول من القرن الأول الميلادي، ويحمل أقدمها نقشاً يشير إلى السنة الأولى بعد الميلاد. ومن الجدير بالملاحظة أن معظم هذه المقابر كان خاصاً بالضباط العسكريين من ذوي الرتب المختلفة، وربما يشير ذلك إلى أن هذه المنطقة (مدائن صالح)

---

(١) Josephus, Antiquities of the Jews, V. 18. 1.

جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ٤٣ ـ ٤٤.

قد جعلها الحارث منطقة عسكرية لحصانتها، وأن تكون كدرع أمان للدولة النبطية في المستقبل تحميها من أطماع الرومان.

ويضاف إلى ذلك، أن الأنباط كانوا قد خسروا كثيراً من توسعهم التجاري بعد أن أصبح البحر الأحمر مجالاً لنشاط السفن الرومانية، ومعنى ذلك أنهم لم يخسروا التجارة البحرية وحسب، بل تضاءلت حصتهم من التحارة البرية، وأخذ طريق البتراء - غزة تكاد تصبح مهجورة وعلى ذلك، فقد كان هذا الاتجاه نحو الجنوب كمحاولة لإنعاش الوضع التجاري وتعويض الخسائر. ودلت النقوش التي اكتشفت في الجوف عند الطرف الجنوبي لهذا الوادي على كثرة الرتب العسكرية، ويدل هذا أيضاً على أن الحارث كان يحاول تقوية هذه المنطقة ليتم لتجارته الوصول من خلالها إلى بصرى، دون حاجة إلى المرور بالمنطقة الواقعة شرق الأردن التي قد تفكر روما ذات يوم في ضمها إلى الولاية السورية.

ولعل التخوف من المنافسة الخارجية في النشاط التجاري هو الذي دفع الحارث إلى الاهتمام بالزراعة، ويتضح ذلك في زيادة حركة الإعمار في مدن النقب مثل عبدة وكرنب ونصتان. وكان الري هو العامل الرئيسي والضروري لهذا الإعمار، ولقد كشف عن بعض الآثار التي تشير إلى وجود نظام متقدم لحفظ مياه المطر وتسييرها إلى الأراضي الصالحة للزراعة، ولم يقتصر الإهتمام بالإعمار على المناطق الجنوبية، بل امتد كذلك إلى المناطق الشمالية، فرأينا آثاره في بصرى شمالاً وهي تسيطر على الطرق الداخلية من وادي سرحان، ابتداء من الجوف وباتجاه دمشق.

وحظيت البتراء بنصيب كبير من العمران في عهد الحارث، فقد شيد في عهده أكبر أثرين من آثار تلك المدينة وهو المسرح المحفور في الصخر، والمعبد القائم في وسط المدينة والذي يعرف اليوم باسم قصر البنت[1].

ولقد خلد الحارث أيام حكمه بتوالي الإصدارات النقدية، حتى لا تكاد

---

(١) فيليب حتى. المرجع السابق. صفحات ٤٢٨ - ٤٢٩.

سنة من سنوات حكمه تمضي دون اصدار نقد جديد، ولقد سجل على بعض القطع النقدية بعض الأحداث التي تمت في عهده ومنها تخليده للحركة المعمارية التي أجراها في مدائن صالح، ومنها كذلك اصداره في العام العشرين من حكمه نقداً تذكارياً لزواجه من شقيلة التي أصبحت ملكة بعد وفاة زوجة سابقة له. كما حملت بعض النقود أسماء بعض أبنائه وبناته. ويلاحظ أن معظم النقود التي أصدرها قد كتب عليها «الحارث ملك النبط، محب أمته».

ومن ناحية أخرى، فلقد عثر على العديد من النقوش التذكارية التي أقامها أفراد من الشعب النبطي لملكهم الحارث، وقد أرخت هذه النقوش بسنوات حكمه، وكتب فيها «محب أمته» ويشير انتشار هذه النقوش في أماكن متعددة حتى وصل بعضها إلى إيطاليا إلى اتساع الآفاق التي كان يؤمها الأنباط وعلى امتداد تأثيرهم التجاري والحضاري إلى مناطق بعيدة.

ومن هذه النقوش التذكارية نقشاً يتميز بقيمته التاريخية وقد عثر عليه في موقع مادبا وجاء فيه «هذا هو القبر ومعه الهرمان المبنيان فوقه الذي أقامه عبد عبودت من أجل اتايبل الستريج (حاكم المقاطعة) والده، ومن أجل أتايبل رئيس معسكري لحيطو وعبرتا في مقر حكمهما الذي شغله فترتين أن ستة وثلاثين عاماً في مجموعهما، في أيام الحارث ملك الأنباط، محب أمته». ولقد تم انشاء ذلك الضريح في السنة السادسة والأربعين من حكم الحارث أي عام ٣٧ م. ويلاحظ أن لحيطو هي لهيت التي ذكرت في سفر إشعيا، وأما عبرتا فتعني المخاضة أو المعبر ولعلها هي المخاضة الموجودة على نهر عرنون في الطريق إلى الكرك.

مالك الثاني (٤٠ ـ ٧٠ م):

هو ابن الحارث الرابع، ويلاحظ أن البقايا الأثرية والتاريخية المتبقية من عهده قليلة وإن كان مرجحاً أنه قد تابع سياسة أبيه في الإهتمام بإعمار المناطق الجنوبية من الدولة، ولقد توقف اصدار النقد في السنوات الست

الأخيرة من أيامه، وفي الوقت نفسه استأنفت دمشق اصدار نقدهـا مما دعى الباحثين إلى الإعتقاد بأن الأنباط قد فقدوا دمشق في عهده، ولقد جاء بعده على العرش النبطي ابنه رب إيل الثاني[1].

رب إيل الثاني (٧٠ -١٠١ م):

كان صغيراً حين تولى العرش ولهذا عينت أمه وصية عليه، وهي تظهر على النقـود التي أصدرت في سنوات حكمـه الأولى، وبعـد أن تـزوج أصبحت زوجته «جميلة» هي التي تصور على ما يصدره من نقود.

وكانت فترة حكم رب إيل قليلة الأحداث ولهـذا لم تثر انتبـاه مؤرخي الدولة الرومانية. وهناك مجموعة من المخربشات تشير إلى قيام ثورة في بداية حكمه، ومما يلفت النظر أن رب إيل كان يقضي أكثر وقته في بصرى وتلك كانت بداية غروب مجد البتراء السياسية وإن بقيت بمجدها التجاري.

ولقد اتخذ رب إيل لقباً لافتاً للنظر وقد ألحقه باسمه حيثما ذكر وهـو «واهب الحياة والخلاص لأمته»[2].

مالك الثالث (١٠١ - ١٠٦ م):

آخر ملك نعرفه من ملوك الأنباط هو مالك الثالث، وفي عهـده قضى تراجان قيصر الروم على استقلال مملكة الأنبـاط وجعلها تحت حكم حـاكم سوريا، وذلك في عام ١٠٦ م وأطلق عليها اسم (المقاطعة العربية) ونقل مقر الحكم مـن البتراء إلى بصرى، فتضاءل بذلك شأن العاصمة القديمة وصارت مجرد موضع قليل الشأن. وكانت بصـرى حتى ذلك الـوقت موقعاً غيـر ذي أهمية، فأمر الامبراطور تراجان بإعادة تأسيسها، ويشهد بذلك لقبها الرسمي

---

(١) N. Glueck, The Story of Nabatoeans, P. 542.
قارن: جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحة ٤٦.

(٢) جواد علي. المرجع السابق. صفحة ٤٨.
فيليب حتى. المرجع السابق. صفحة ٤٢٤.

المنقوش على عملتها وهو «بصرى الجديدة التراجانية». وحين أصبحت بصرى العاصمة بدأ بذلك تقويم جديد اسمه تقويم الولاية، وأصبحت بصرى قاعدة الفيلق الروماني الثالث ووضعت الحاميات الرومانية على طول الطرق الرئيسية التي تكون ما يسمى بالحد الغربي، وكانت الطريق الجديدة التي بناها تراجان تصل بين سوريا والبحر الأحمر(١).

النشاط الإقتصادي:

من أهم أوجه النشاط الإقتصادي عند الأنباط النشاط التجاري، وقد أوضحنا فيما سبق الجهود التي بذلها ملوك الأنباط في سبيل توسيع رقعة نشاطهم التجاري، ولقد كان النشاط التجاري من الأسباب التي أدت إلى بروز مظاهر كثيرة في الحياة النبطية وفي مقدمتها العناية بتربية الجمال وتوفير المؤونة بها والتزود بكل الأدوات التي تساعد على تجهيز البضائع وترتيبها وتصنيفها وبناء السفن والتدريب على ركوب البحر وتوفير. كل ما تطلبه الموانى من معدات، وتخصيص أماكن للتفريغ والتخزين. وأدى النشاط التجاري كذلك إلى حركة صناعية وتعدينية وزراعية ورعوية، فلم يكتف الأنباط باستقبال السلع الخارجية وتسويقها.

ومن المواد الهامة التي كانوا يتاجرون بها القار، وكانوا يستخرجونه من البحر الميت، وللقار فوائد متعددة منها استخدامه في تقوية المواد والأدوات، أو أن يتخذ كعنصر في التغرية، كما استخدمه المصريون في تلوين المعادن وكذلك في التحنيط.

وكانت التجارة الخارجية هي عماد ثروة الأنباط وكانت تعتمد على السلع القادمة من جنوب بلاد العرب، إذ كانت تلك السلع تباع بأثمان عالية وفي مقدمتها البخور الذي كان يمثل مادة ضرورية في حياة الناس وعبادتهم،

---

(١) N. Glueck, op. cit., p. 543.

فيليب حتى. المرجع السابق. صفحات ٣٢٣ - ٣٢٤.

كما كان هو والمر يستعملان في تركيب العقاقير، وكان المر وحده يستخدم في صناعة مواد التجميل والعطور وفي شؤون الدفن[١].

ولا ينازع هاتين السلعتين من السلع المحلية سوى البلسم والقار ولقد تحدثنا عن أهمية القار، أما البلسم فكان يستخدم في الأمور الطبية، ولقد أشار إليه ديودور فقال: «في أحد الوديان ينمو النبات المسمى بالبلسم وهو يعطي دخل كبير، إذ لا يوجد في أي مكان آخر من العالم المعمور، واستعماله كعقار مهم جداً لدى الأطباء». وبجانبهما يرجح كذلك أن صناعة الخزف كانت تدخل في نطاق التجارة الخارجية.

وقد مارس الأنباط النشاط الصناعي ومنه سك العملة من البرونز والفضة، كما صنعوا بعض التماثيل الصغيرة والحلى والأسلحة وكذلك الأواني المعدنية المستخدمة في الأدوات المنزلية، كما ظهرت صناعات أخرى مثل النسج وصناعة الأحذية والأدوات الموسيقية.

وقامت الزراعة بدور كبير في نشاط الأنباط الإقتصادي، وتدل السدود التي أقاموها والقنوات والمجاري التي شقوها وخزانات المياه التي شيدوها على اهتمامهم بالنشاط الزراعي. ويرجح أنهم مارسوا زراعة شتى أنواع الحبوب وأشجار الفواكه وبخاصة العنب، وتشير رسومهم إلى أهمية العنب والرمان كعنصر زخرفي. وهكذا بلغ الأنباط مستوى اقتصادي رفيع بالتضافر بين أنواع النشاط الإقتصادي المتعددة من تجارة وصناعة وزراعة[٢].

نظام الحكم:

أما عن تنظيم الدولة وكيفيتها عند النبط، فمن الواضح أن الملك كان بالطبع رئيس الدولة، وكان الحكم متوارثاً بداخل الأسرة الملكية، وحسب المعلومات المتاحة لنا حالياً فإن الحكم الملكي لم يخرج عن أسرة واحدة.

---

(١) جورجي زيدان. المرجع السابق. صفحات ٨٥ ـ ٨٩.
سعد زغلول عبد الحميد. المرجع السابق. صفحة ١٤١.

(٢) المرجع السابق. نفس الموضع.

وهناك ما يستشف منه أن الأسرة المالكة كانت حسنة التماسك، ولم تكتف بذلك بل أصبغت على ملكها صفة الألوهية لتبعد عنها كل مدعي طامع، وأحاطت الحاكم من تلك الأسرة بروابط الأخوة، وفي ذلك بالاضافة إلى معنى المشاركة في المشورة وبعض المسؤولية رغبة في اضفاء نوع من وحدة الحكم، فزوجة الملك أخت له وصورتها تظهر مع صورته على النقود، ووزير الملك أخ له وكليهما بهذه الأخوة يشاركه المسؤولية أو جانباً منها، ولم تكن هذه أخوة بالدم ولكنها اشارة إلى عمق المشاركة.

ويبدو مرجحاً أن الوزير كان مسؤولاً عن السفارات في الخارج، واجراء المفاوضات وعقد الاتفاقيات وما شابه ذلك.

وكانت البلاد مقسمة إلى ولايات لكل ولاية حاكم يسمى في النقوش سترتج، وتدرجت الوظائف الإدارية في الدولة سواء كانت سياسية أو دينية أو قضائية(١).

الحياة الإجتماعية:

كانت العائلة هي الوحدة المهمة في المجتمع النبطي، وكانت شديدة التماسك وتقوم على روابط قوية بين أفرادها والتزاوج فيما بينهم، ويرى الباحثون أن المرأة النبطية كانت تتمتع بمنزلة مرموقة في المجتمع، وأنها كانت تعامل باحترام وأنها كانت مصونة الحقوق، ويستدلون على ذلك بمكانة ربة الخصب السامية بين الأرباب، وأنها كانت تتفوق على قرينها زيوس، وكذلك بوجود صورة الملكة إلى جانب صورة الملك على العملة النبطية ومعها لقبها، كما كان للمرأة النبطية الحق في الوراثة والتملك والتصرف في أملاكها.

الفكر الديني:

كان لإنتقال الأنباط من حياة بدوية أو شبه بدوية إلى حياة مستقرة

---

(١) أحمد سليم. المرجع السابق. صفحات ١٦٩ وما بعدها.

العامل الأول في تطور فكرهم الديني، فقد كان الإستقرار يعني خلق أوضاع جديدة لا بد أن تؤثر في كثير من المفاهيم الدينية التي صاحبت حياة البداوة. إذ كان أول ما يعنيه الإستقرار ظهور الحاجة إلى وجود معبد بما يتضمنه من تطور معماري، كما أثرت الحياة الزراعية المستقرة على تطور فكرهم الديني كذلك.

ومن النواحي المؤثرة في هذا التطور اتصال الأنباط بالحضارات الأخرى المجاورة لهم أو التي كانت لهم بها صلات سياسية أو تجارية.

ومن المرجح أن الأنباط قد حملوا معهم من مواطنهم الأولى أرباباً معينة هي اللات والعزى ومناة وذو الشرى وهذه المعبودات تتناسب وعيشة البداوة.

وكانت اللات وهي تمثل في الأرجح الشمس، وهي عندهم أما للأرباب، وقد أقيمت لها معابد كثيرة في المواقع النبطية، ولكن يلاحظ أن اسمها قليل الورود في نقوش البتراء حيث كانت ربة بصرى وصلخد حيث كان عبادها المخلصون من بني روحو.

ولا تحتل العزى ومناة دوراً بارزاً بين الأرباب النبطية وخاصة بالنسبة لذي الشرى الرب الأكبر الذي حمل طبيعة بعض الألهة السامية في دور مبكر فأصبح يناظر كل من بعل وهدد، ثم أصبح فيما بعد صنوا لزيوس، وكان في البدء يعبد على شكل حجر مربع أو مستطيل، وكانت مكانته كبيرة في البتراء، ونظراً لكونه إلهاً شمسياً فقد كانت أنصابه ورموزه موجهة نحو المشرق.

وكان تقديم القرابين من أهم الشعائر لدى الأنباط مثلهم في ذلك مثل الشعوب السامية، وكان ذلك بالضحايا الحيوانية التي يسفح دمها على مذبح أو على رأس النصب، وليس لدى الأنباط ما يشير إلى وجود التضحية البشرية. وتجدر الإشارة إن القرابين المقدمة في المعابد لم تكن تحرق كلها بل كان معظمها يأكله موظفي المعبد والعباد في غرفة خاصة بالولائم المقدمة حيث يجتمع الكهان والحجاج إلى المعبد في المواسم والأعياد الدينية حيث

يجلسون في هذه الغرف ويأكلون هذه الوجبة التي يطلق عليها «الوجبة التعبدية» وكانت لها أهميتها في العبادات لدى الأنباط، لأنها تعني المشاركة بين الأله وعباده.

وقد تم الكشف عن معابد نبطية أهمها معبد خربة التنور ومعبد وادي رم ومعبد ذيبان، وتشترك جميع المعابد في عناصر رئيسية هي المذبح ووجود تماثيل للأرباب وأنها تتجه نحو الشرق.

وكان هناك جهاز ديني يقوم بالاشراف على العبادة في المعابد وتنظيم الأعياد المرتبطة بالفصول وإعداد الجنائز وطقوس الدفن، وكان على رأس هذا الجهاز الكاهن الأكبر[1].

الفن النبطي

تميز الفن المعماري النبطي بقدرته على التأثر بالفنون المعمارية للحضارات المجاورة له، ففيه المظاهر المصرية والإيرانية واليونانية، ولكن في صورته العامة يأخذ الطابع النبطي، ويتجلى بشكل واضح في القبور المحفورة في الصخر وفي المعابد.

وفيما يتصل بالمقابر فكان الصانع يبدأ بنحتها في أعلى الهضبة فيجعل سطحها أملس ثم ينحت الواجهة ثم يتم العمل في الأجزاء الداخلية لها، وكانت الأعمدة في الغالب عارية من الزخرفة في تيجانها، وإن كانت في بعض الأحيان تزين برؤوس بشرية، وكانت الرموز المصاحبة لهذه الأضرحة تكاد لا تتغير فهي الصقر والقناع الآدمي، أما في داخل غرفة الدفن فتكاد تكون الزخرفة معدومة.

ويختلف الفن المعماري في المعابد عنه في القبور من حيث أن المعابد لا تنحت أحياناً في الصخر بل تبنى بالحجارة.

---

(١) المرجع السابق. نفس الموضع.
سعد زغلول عبد الحميد. المرجع السابق. صفحة ١٤٩.

وفيما يتصل بالعمارة المدنية فمن أهمها المعبد الرئيسي في البتراء وقد تمثلت فيه قدرة المعماري النبطي على اتقان النحت والبناء بالحجر.

وبرع الفنان النبطي في نحت التماثيل ومنها التماثيل الآدمية الصغيرة المفردة والتماثيل الآدمية النصفية وتماثيل الحيوانات كالجمال والقرود وغيرها.

وبالاضافة إلى صناعة التماثيل فقد وجدت العديد من الرسوم سواء كانت رسوم جدارية أو رسوم على الخزف[1].

---

(١) المرجع السابق. نفس الموضع.

سادساً: تدمر

تقع مدينة تدمر على مبعدة ١٠٠ كيلو متراً من حمص، ١٥٠ كيلو متراً إلى الشمال الشرقي من دمشق، في منتصف المسافة تقريباً بين دمشق والفرات، ومن ثم فقد كانت موقعاً هاماً على الطريق التجاري بين العراق والشام، بل كانت نقطة التقاء التجارة القادمة من أسواق العراق، وما يتصل بها من أسواق في إيران والهند والخليج والعربية الشرقية، وبين تلك التي على البحر المتوسط، وبخاصة في الشام ومصر، فضلاً عن اتصالها بالعربية الغربية وبأسواقها الغنية بأموال افريقية، والعربية الجنوبية والهند. وهكذا اصبحت (تدمر) ملتقى جميع القوافل، وبخاصة فيما بين القرن الأول قبل الميلاد، وعام ٢٧٣ م، ومن ثم فقد وجد في نقوشها عبارة (زعيم القافلة) و (زعيم السوق) باعتبار أن المشار إليه من زعماء المواطنين[١].

والإسم اليوناني للمدينة هو (بالميرا Palmyra) وهو مشتق من لفظة Palma اللاتينية ومعناها (نخل)، ويرى بعض الباحثين أن الإسكندر الأكبر لما تغلب عليها أطلق عليها Palmyra أي مدينة النخل، وذلك لما يكتنفها من غابات النخل العظيمة، فعرفت عند اليونان واللاتين منذ ذلك الحين بهذا الأسم. بينما ذهب فريق آخر إلى أن Palmyra هي ترجمة لكلمة (تمار) (تامار) (تمر) Tamar العبرانية ومعناها (نخلة)، وهي في الأصل اسم موضع في الجنوب الشرقي من يهوذا ورد ذكره في(سفر حزقيال). ويرى علماء

---

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحة ٥٣٣.

التوراة إنه الموضع الذي بناه سليمان والمذكور في (أخبار الأيام الأول)، ويرى البعض أن الرأي السابق خاطئاً، لأن اسم المدينة يرجع ظهوره للمرة الأولى إلى أيام الملك الأشوري «تجلات بلاسر» الأول (١١١٦ ـ ١٠٩٠ ق. م) أي قبل مولد سليمان نفسه، وبفترة تسبق ما دون في التوراة بشأنها، بأكثر من سبعة قرون. وربما تكون الشهرة التي اكتسبتها مدينة تدمر في أيام كتبة أسفار (أخبار الأيام) هي التي حملتهم على إضافتها إلى أعمال سليمان كدليل على شهرته ومدى بلوغ ملكه في أيامه[١].

وذهب المؤرخ اليهودي (يوسفوس فلافيوس) إلى أن النبي سليمان قد شيد مدينة تدمر. ويعد المؤرخ (بلينوس) أول كاتب كلا سيكي تعرض لمدينة تدمر، فذكر أنها مدينة شهيرة ولها موقع ممتاز، وأرضها خصبة وبها ينابيع وعيون، وقد عزلتها الطبيعة عن العالم ببادية واسعة الأطراف.

وأهم المصادر التي يعتمد عليها المؤرخ في دراسة تاريخ هذه المدينة مجموعات الكتابات التدمرية التي درسها المستشرقون وترجموها إلى لغاتهم، وهي الارامية واليونانية ثم اللاتينية والعبرانية، ونشرت في كتب خاصة، كذلك هناك مؤلفات المؤرخين اليونان والرومان ومن بينهم بلينيوس، ثم هناك كتابات أخرى ذات قيمة ثانوية ذكرت تدمر عرضاً لوجود مناسبة دعت إلى ذلك مثل سجلات المجامع الكنيسية والتلمود[٢].

وأهل تدمر كانوا عرباً ـ شأنهم في ذلك شأن الأنباط في البتراء ـ بدليل وجود بعض المصطلحات والكلمات العربية الأصيلة في كتاباتهم. كما أن أسماء الأصنام عندهم عربية، والأمر كذلك بالنسبة إلى أسماء الأعلام، ومن ثم فقد رأى بعض العلماء أنهم من القبائل العربية التي أخذت تستولي على المناطق الخصبة في شرق الأردن، عقب إنهيار الدولة البابلية الحديثة،

---

(١) حسن ظاظا. المرجع السابق. صفحة ١١٥.
فيليب حتى. المرجع السابق. صفحة ٤٣٣.
(٢) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ٧٧ ـ ٧٨.

وسقوط بابل تحت السيادة الفارسية في عام ٥٣٩ ق. م، ثم أخذت تستعمل الارامية - وهي لغة الكتابة والثقافة في غرب الفرات وقتذاك - لغة لها. أما الثقافة التدمرية، فكانت مزيجاً من الثقافات العربية والأرامية واليونانية واللاتينية، ذلك لأن تدمر قد نمت في ظل حضارة الاراميين واتخذت لغتهم، فضلاً عن المبادىء الأساسية في تفكيرهم الثقافي والديني، هذا في الوقت الذي اخذت فيه كثيراً عن دنيا اليونان والرومان.

وكان أهل تدمر خليطاً من تجار ومزارعين، أما أطرافها فكانوا أعراباً ورعاة. وكان في تدمر جاليات يونانية ورومانية، أقامت فيها وفضلت السكنى بها، كما كانت هناك جاليات يهودية نزحت إليها ربما قبل سقوط القدس في أيدي الرومان، ثم عمل هؤلاء اليهود بالتجارة وربما نشطوا في تهويد بعض السكان[1].

هذا وقد أخذت تدمر في الإزدهار والقوة منذ النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد، وذلك بسبب الأهمية التجارية والدبلوماسية لموقعها بين امبراطوريتي الفرس والروم المتنافستين، وقد حاول «مارك انطونيو» عام ٤١ ق. م الإستيلاء على خزائن المدينة ففشل، وإن أصابها منه ضرر كبير، غير أن مدينة مهمة كتدمر لها ثروة ومال وليس لها جيش قوي ضخم ولا مجال لتكوين هذا الجيش فيها، لا يمكن أن تبقى في مأمن ومنجاة من مطامع الطامعين، ولو كانت في بقعة منعزلة وفي بادية بعيدة. ومن ثم فقد طمع فيها أهل العراق، وطمع فيها الفرس، وطمع فيها اليونان والرومان والبيزنطيون. وكان أول طامع فيها وصل خبره إلينا من الفاتحين الأقوياء هو الملك (تجلات بلاسر الأول) تلاه جملة غزاة ورثوا الحكم والملك في الشرق الأدنى. وقد صارت تدمر في جملة الأراضي التي أخضعها الإسكندر الأكبر لحكمه، ولما انقسمت دولته بعد وفاته صارت تدمر من نصيب السلوقيين على ما يظهر. وقد حاولت تدمر أن تقف موقف الحياد بين الفرس والروم، وتمكنت من ذلك

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٥٣٧ - ٥٣٨.

أمداً، إذ كان من مصلحة الدولتين المتنافستين وجود محل منعزل محايد، لكي يتمكن تجار الدولتين من الإتجار والتسوق فيه[1].

وقد قام أحد القادة السلوقيين ببناء حصن ليضم إليه الجنود المقدونيين في مدينة (تدمر)، وكان ذلك في عام ٢٨٠ ق.م، ولعل هذا الحصن هو واحد من سلسلة حصون أقامها السلوقيون في المواضع الهامة ذات المكانة الخطيرة من الوجهة السياسية والعسكرية والتجارية لحماية مصالحهم فيها. هذا وقد اعترفت تدمر بنوع من السيادة عليها للرومان، منذ أوائل العصور المسيحية، ودليلنا على ذلك المراسيم الإمبراطورية التي ترجع إلى عهد (تيبيروس) ١٤ - ٣٧ م، والتي تتعلق بالرسوم الجمركية، وقد عثر في تدمر على قوائم ترجع إلى عام ١٧ م وتبين بعض الرسوم على البضائع وأثمانها باليونانية والتدميرية. هذا ويبدو أن تدمر قد أصبحت على أيام «فسباسيان» تحت الإشراف الروماني، وإن كان هذا لا يعني الخضوع لروما، أو أن الإشراف على الشؤون المدنية بالمدينة كان بأيدي الرومان، وإنما كان هناك إشراف روماني عام على المدينة، بدليل أن الروم قد سمحوا للمدينة بحق الإحتفاظ بحامياتها في خارج تدمر[2].

هذا وقد قام الإمبراطور (هدريانوس) (١١٧ - ١٣٨ م) بزيارة تدمر، وبذل عناية كبيرة بها، حتى قيل فيه أنه مؤسس المدينة الثاني، فاعتنى بها عناية خاصة بحماية الطرق البرية، التي تصلها بنهر (الفرات) الذي كان شرياناً مهماً من شرايين التجارة العالمية في ذلك العهد، وسعى إلى تحسين صلاته بالفرس والمحافظة على الأمن في البادية، لتتمكن القوافل من المرور منها بأمن وسلام.

وهناك من الآراء ما يذهب إلى أن تدمر قد منحت درجة مستعمرة رومانية عليا، فاكتسبت بذلك حق الإمتلاك التام والإعفاء من الخراج،

---

(١) المرجع السابق. صفحة ٥٣٩.

(٢) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحة ٨٥.

والحرية الكاملة في إدارة سياسة المدينة. وإن هذه المنحة كانت في عهد الإمبراطور هدريانوس، بينما يرى آخرون أنها كانت في عهد (سبتيموس سيفيروس) (١٩٣ - ٢١١ م). وقد أفادت تدمر من سياسة هدريانوس التي كانت تميل إلى السلم وتجنب الحرب، فوسعت تجارتها وزادت في عدد قوافلها، وحصلت على ثروة طائلة، وتعد الفترة من عام ١٣٠ وحتى ٢٨٠ م هي أزهى سنوات المدينة، فإلى هذه الأيام ترجع معظم النصب والآثار العظيمة التي ما زالت آثارها قائمة حتى ذلك اليوم. وقد تأثرت تدمر بأصول اليونان والرومان في إدارة الحكم، فكان للمدينة مجلس شيوخ له سلطة سن القوانين والتشريع، وله رئيس وكاتب وأعضاء، ويشرف على السلطة التنفيذية شيخان وديوان يتألف من عشرة حكام، أما السلطة القضائية فينظر فيها بعض الوكلاء وغيرهم من العمال(١).

أسرة أذينة:

كان لتجدد الحروب بين الفرس والروم بعد تأسيس دولة الساسانيين في فارس عام ٢٢٦ م أثره في ارتفاع شأن أسرة عريقة في تدمر وزعيمها الذي يدعى أذينة، فقد استفادت هذه الأسرة من هذه الحروب وتمكنت من الحصول على مركز عال لدى الرومان، وزعيم هذه الأسرة هو (أذينة) وجده الكبير كان يدعى (ناصر) (صرو) والد «وهب اللات» (وهبلات) وإن هذا الأخير إنما هو والد «خيران» أبو «أذينة»، وقد تولى رجال هذه الأسرة رئاسة تدمر وزعامتها، واستطاعت بفضل تأييدها للرومان وتقربها إليهم أن تكتسب ود القياصرة وعطفهم عليها والأنعام على أفرادها بالألقاب والأوسمة وبالمال في بعض الأحيان، وبالقوة والمعونة في أحيان أخرى. ولم يتعرض الرومان لحكم أفرادها بل تركوهم يديرون شؤونها وفق السياسة الرومانية.

ويعد (نصور) أقدم إسم وصل إلينا من أسماء هذه الأسرة التي حكمت

---

(١) Mommsen, Provinces of The Roman Empire, Vol II, p. 236.

فيليب حتى. المرجع السابق. صفحة ٤٣٥.

تدمر، وإن كنا لا نعرف عنه شيئاً ما. أما (أذينة) فقد ورد إسمه في كتابة يرجع الباحثون زمن كتابتها إلى حوالي سنة ٢٣٥ م، وقد لقب فيها بإسم (أذينة بن خيران بن وهب اللات بن نصرو)، وكان يحمل لقب عضو في مجلس الشيوخ الروماني، ثم لقب بلقب ملك في حوالي عام ٢٥٠ م وأجمع الناس عليه، فأدرك الرومان ما وراء هذه الدعوة من خطر على مصالحهم، فأوعز القيصر إلى قائده «روفينوس» باغتياله، فقتل وتخلص الرومان منه. وتولى بعده حكم تدمر ولده (خيران) وفي عهده أخذت تدمر دورها في القضايا الدولية، وما إن قامت الدولة الساسانية في عام ٢٢٦ م، تحت زعامة «أردشير بن بابك بن ساسان» (٢٢٦ ـ ٢٤١ م) حتى بدأ الشرق يضطرب بالصراع بين الروم والفرس. وكان على التدمريين أن يختاروا الإنضمام إلى إحدى القوتين الكبيرتين، فآثروا الإنضمام إلى الروم. وتولى بعد (خيران) هذا، الملك أذينة، وكان له ثأر عند الرومان منذ أن قتل قائدهم «روفينوس» أباه (أذينة الأول) وعدم موافقة الإمبراطور فاليران على أن يأخذ بثأر أبيه من (روفينوس)، ومن ثم فإنه ما أن علم بهزيمة الروم في عام ٢٦٠ على أيدي الساسانيين، حتى أسرع بالإتصال بالفرس، مقدماً لهم الهدايا، وعارضاً عليهم صداقته، إلا أن الإمبراطور الفارسي، الذي كان يحس في ذلك الوقت أنه ملك الشرق والغرب جميعاً، احتقر العرض التدمري، وأمر بالقاء الهدايا في النهر، وتوعد (أذينة) بسوء المصير جزاء وفاقاً على جرأته في مخاطبة ملك الملوك، وهو لا يعدو أن يكون شيخاً لمدينة صغيرة في بيداء قاحلة، لا أهمية لها ولا نفع منها[1].

وعندما علم (أذينة) بموقف الملك الفارسي منه، قرر الأخذ بالثأر من هذا الملك المتغطرس، فجمع القبائل بظاهر تدمر وجعلها تحت أمرة ابنه (هروديس)، وضم إليها فرسان تدمر بقيادة (ذبدا) كبير قواده، والقواسة ورماة السهام تحت قيادة «زباي»، وحشد معهم بعض الكتائب الرومانية، وسار على

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٥٤٢ ـ ٥٤٣.
جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحة ٩٣.

رأس هذا الجيش قاصداً المدائن للإنتقام من الملك الفارسي ولإنقاذ (فالريان) الأمبراطور الروماني الذي كان قد وقع في الأسر على أثر الهزيمة المخجلة التي لحقت بالروم على أيدي الفرس. وفي أثناء زحف أذينة على المدائن وصلته أنباء تغلب القائد الروماني (كاليستوس) على الفرس وتشتت شملهم وهربهم، فغير اتجاهه وأسرع إليهم لملاقاتهم، وقد أدركهم قبل تمكنهم من عبور نهر الفرات، فالتحم بهم وتغلب عليهم، وولى (سابور) مع فلول جيشه مذعوراً تاركاً أمواله وحرمه غنيمة في أيدي التدمريين، وكتب (أذينة) بعد ذلك إلى الإمبراطور الروماني يخبره بهزيمة الفرس وباخلاصه للإمبراطورية، فأنعم عليه القيصر الرومي بدرجة قائد عام على جميع عساكر الشرق. وتمكن (أذينة) بعد ذلك من فتح نصيبين وحران واستقبل هو وجنوده استقبالاً عظيماً، ثم سار هو وجنوده إلى طيسفون عام ٢٦٤ م، فخاف (سابور) وأمر بجمع كل ما عنده من قوات للدفاع عن عاصمته، وأحكم (أذينة) الحصار حولها، وكاد الإمبراطور الفارسي أن يستسلم، لولا أن المؤمرات الرومية قد لعبت دوراً خطيراً في إفساد نجاح أذينة. ذلك إن القائد الروماني «مكريانوس» ـ الذي كان سبباً في هزيمة الروم ووقوع فالريان في الأسر ـ قد أعلن الثورة على «جالينو» ونصب نفسه امبراطوراً على القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية (آسيا الصغرى والشام ومصر)، ومن فقد اضطر (أذينة) إلى رفع الحصار عن الفرس، وأن يعود لإخماد هذه الفتنة الجديدة، إلا أنه ما أن بدأ يعد العدة لمواجهة «مكريانوس» حتى علم بقتله، ثم اتجه إلى حمص للقضاء على ولده «كياثوس»، وبعد أن شدد الحصار على المدينة، قتل (كاليستوس) سيده (كياثوس)، ورمى برأسه من فوق السور تحت قدمي (أذينة) وفتح الأبواب والتمس الأمان منه. وبذا انتهت ثورة القائد «مكريانوس»، غير أن (كاليستوس) سرعان ما عاد إلى الثورة من جديد، ومن ثم فقد أمر (أذينة) بعضاً من رجاله باغتيال (كاليستوس)، وعاد الهدوء إلى هذه المنطقة الهامة من الإمبراطورية بفضل جهود (أذينة)، ومن ثم فقد أغدق عليه القيصر الرومي بلقب «امبراطور على جميع أنحاء الشرق»، أي على الشام والجزيرة وآسيا

الصغرى عدا أجزاء صغيرة منها، وضربت نقود باسمه صور عليها (أذينة) ووراءه بعض أسرى الفرس، وأصبح تحت أمرته جميع القوات الرومانية المعسكرة في الشرق. واختار (أذينة) لنفسه لقباً آخر حبيباً إلى نفوذ الشرقيين هو لقب (ملك الملوك).

وقام (أذينة) باصلاحات أثبتت أنه لم يكن قائداً قديراً فقط، بل كان إلى جانب ذلك رجل إدارة وسياسة وتسامح أيضاً، فمنع تعصب الوثنيين على النصارى اضطهادهم لهم، ومنح كل طائفة حريتها في ممارسة شعائرها الدينية، وأعطى النصارى الحق في بناء الكنائس، وتعقب اللصوص وقطاع الطرق من الجنود الهاربين الذين قاموا بالإعتداء على الآمنين ومهاجمة القوافل والمدن والقرى[1].

وفي عام ٢٦٥ م، اتجه (أذينة) إلى محاربة الفرس من جديد، فاتجه إلى (طيسفون) وضرب الحصار عليها، واضطر (سابور) إلى أن يظهر استعداده لعقد محالفة مع (أذينة)، إلا أن الأخير طلب فك أسر «فاليران» وهو شرط في نظر الفرس جد عظيم، ومن ثم فقد أوقفت المفاوضات بين الطرفين ولكن لسوء حظ (أذينة) تغير الموقف لمصلحة الفرس، إذ عبر «القوط» البحر الأسود، منتهزين فرصة غياب أذينة وابتعاده عن آسيا الصغرى وبلاد الشام ونزلوا بميناء هرقلية، واتجهوا نحو «قبادوقيا»، ومن ثم فإن (أذينة) اضطر إلى رفع الحصار عن مدينة الفرس، والعودة لقتال الغزاة الجدد، إلا أن القوط سرعان ما علموا بعودة (أذينة)، فعادوا إلى ميناء هرقلية، ثم ابحروا منها عائدين إلى بلادهم. فقرر (أذينة)، الرجوع إلى العراق لفتح (طيسفون) وبينما كان في حمص لإراحة جنوده، انتهز (معنى) ابن أخيه (خيران) هذه الفرصة، فقتل هو وعصابته عمه (أذينة) وابن عمه (هيرودس) لاغتصاب عمه منه ملكه الذي ورثه عن أبيه، ونادى بنفسه ملكاً على المملكة التي كونها (أذينة) ولكنه

---

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٥٤٤ ـ ٥٤٥.
قارن: فيليب حتى. المرجع السابق. صفحة ٤٣٧ وما بعدها.
جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ٩٤ ـ ٩٦.

ما كاد يتربع على العرش حتى قتل عام (٢٦٦ - ٢٦٧ م).

انتقل الملك بعد مقتل (أذينة) و(معن) إلى (وهبلت) أو (هبلات) ابن (أذينة) من زوجته (الزباء) ويعرف في اليونانية بـ (أتينودورس)، وكان قاصراً، لذلك تولت الوصاية عليه أمه (الزباء) فعلمته اللاتينية والفروسية وهيأته ليكون ملكاً كقياصرة الرومان أو أكاسرة الفرس، ومنذ أن تولت الملك بدأت تعمل على تكوين دولة عربية قوية تحت زعامتها، وبخاصة أنها أدركت بفطنتها السياسية أن أعداء تدمر، إنما هم الرومان، والذين لا يفكرون إلا في مصلحة روما فحسب. ومن ثم فقد بدأت تتقرب إلى العناصر العربية المستوطنة في المدن، فضلاً عن الأعراب الذين كانت ترى أنهم عمادها في القتال وسندها في الحروب. وكان بداية النزاع بين الزباء والرومان، يوم أرسل «جالينو» بجيش لإحتلال تدمر والقضاء على الزباء قبل أن يستفحل خطرها، متظاهراً بأنه يريد محاربة الفرس. إلا أن الملكة العربية سرعان ما اكتشفت السر، ومن ثم فقد دارت بين الفريقين معركة حامية الوطيس، كتب النصر فيها للزباء، وحاقت الهزيمة بالروم، وفي نفس الوقت، خافت الملكة أن يستغل الفرس الفرصة فيوجهوا إليها ضربة قد تكون غير مستعدة لها، ومن ثم فقد أنشأت حصناً على الفرات، دعته (زنوبيا) نسبة إليها[1].

ووجهت (الزباء) نظرها بعد ذلك نحو مصر، ووضعت الخطط للإستيلاء عليها، بعد أن مهدت لنفسها الدعوة فيها بأعلانها أنها مصرية، وأنها من نسل الملكة (كليوباترا)، فلها إذن فيها ما يسمح لها بالتدخل في شؤونها. وأخذت تترقب الفرص وتحين الأسباب، فلما قتل القيصر (غاليانس) علم ٢٦٨ م، وانتقل الحكم إلى (أوريليوس كلوديوس) ٢٦٨ - ٢٧٠ م، وفي نفس الوقت كان الجرمان والقوط قد بدأوا يهاجمون القسم

---

(١) تاريخ الطبري. الجزء الأول. صفحات ٦١٧ - ٦٢٥.
تاريخ ابن خلدون. الجزء الثاني. صفحات ٢٥٩ - ٢٦١.
قارن: محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٥٤٧ - ٥٥٣.

الغربي من الإمبراطورية الرومانية، مما دفع (بروبوس) الحاكم الروماني في مصر، إلى أن يخرج بأسطول من الإسكندرية لمطاردة القوط، وهنا بدأ الزعماء المصريون وعلى رأسهم تيماجنيس وفرموس - يحرضون الزباء على فتح مصر، بل ويقدمون لها العون المادي للمساعدة على هذا الفتح، وأمرت الملكة قائدها (زبدأ) بالإتجاه إلى مصر، وكان على رأس جيش قوامه سبعون ألف رجل، وهناك دارت معركة رهيبة بين الفريقين انتهت بانتصار (زبدا) قائد تدمر الذي قرر العودة إلى تدمر تاركاً في مصر حامية صغيرة من خمسة آلاف رجل بزعامة (تيما جينيس) الذي عين نائباً عن الملكة على مصر، فلما سمع (بروبوس) بهجوم التدمريين وتغلبهم على الرومان، أسرع عائداً إلى مصر، فألف جيشاً من المصريين الموالين للرومان وزحف على الإسكندرية، وأخذ يتعقب التدمريين، وأعمل فيهم السيف، فلما سمعت الزباء بذلك، أمرت قائدها بالعودة ثانية إلى مصر، فجرت معارك بين الطرفين انتهت بانتصار التدمريين على (بروبوس) عند (بابلون) أو (الفسطاط) وكتب النصر لجيش الملكة في مصر. وانتهى الأمر باتفاق بين الزباء والرومان على أن يكون حكم مصر مشتركاً بينهما، فوافقت روما على بقاء جيوش تدمر في مصر، مع اعتراف تدمر بسيادة الرومان عليها. وقد عثر على عملات تدمرية سُكّت في الإسكندرية في عامي ٢٧٠، ٢٧١ م وعلى وجهها صورة القيصر (أورليان) بجانب صورة «وهب اللات» (ابن الزباء) مما يدل على الحكم المزدوج بينهما(١).

ولم يدم هذا الإتفاق بين الرومان والملكة طويلاً، فقد ضغط سادات روما على الإمبراطور بأن ينقذ الإمبراطورية مما حاق بها من تصدع في أوروبا والشرق، ولا سيما إن فتح الزباء لمصر والإستيلاء على الإسكندرية - أهم مدن الإمبراطورية الرومانية قاطبة بعد روما - كان ضربة أصابت الروم في الصميم. وعندما علمت الملكة بعزم الإمبراطور الروماني على القضاء عليها،

---

(١) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ١١٤ - ١١٥.
قارن: محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٥٥٣ - ٥٥٤.

قررت القيام بعمل سريع قبل مباغتة القيصر لها، فألغت الإتفاق المعقود مع الرومان ومحو صورة القيصر الروماني من النقود لتبرهن على قطع علاقتها بالقيصر وعدم اعترافها بالسيادة الأسمية الرومانية على مصر، وأمرت كذلك بضرب صورة (وهبلات) وحده مع اللقب الإمبراطوري المخصص لقياصرة روما، وفي ذلك تحدٍ صريح وإعلان العداء لروما. وهناك رواية تذهب إلى أن (الزباء) قد تفاوضت مع الملكة (فيكتوريا) عاهلة اقليم الغال، لتوحيد الخطط في مهاجمة القيصرية الرومانية واقتسامها، وبدأت جيوشها تتوغل في آسيا الصغرى، وأقامت الحاميات باتجاه الشمال الغربي حتى (انقره) وظلت جيوشها تتقدم دونما أدنى مقاومة، حتى (خلقدونية) مقابل بيزنطة. وهكذا استطاعت ملكة البادية أن تكون لنفسها ولابنها امبراطورية انتزعتها من مخالب النسر الروماني وهو في أوج قوته، غير أن تنفيذ هذه الخطة، دعا الزباء إلى أن تسحب كثيراً من قواتها من مصر، وانتهز أورليان الفرصة، ونجح قائده في أن يلحق بالتدمريين في عام ٢٧١ م، هزيمة كانت نتيجتها خروج مصر من امبراطورية الزباء، وكان من أخطر النتائج التي تمخضت عن فقد مصر، أن الزباء بدأت تفقد الثقة بنفسها وبجيشها، كما شجعت أهل (خلقدونية) بآسيا الصغرى على صد هجوم التدمريين، أملاً في نجدة قريبة تأتي من القيصر الروماني، وهذا ما حدث بالفعل، إذ سرعان ما قدمت الجيوش الرومانية بقيادة القيصر نفسه، فعبرت البسفور، وطردت التدمريين من «بتينية» ثم اتجهت إلى (غلاطيه) في (قبادوقيا) حتى بلغت (انقره). وهكذا استطاع أورليان في عام ٢٧٢ م، أن يخضع الحاميات التدمرية في آسيا الصغرى، وأن يتابع مسيرته حتى سورية[١]. وحاول جيش الزباء أن يوقف تقدم جيوش الرومان، في الوقت الذي أشاع فيه الرومان بين الناس بأن هناك تنبؤات الهية بسقوط تدمر، لإقناعهم أنه من العبث مقاومة القيصر وجنوده، وأنه من الخير ترك المقاومة والإستسلام. وقد أثرت هذه الشائعات في عقول الكثيرين، فقضت على معنويات التدمريين الوثنيين الذين يدينون بهذه الخرافات

---

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٥٥٤ ـ ٥٥٦.

ويؤمنون بها، ومع ذلك فقد استعدت الملكة لملاقاة (أورليانوس) عند مدينة (انطاكية) وكانت هي على رأس الجيش، أما القيادة فكانت لقائدها (زبدا)، وتحقق النصر للملكة (الزباء) وجيوشها في بادىء الأمر وشتتوا شمل الجيش الروماني إلا أن القيصر قد أمر جنوده بالرجوع إلى مسافات بعيدة، ليوهم التدمريين أنه قد فر، فإذا ساروا في أثرهم وابتعدوا عن قواعدهم باغتهم بالهجوم، فلا يتمكن فرسان تدمر من هزيمتهم لثقل اسلحة الفرسان ومعداتهم وبطء خيلهم بالقياس إلى خيل الرومان. وهذا ما حدث، فقد خدع التدمريون وظنوا رجوعهم هزيمة، فتعقبوهم إلى مسافات بعيدة، وفجأة انقلبت الكتائب الرومانية على التدمريين، واطبقوا عليهم وأعملوا فيهم السيوف، وانهزموا هزيمة منكرة وفرّوا إلى مدينة (انطاكية). وقررت الملكة سرعة الإرتحال عن انطاكية لأسباب عديدة، منها أن القوم هناك كانوا يميلون إلى جانب الرومان بعواطفهم، فهناك جاليات يونانية ذات نفوذ في المدينة تفضل حكم الرومان على حكم الشرقيين، وهناك كره النصارى للزباء بسبب موقفها من الأسقف (بولس السميساطي) الذي عزله مجمع أنطاكية، ولكنها لم تنفذ قرار العزل، وهناك كراهية اليهود للتدمريين. وتلى ذلك تعقب القيصر للملكة حتى وصل إلى حمص، وهناك تقابل الفريقان للمرة الثانية وكان النصر للتدمريين في الجولة الأولى، ثم هزيمة لهم في الجولة الثانية، مما اضطرها إلى ترك حمص والإحتماء بتدمر نفسها، ودخل (أورليان) حمص وتوجه بالشكر إلى إله الشمس، وتعهد بتوسيع معبده وتجميله[1]. وادرك القيصر أن النصر الحقيقي لن يتم إلا بالقبض على (الزباء) وفتح تدمر، لذلك قرر الزحف إليها بأقصى سرعة قبل أن تتمكن الملكة من تحصين مدينتها والإتصال بالفرس والقبائل العربية في البادية، فيصعب عندئذ الإستيلاء عليها، فسار مسرعاً حتى بلغ المدينة وألقى الحصار على تدمر، غير أن المدينة قاومت بشدة، وعرض

---

(١) المرجع السابق. صفحات ٥٥٦ ـ ٥٥٧.

قارن: جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ١١٧ ـ ١٢٠.

فيليب حتى. المرجع السابق. صفحة ٤٤٠.

أورليان على الزباء التسليم بشروط معتدلة، غير أن الملكة رفضت العرض بإباء وشمم، مذكرة إياه بأنها تفضل مصير كليوباترا على عار الإستسلام له، وأنها سوف تلقنه درساً قاسياً على جرأته في الكتابة إليها، طالباً منها الإستسلام، عندما يحين الوقت، ويأتي إليها أعوانها من الفرس والعرب والأرمن. ومن الجدير بالذكر أن الملكة لم تجد عوناً من كل هؤلاء، فقد كانوا هم أنفسهم في شغل شاغل عنها، ومن ثم فقد قررت ترك عاصمتها للأقدار، والتسلل منها ليلاً للوصول بنفسها إلى الفرس لعلهم يرسلون لها نجدة تغير الموقف. ولما علم أورليانوس بنبأ هرب الملكة أرسل رجاله في أثرها وأمرهم بالقبض عليها مهما كلفهم الأمر، ونجح هؤلاء الرجال في القبض عليها وأعادوها إلى (أورليانوس) وهكذا لم يعد أمام تدمر سوى الإستسلام، ومن ثم فقد فتحت أبوابها في أوائل عام ٢٧٣ م لقيصر روما، فدخلها أورليانوس دخول الفاتحين، وأقام حاكماً رومانيا عليها مع عدد من الرماة. وهكذا عادت تدمر إلى حظيرة الإمبراطورية الرومانية، بعد أن شقت عصا الطاعة منذ أسر فالريان عام ٢٦٠ م[١].

وأخذت الزباء إلى حمص، وهناك عقد مجلس لمحاكمة الملكة العربية العظيمة ورجال بلاطها. وتذهب بعض الروايات إلى أن الزباء قد تنصلت من مسؤوليتها عما حدث، فضلاً عن اعترافها بأنها لم تكن إلا الإحتقار لأمثال جالينوس وكلوديوس، ولكنها تعترف لأورليانوس وحده بأنه ملك فاتح، إلا أن الكثير من المؤرخين ينكرون هذه الرواية التي لا تتفق وما كانت عليه الزباء من سمو الأخلاق والشجاعة، وأياً ما كان نصيب هذه الرواية من الخطأ أو الصواب فإن أورليانوس قد أمر بإعدام بعض رجال الزباء، وإن كان قد أبقى عليها هي وابنها (وهبلات) بغية إلحاقها بموكب النصر الذي سوف يقيمه عند دخوله روما، عاصمة الإمبراطورية الرومانية. وفي أثناء رحيله إلى روما جاءته الأنباء بقيام ثورة عاتية في تدمر، وأخرى في مصر، وهنا لم يتردد أورليانوس في أن يولي وجهه شطر سوريا، وقضى على ثورة التدمريين،

---

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٥٥٧ ـ ٥٥٨.

وانهال عليهم بالتنكيل، ولم ينج من عقابه الرهيب أحدٌ من الشيوخ أو النساء أو الأطفال. وبذلك فقدت المدينة كل عظمتها القديمة، وأخذ أورليانوس رماة السهام والأقواس في تدمر ليعملوا في خدمة الجيش الروماني في افريقية.

أما الملكة الزباء فقد انتهى الأمر بها بأن تقبع في بيت خصص لها في «تيبور» بايطاليا مع أولادها وأن تعتزل السياسة والحرب. أما تدمر فقد ذهب كل مجدها ولم تعد سوى قرية صغيرة وقلعة من قلاع الحدود في عهد دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م)، وفي حوالي القرن الخامس الميلادي كانت تدمر مقاطعة تابعة لولاية فينيقية، وعين فيها ثيودوسيوس (٤٠٨ - ٤٥٠ م)، فرقة من الجنود لحراستها وحمايتها من هجمات رجال البادية. وفي العام الأول من حكم (جستنيان) ٥٢٧ - ٥٦٥ م أصبحت تدمر على خط الحدود الخارجية للأمبراطورية ومن ثم فقد أمر الإمبراطور بتقوية حاميتها واصلاح ما تهدم من مبانيها، فضلاً عن تحصين قلاعها وأسوارها وتحسين موارد مياهها، ثم اتخاذها مقراً لحاكم ولاية فينيقية. ومع ذلك، فإن تدمر بدأت تفقد أهميتها شيئاً فشيئاً، ورغم الإشارة إليها كمركز أسقفي في الصحراء، فإن الصحراء قد تغلبت عليها يوم فقد سكانها السيطرة على هذه الصحراء، وظلت كذلك حتى فتحها (خالد بن الوليد) صلحا في عام ٦٣٤ م على أيام الخليفة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - غير أنها لم ولن تعد كما كانت أيام الزباء.

وأخيراً فإنه يوجد في تدمر في الزمن الحاضر، ثروة تاريخية مطمورة تحت الأنقاض ستفيدنا ولا شك فائدة كبيرة في تدوين تاريخ المدينة وتاريخ صلاتها بالخارج. ومن المواضع العديدة التي ذكرها (بطلميوس) في مقاطعة تدمر (بالميرا Palmyra)، وهي تدمر العاصمة، ثم (الرصافة) وهي مدينة قديمة ورد خبرها في النصوص المسمارية في نص يعود إلى عام ٤٨٠ ق. م وقد اشتهرت بوجود ضريح القديس (سرجيوس) بها وهو مقدس عند الغساسنة[١].

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٥٥٨ - ٥٦٠.
أحمد سليم. المرجع السابق. صفحات ١٨٤ - ١٨٦.
قارن: جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ١٢٧ - ١٢٩.

سابعًا: الغساسنة

قامت على أطراف الصحراء في القرنين الخامس والسادس الميلاديين دويلتان جديدتان، ازدهرت إحداهما حول دمشق وعرفت بدولة الغساسنة، أما الأخرى فقد ازدهرت في الحيرة بالقرب من ضفاف الفرات وعرفت بدولة اللخميين. وكانت هاتان الدويلتان تابعتين لامبراطورية بيزنطة وفارس ـ وكانتا بمثابة مركزي حراسة لهما على حدود الصحراء. وقد عرف ملوك الغساسنة ببني جفنة أيضاً، وقد نقلت كلمة (غسان) في زعم الاخباريين من اسم ماء يقال له (غسان) ببلاد (عك) بزبيد وربيع، نزل عليه آل غسان، وأصلهم من الازد، بعد خروجهم من اليمن قبيل حادث سيل العرم أو بعده، فلما أقاموا عليه وشربوا منه، أخذوا اسمهم منه، فسموا (غسان)، وعرف نسلهم بالغساسنة. أما سبب تسميتهم بآل جفنة فلا نتسابهم إلى جد أعلى يدعونه(جفنة بن عمرو فريقيا بن عامر) على رأي، أو إلى (جفنة) قبيلة من غسان من اليمن.

وتاريخ دولة الغساسنة هذه غامض لقلة المصادر، ولا متزاج الحقائق فيه بالاساطير، ولضياع معظم آثار بني غسان، ومن ثم فلا تتفق المصادر العربية مع اليونانية إلا في القدر اليسير، بل أن المؤرخين العرب أنفسهم إنما يختلفون في عدد الملوك وسني حكمهم وأسمائهم. وربما يرجع ذلك الاختلاف إلى اختلاط أخبار آل غسان بالقبائل العربية التي سبقتهم إلى سوريا، واقتصار مؤرخي العرب على الناحية الادبية من تاريخ الغساسنة، وإهمال تاريخهم السياسي، أضف إلى ذلك هذا التشابه في الاسماء بين

حارث ومنذر ونعمان، واختلاط ذلك أيضاً بالتشابه والتقارب مع أسماء ملوك المناذرة[1].

ويزعم الاخباريون أن الذي قاد الغساسنة في خروجهم من اليمن، هو عمرو المعروف بـ (فريقيا) وهو ابن عامر ماء السماء بن حارثه، وقد نزح معه من اليمن قومه من الازد، فنزل المدينة ثعلبة العنقاء بن عمرو بن عامر، ومنهم الاوس والخزرج، ونزل مكة رهط حارثة ابن عمرو بن عامر، وهم خزاعة، ونزل جفنة بن عمرو بن عامر بالشام وهم الغساسنة، وقد استوطنوا أرض حوران حيث كان هناك قوم يعرفون «بالضجاعمة» من قبائل بني سليح بن حلوان من قضاعة، قد استقروا هناك ورضخوا لحكم الرومان ودانوا بالنصرانية من قبل مجيء الغساسنة، وقد استقر الغساسنة أيضاً في نواحي الجنوب الشرقي من دمشق على مقربة من الطرف الشمالي لطريق النقل الهام الذي كان يربط بين «مأرب» في الجنوب ودمشق في الشمال. وما إن يمضي حين من الدهر على هجرة الغساسنة إلى الشام حتى تبدأ الخلافات بينهم وبين الضجاعمة. وقد بدأ هذا الخلاف عندما فرضت سليح (وهم من الضجاعمة) جباية سنوية قدرت بدينار على كل رجل، وكان من الطبيعي أن تؤدي جباية هذه الضريبة من غسان، الذين (كانوا لا يعرفون الجباية)، إلى صدام بينهم وبين عرب بني سليح، ثم بينهم وبين الروم الذين فرضوا حمايتهم وسيادتهم على بني سليح. وتم اللقاء الأول بين الغساسنة ـ الذين قتلوا الجابي السليحي ـ وبين عساكر الروم الذين يظن أنهم كانوا من سليح، في موضع عرفه العرب بوادي الكسوة، نظراً لسلبهم كسوة عسكر الروم الذين قتلوا في المعركة. وهكذا عرف الروم قوة بني غسان، فصالحوهم (على أن تعطي غسان الذمة، والدخول والخروج من البلد والمرعى والنصرة ضد العدو، والمواصاة والعدل). وهكذا ثبت الغساسنة أقدامهم في أرض الشام

---

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٥٦١ ـ ٥٦٣.
قارن: عمر فروخ. تاريخ الجاهلية. صفحة ٦٨.
جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ٤٤٣ ـ ٤٤٧.

إلى جانب السليحيين. وكان من الطبيعي أن ينتهي الامر بانتزاعهم السيادة على كل البلاد من الضجاعمة رؤساء سليح، بعد عدد من الوقائع بين غسان وبين الروم وسليح «الذين كانت أجسامهم مع قيصر وقلوبهم مع غسان» منها: يوم بالعة الذي انهزمت فيه الروم، ومنها اللقاء الذي تم بمرج الظباء وهو يوم حليمة الذي وقفت فيه قبائل العرب، من سليح وكناية وجذام إلى جانب الروم حتى وافقت غسان على الصلح نظير دفع الجزية. وكانت المطالبة بها هذه المرة بالقرب من باب دمشق الذي عرف لذلك السبب بـ (باب الجابية)، وهذا يعني تقدم الغساسنة نحو قلب بلاد الشام، مما أدى إلى الحرب من جديد. ووقفت سليح إلى جانب الروم، بينما أتت المعونة إلى الغسانيين من بني عمومتهم في يثرب، وانتهى الامر بانتصار غسان حتى اضطر قيصر إلى صلحهم على أن لغسان ملك الشام، وإن لملكهم طعمة على الروم، وإن ينصروه في الحرب.

والجدير بالذكر أن العاصمة السياسية للغساسنة يبدو أنها كانت في البدء مخيماً متنقلاً، ثم استقرت بعد ذلك في «الجابية» في منطقة الجولان جنوب غربي دمشق، كما كانت في بعض الوقت في «جلق» في جنوب حوران[1].

أما عن ملوك الغساسنة فتذكر رواية (وهب بن منبه) إن أول من ملك من الغساسنة هو (عمرو بن جفنة) الذي حقق الانتصارات التي سبق ذكرها على الروم، وربما حدث ذلك في أواخر القرن الخامس الميلادي، أو قبل ذلك بقليل. ويعد (الحارث بن جبلة) المعروف لدى الاخباريين بـ «الحارث الأعرج» وبـ (الحارث الاكبر /٥٢٨ ـ ٥٦٩ م) أول أمير نعرف من أمره شيئاً واضحاً يذكر من أمراء آل جفنة، وهو في نظر (نولدكه) (ارتياس) الذي ذكره المؤرخ السرياني (ملالا) على أنه كان عاملاً للروم. وهناك ما يشير إلى نشوب حرب بين الحارث والمنذر الثالث أمير الحيرة، ربما بسبب العداوة التي

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٥٦٤ ـ ٥٦٦.

انتقلت إليهم من العداوة التي كانت بين الفرس والروم، وربما لأن أمير الحيرة ادعى إن القبائل العربية النازلة فيما بين دمشق وتدمر، إنما تخضع لسلطانه، فنازعه الامير الغساني هذا السلطان. وأيا ما كان السبب، فإن الرجلين اشتبكا في ابريل من عام ٥٢٨ في حرب كتب النصر فيها للحارث الغساني، ومن ثم فقد منحه (جستنيان) قيصر الروم، لقب ملك ـ وهو لقب لم يمنحه الروم لواحد من عمالهم في سورية من قبل ـ كما بسط سلطانه على قبائل عربية متعددة، بغية أن يجعل منه خصماً قوياً لأمير الحيرة، وإن كان (نولدكه) يشك في منح القيصر الرومي الحارث لقب ملك، ذلك لأن هذا اللقب كان خاصاً بقياصرة الروم ولا يمنح لغيرهم، ويرجح أن يكون (جستنيان) قد منحه لقب (بطريق) ولقب (سيد القبيلة) (فيلارخوس). ولقب البطريق من القاب الشرف الفخمة عند الروم ولصاحبه امتيازات ومنزلة في الدولة، ولذلك فلم يكن يمنح إلا لعدد قليل من الخاصة. والجدير بالذكر إن نص (أبرهة) الذي ورد فيه ذكر اسم (الحارث بن جبلة) لم يورد لقب ملك مقترناً باسم الحارث، ويدل ذلك على أن (أبرهة) قد اتبع الأصول الدبلوماسية المقررة عند البيزنطيين، وإن لقب ملك لم يكن لقباً رسمياً للحارث وكان ذلك عام ٥٤٢ م[1].

هذا وقد اشترك (الحارث بن جبلة) في المعركة التي نشبت بين الفرس والروم في ١٩ أبريل عام ٥٣١ م، وانتهت بهزيمة الروم. وقد أثار تصرف الحارث في هذه الحرب شك الروم في إخلاصه لهم، والحذر منه، إذ ما كاد هذا الامير يعبر نهر دجلة مع قائد الروم (بليزاريوس) حتى عاد فرجع إلى مواضعه بعد أن سلك طريقاً آخر غير الطريق الذي اتبعه معظم الجيش دون أن يقوم بعمل يذكر في هذه الحرب، مما جعل الروم يشكون في صداقته لهم، ويراقبون حركاته، خوفاً من انقلابه عليهم[2].

(١) جورجي زيدان. المرجع السابق. صفحات ١٩٨ ـ ١٩٩.
جواد علي. المرجع السابق الجزء الثالث. صفحات ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

(٢) عبد العزيز سالم. المرجع السابق. صفحة ٢٨١.
جورجي زيدان. المرجع السابق. صفحات ١٩٩ ـ ٢٠٠.

وفي عام ٥٤٤ م تجدد النزاع ثانية بين الحارث والمنذر أمير الحيـرة، وينتهي القتال بهزيمة الامير الغساني، وأسر أحد أولاده، الذي قدمه المنـذر قرباناً للإلهة العزي، وفي عام ٥٤٥ م يسود السلام بين الفرس والروم، ولكن الامر كان جد مختلف بالنسبة لحلفائهما من المناذرة والغساسنة، إذ سرعان ما يتجدد القتال بينهما. وهناك، وعلى مقـربة من «قنسـرين» تنشب بين المنذر والحارث معركة رهيبة في عام ٥٥٤ م، انتهت بقتل المنـذر نفسه، وكـذلك ابن الحارث الذي يدعى «جبلة». ويرى (نولدكه) إن هذه المعركة هي معركة يوم حليمة وذلك لأن حليمة بنت الحارث كانت تحرض الرجال على القتال، أو لأن أباها قد أعلن أنه سوف يزوجها لمن يقتل المنذر، أو لأنها كـانت قد أقبلت على مائة من المحاربين تطيب أجسامهم وتلبسهم الاكفان والـدروع، وهناك آراء أخرى تذهب إلى أن (حليمة) هذا، كان اسم مكان وليس إسماً لامرأة[1].

وعلى أي حال، فهناك ما يشير إلى أن الحارث قد اعتنق النصرانية على المذهب (المونوفيزي) القائل بوجود طبيعة واحدة للمسيح، ومن ثم فقد سعى لـدى الامبـراطـورة «ثيـودورة» زوج الامبـراطـور جستنيـان، لتعيين (يعقـوب البرادعمي) ورفيقه (ثيودورس) أسقفين للمقاطعات السوريـة العربيـة، فنجح في مسعاه هذا في عام (٥٤٢ ـ ٥٤٣ م) وبذلك وطد هذا المذهب في بلاده. وكان لجهود الحارث ومسعاه في حماية هذا المذهب، فضل كبير في انتشاره وبقائه بين السريان والعرب في الشام. وقد زار الحارث القسطنطينية في عام (٥٦٣ م) فاستقبل استقبالاً حافلاً وأثر أثراً عميقاً في نفوس أهل العاصمة وفي رجال القصر والحاشية. وتذهب بعض الروايات إلى أن الغاية التي من أجلها ذهب الحارث إلى القسطنطينية هي مفاوضة رجال الحكم فيمن سيخلفه على عـرشه بعـد وفاتـه من أولاده، وفي السياسـة التي يجب سلوكها تجاه أميـر الحيرة. هذا وقد وصلت دولة الغساسنة في عهده ذروة اتساعها، فقد كـانت

(١) تيودور نودلكه. أمراء غسان. صفحات ١٨ ـ ٢٠.
قارن: محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٥٦٩ ـ ٥٧٠.

تمتـد من قرب البتـراء إلى الرصـافة شمـالي تدمـر، وتشمل البلقـاء والصفا وحران، وأصبحت بصري العاصمة الدينية في المنطقة، فضـلاً عن شهرتهـا كمركز تجاري هام[1].

وجاء بعد الحارث ابنه المنذر (٥٦٩ ـ ٥٨١ م) أو (٥٧٠ ـ ٥٨٢ م) وقد عرف بـ Alamundaros عند اليونان والسريان، وقد استهل حكمه بالحرب مع ملك الحيرة قابوس، والظاهر أن عرب الحيرة كانوا هم البادئين بها، فانتصر عليهم في يوم ٢٠ مايو ٥٧٠ م في معركة عين أباغ. وحـدث في عهد هـذا الامير أن ساءت العلاقات بين الغساسنة وبين قيصر الروم الامبراطور جستنيان الثـاني» (٥٦٥ ـ ٥٧٨ م)، وربما كـان ذلك بسبب الخـلافات المـذهبية بين الفريقين، وتعصب المنذر الغساني للمذهب المونوفيـزي، بل أن هنـاك من يـذهب إلى أن المنذر قـد عقد مجمعـاً كنسيـاً أعلن فيـه هـرطقـة القـائلين بالتثليث، وعلى رأسـهم الامبراطور نفسه، وربما لأن سياسة المنذر كانت هي السبب في استيـلاء الفرس على (Rhomaye)، وأحسن المنـذر بأن القيصـر يدبر له مؤامرة، وأنه أمر عامله البطريق (مرقيانـوس) بأن يحتـال عليه لقتله، فتمرد على الروم، وغادر أرضهم إلى البادية، فانتهز عرب الحيرة هذه الفرصة المؤاتية فأمعنوا في غزو بلاد الشام، وإيقاع الرعب في نفوس سكان القـرى المجـاورة لهذه الحـدود مما حمـل الروم على مـراسلة المنذر والتـودد إليـه لاسترضائـه، حتى إذا ما تلطف الجـو أرسلوا إليه البـطريق (يوسـطنيانـوس) ليجتمع به في مدينة الرصافة عند قبر القديس (سرجيوس) لإقناعه بترك موقفه والموافقة على العودة إلى محله. وعند القبر المقدس عقد الصلح بينهما في صيف عام ٥٧٨ م، فعاد المنذر إلى أرضه، ليقوم بالدفاع عن حدود الشام. هذا وقد قام المنذر بزيارة القسـطنطينيـة في عام ٥٨٠ م مصـطحباً اثنين من أبنائه، وقد استقبل هناك بكل احترام وتبجيل وأنعم عليه الامبراطور تيبيريوس الثاني (٥٧٨ ـ ٥٨٢ م)، بلقب (Rex) وبالتاج وهو لقب كان له شأن كبير في امبراطورية الروم، وقد أغدق القيصر عليه الهـدايا الثمينة النفيسة مما لـم ينعم

(١) المرجع السابق. صفحات ٥٧٠ ـ ٥٧٢.

به أي ملك عربي من قبل[1]، كما أنعم على ولديه بدرجات عسكرية. هذا وقد أطلق مؤرخو الروم على المنذر لقب «المنذر ملك العرب».

وقد قام المنذر بتجديد بناء كنيسة الرصافة، كما بنى صهاريج لإيصال الماء إلى الرصافة مدينة القديس (سرجيوس) ذي المكانة العظيمة عند عرب الشام، كذلك فقد طلب المنذر وهو في القسطنطينية من البيزنطيين مساعدته في بناء قصر يكون أعظم قصر غساني بني، حتى أيامه، وذلك بأن يرسلوا إليه أحسن المعماريين والبنائين الحاذقين، فلبي البيزنطيون طلبه فأمدوه بما يحتاج إليه من معماريين ومن مواد بناء. ومن أبنيته الخربة المعروفة اليوم بناء يعرف باسم البرج، وقد عثر على إسمه مدوناً على حجارة من ذلك البناء.

على إن العلاقات بين المنذر والروم، سرعان ما بدأت تسؤ من جديد، وربما كان السبب هذه المرة فشل المحاولة التي قام بها الروم لغزو الفرس، بسبب هدم الجسر المنصوب على الفرات، واتهام المنذر بذلك، وزاد الطين بلة أن المنذر أراد استرضاء الروم فأغار على الحيرة وأحرقها بالنار، ثم عاد محملاً بالغنائم الكثيرة، غير أن هذا النجاح الساحق الذي حققه المنذر على اللخميين لم يمح ريبة الروم في ولائه لهم، وإنما اعتبروه تحدياً لهم، ورغبة منه في الخروج على طاعتهم، ومن ثم فقد انتهزوا فرصة افتتاحه لكنيسة في حوارين، وقبضوا عليه وأرسلوه إلى العاصمة البيزنطية، مع إحدى نسائه وبعض بناته وأولاده، حيث بقي هناك إلى أن تولى «موريس» (٥٨٢ ـ ٦٠٢ م) العرش، فأمر بنفيه إلى صقلية في عام ٥٨٢ م فضلاً عن قطع المعونة السنوية عن آل جفنة[2].

أثار عمل الروم هذا ثائرة أبناء المنذر، فتركوا ديارهم، وتحصنوا

---

(١) المرجع السابق. صفحات ٥٧٢ ـ ٥٧٣.
قارن: جورجي زيدان. المرجع السابق. صفحة ٢٠١.
سعد زغلول عبد الحميد. المرجع السابق. صفحة ٢١٠.
(٢) أحمد سليم. المرجع السابق. صفحات ١٩٢ ـ ١٩٣.
نودكله. المرجع السابق. صفحات ٣٠ ـ ٣١.
فيليب حتى. المرجع السابق. صفحة ٤٤٩.

بالبادية، وأخذوا يهاجمون منها حدود الروم ملحقين بها أذى شديداً، فاضطر القيصر على أثره أن يوعز إلى القائد (ماكنوس) بتجهيز حملة من أبناء المنذر ألحق بها أحد أخوة المنذر، وكان قد أعد ليتولى مقام أخيه، غير أنه توفي بعد أيام. ولما كان من الصعب على الروم مهاجمة أبناء المنذر في البادية، عمد القائد إلى المكيدة، فأرسل إلى النعمان كبير أبناء المنذر أنه يريد مقابلته للاتفاق معه على وضع شروط للصلح. وقد ظن الامير أن القائد صادق فيما دعا إليه فذهب لمقابلته، فقبض عليه الروم، وأرسلوه إلى العاصمة حيث حجروا عليه فيها، وهكذا تصدع ملك الغساسنة. وانقسم أمراؤهم شيعاً وأحزاباً تركت بعضها ديارها فهاجرت إلى العراق وتشتت الباقون، ولم يبق لهم شأن يذكر، ولم يشر الكتبة السريان أو البيزنطيون إلى ملك الغساسنة بعد هذا الحادث، وقد عقب هذا التصدع حدوث اضطراب في الامن وفوضى بين القبائل التي أخذت تتنافس بينها للحصول على الرئاسة والسيادة، مما حمل البيزنطيين على التفكير في اختيار رئيس قوى من سادات القبائل المتنافسين ليقوم بضبط هذه القبائل وإعادة الامن إلى نصابه وحماية الحدود من هجمات عرب الحيرة، ولكن دون جدوى، حتى استطاع الفرس على أيام «كسرى أبرويز» (٥٩٠ ـ ٦٢٨ م) غزو سوريا، فاستولوا على انطاكية ودمشق وبيت المقدس وخلقدونية، ثم فتحوا مصر في عام ٦١٩ م، وإن كان فيما يبدو إن هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١ م) حين نجح في استعادة سوريا عام ٦٢٩ م، ربما استعمل الغساسنة مرة أخرى، بدليل أنهم قد حاربوا المسلمين مراراً في جانب الروم، وإن خالد بن الوليد قد أوقع به في «مرج الصفر» جنوب دمشق عام ٦٣٤ م.

وأيا ما كان الامر، فإن الروايات العربية تنظر إلى «جبلة بن الايهم» على أنه آخر الغساسنة وأنه قد حارب المسلمين في جانب الروم في موقعه اليرموك عام ٦٣٦ م[١].

---

(١) أحمد سليم. المرجع السابق. صفحات ١٩٣ ـ ١٩٤.
قارن: محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٥٧٣ ـ ٥٧٥.

ثامناً: مملكة كندة

كندة هي قبيلة قحطانية تنسب إلى ثور بن عفير بن عدى ابن الحارث ابن مُـرّة، وينتهي نسبه إلى كهلان بن سبأ، وقد عرفت عند الاخباريين بـ(كندة الملوك)، لأن الملوك كان لهم على بادية الحجاز من بني عدنان، ولأنهم ملكوا أولادهم على القبائل. وكانوا يتعززون بنسبهم إلى كندة، وكندة هي (كدت) وهي القبيلة التي ورد ذكرها في نص أبرهة، وفي نصوص عديدة قبل هذا العهد، إذ ورد ذكرها في إحدى النصوص التي تنسب إلى واحد من ملوك سبأ وذي ريدان، ويرجع إلى النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد، وقد جاء في هذا النص أنه في عهد الملك «شعراوتر» انضمت كندة والتي كان يحكمها «ربيعة» من آل ثور، والذي كان ملكاً على قحطان أيضاً، إلى صفوف أعداء ملك سبأ وذي ريدان. وكانت كندة مستقلة وعلى رأسها ملك، في أيام «الشرح يخصب» ملك سبأ، وكان ملكها إذ ذاك من المناهضين المعادين للمك «الشرح يخصب» واشترك في الحلف الكبير الذي تألف ضد مملكة (سبأ وذي ريدان)، وقد منيت (كندة) بهزيمة على يد جيش سبأ ووقع ملكها في الاسر وكان يدعى (مالك)، وفقدت كندة بعد هذا العهد استقلالها في وقت لا نستطيع تحديده لعدم ورود شيء عنه في النصوص، وصارت خاضعة لحكم دولة سبأ وذي ريدان[1].

---

(١) المرجع السابق. صفحات ٥٩٩ ـ ٦٠١.
قارن: جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ٣١٦ ـ ٣١٨.

وأول من ذكر اسم كندة من المؤلفين الكلاسيكيين هو نونوس وقد دعاها باسم (Kindynoi) أي كندة، وذكر أنها وقبيلة (مادينوى) كانتا من أشهر القبائل العربية عدداً ومكانة، يحكمها رجل واحد اسمه (قيس)، وتعتبر كتابات الاخباريين من أهم المصادر التي يعتمد عليها المؤرخ في دراسة مملكة كندة، ويأتي في مقدمة هؤلاء الاخباريين ابن الكلبي وله مؤلف خصصه لتاريخ كندة، سماه: (كتاب ملوك كندة)، وله مؤلفات أخرى لها علاقة بهذه القبيلة، وأبو عبيدة والاصمعي وغيرهم.

ويذكر الاخباريون أن مواطن كندة الاصلية كانت بجبال اليمن مما يلي حضرموت، وإن جماعات من كندة قد غادرت مواطنها في النصف الاول من القرن الرابع الميلادي، واتجهت شمالاً حتى نزلت في مكان دعي فيما بعد «غمر كندة أو غمر ذي كندة» - وهي أرض لبني جنادة بن معد في نجد، وتقع وراء «وجرة» على مسيرة يومين من مكة. على أن الاخباريين إنما يختلفون في أسباب هجرة الكنديين إلى الشمال، فذهب فريق إلى أن السبب إنما كان حرباً استعر أوارها بين حضرموت وكندة، ثم طال أمدها حتى كادت أن تقضي على الكنديين، ومن ثم فقد اضطروا إلى النزوح إلى الشمال، فراراً بأنفسهم من الفناء[1].

وعلى أي حال، فربما كانت هذه الروايات جميعاً، إنما تمثل مرحلتين من تاريخ كندة، الاولى تمثل الهجرة من اليمن إلى نجد، والثانية تمثل مرحلة استقرار الكنديين في مواطنهم الجديدة، وكيف كونوا لهم إمارة في نجد، ومن ثم فيمكن القول إن هذه المرحلة الثانية إنما تمثل التاريخ الحقيقي لكندة. ولعل الهدف من إقامة دولة كندة، إن التبابعة لجأوا إلى ذلك كوسيلة للسيطرة على الطرق التجارية الشمالية التي كانت ترتادها قوافل اليمن التجارية، حتى يأمنوا اعتداء قبائل البدو الشمالية عليها، وبخاصة أن الدول الكبرى القائمة على تخوم الصحراء، إنما كانت وقتذاك تحاول أن تؤلف القبائل لتحمي حدودها من غزواتها، وتمدها بالجند، وتسير معها في

---

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٦٠١ - ٦٠٢

الحروب متحالفة على أعدائها، فإذا كان ذلك صحيحاً، فإن توليه حجر آكل المرار سياسة يمنية حكيمة، فقد كانت عصبة حجر يمنية، وكان هو من أسرة تولت الملك في بلادها الاولى، ثم إن هذه الاسرة كانت قد استقرت في الشمال منذ فترة عرفت فيها اتجاه العصبيات وفهمت العقلية الشمالية، وهكذا يكون ملوك حمير قد حققوا من إقامة دولة كندة، ما حققه الروم من إقامة دولة الغساسنة، والفرس من إقامة دولة اللخميين، وتصبح كندة لتبابعة اليمن، ما كان اللخميون للفرس والغساسنة للروم[1].

ويرى بعض المؤرخين أن حجر بن عمرو (٤٨٠ ـ ٥٢٨ م) يعد أول ملوك كندة، وربما كان ذلك بناء على ما رأوه تقليداً شرعياً بالولاية من قبل ملك العرب الاكبر، حسان بن تبع الحميري، هذا إلى جانب أن حجراً يمكن أن يعتبر أول شخصية تاريخية في قائمة ملوك كندة يمكن الاطمئنان إليها. هذا وقد تمكن حجر بن عمرو أن ينتزع جانباً من الارض التي كانت تحت سيطرة المناذرة، ثم نزل في مكان يدعى «بطن عاقل» ـ جنوب وادي الرمة على الطريق بين مكة والبصرة. وهكذا تسرب النفوذ الاجنبي إلى مكان جديد في شبه الجزيرة العربية، وهو نفوذ رومي مناهض لنفوذ الفرس في الحيرة ومغلف بسياسة يمنية ظاهرة. وإن كان هناك من يخالف هذا الاتجاه اعتماداً على أن الروايات العربية ذهبت إلى أن الذي أقام حجراً ملكاً على كندة، إنما هم الحميريون وليس الروم أو الاحباش، كما أن اليمن لم تكن وقتذاك تسير في فلك النفوذ الرومي أو الحبشي، فضلاً عن أن ملوك كندة إنما عملوا بعد ذلك عند الفرس، وليس عند الروم أو الاحباش، وإن تحالفوا مع الروم حيناً من الدهر وكان للحجر آكل المرار وقائع مع الغسانيين، فيقال إن الحارث الغساني أغار عليه واستولى على أمواله، ولكنه نجح في استعادتها

---

(١) المرجع السابق. صفحة ٦٠٣.
قارن: سعد زغلول عبد الحميد. صفحة ٢٣٣.
سبتينو موسكاتي. المرجع السابق. صفحة ٣٥٦.
عمر فروخ. المرجع السابق. صفحة ٨٣.

منه. وتوفي حجر آكل المرار في (بطن عاقل) في وقت لا نستطيع تحديده على وجه اليقين، وإن اتجه البعض إلى تحديده بالعقد الاخير من القرن الخامس الميلادي[1].

وخلف (حجر آكل المرار) ولده المعروف بالمقصور (عمرو بن حجر)، ربما لأنه اقتصر على ملك أبيه، وربما لأن (ربيعه) قد اضطرته إلى ذلك، وأنه لم يحمل لقب (ملك) وإنما اكتفى بلقب (سيد كندة)، وإن اليمامة إنما كانت من نصيب أخيه معاوية المعروف بالجون، ويبدو أن «عمراً بن حجر» كان على علاقة طيبة بملوك اليمن، ومن ثم فقد تزوج بنتاً لحسان بن تبع أسعد الاكبر، كما كانت كذلك باللخميين، ولهذا فقد تزوج «الاسود بن المنذر» ملك الحيرة من (أم الملك) ابنة عمرو المقصور، فولدت له (النعمان بن الاسود)[2].

هذا وقد اختلفت الآراء حول علاقة (عمرو المقصور) بالغساسنة، فذهب البعض إلى أنها كانت علاقة عدائية، وإن عمراً كان في أحايين كثيرة يشن الغارات عليهم، بينما ذهب فريق آخر إلى إن العلاقات بينهما كانت طيبة، وإن عمراً قد تزوج من (هند الهنود) بنت (ظالم بن وهب)، وكانت أختها (ماريا) زوجة للحارث الغساني الاكبر. هذا وقد قامت (ربيعة) بثورة على (عمرو المقصور) منتهزة فرصة الضعف في آل كندة على إيامه، وكان قد ظهر من بني تغلب في نفس الوقت رجل قوى هو (وائل بن ربيعة) تمكن من انتزاع جميع قبائل ربيعة التي كانت تحت سيطرة آل كندة، ثم التقى مع عمرو في معركة على مقربة من جبل القنان، انتهت بقتل عمرو وتحرير قبائل ربيعة من سيطرة آل كندة إلى حين[3].

وجاء بعد عمرو ولده الحارث، وقد اختلف المؤرخون حول تحديد فترة

---

(١) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحة ٣٢٥.

(٢) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٦٠٧ ـ ٦٠٨.

(٣) المرجع السابق. صفحة ٦٠٨.

قارن: عمر فروخ. المرجع السابق. صفحات ٨٧ ـ ٨٨.

حكمه فذهب البعض إلى أنها كانت من عام ٤٩٥ ـ ٥٢٨ م، وذهب آخرون أنها كانت من عام ٤٩٥ ـ ٥٢٤ م، وعلى أي حال فلقد كان الحارث أقوى ملوك كندة وأعظمهم شخصية، وعلى عهد الحارث وصلت كندة إلى أوج ازدهارها، فقد نجح في استعادة سلطانه على قبائل ربيعة في نجد، وبني أسد وبني كنانة وبني بكر. هذا وقد بدأ الحارث بغزو فلسطين عام ٤٩٧ م، إلا أن الحاكم الروماني قد ألحق بجيشه هزيمة منكرة، ولكن حدث بعد ذلك أن بدأت قبائل البلغار والصقالبة تتغلغل في تخوم الامبراطورية البيزنطية الشمالية، ثم سرعان ما تعود الحرب بين الروم والفرس من جديد عام ٥٠٢ م، وهكذا رأى الامبراطور الروماني أن يقلل من أعدائه، فعقد مع الحارث معاهدة تنص على أن يترك آل كندة مهاجمة الشام، وأن يتعاونوا مع الروم على قتال الفرس والمناذرة. أما فيما يتعلق بالفرس، فقد انتشرت الاضطرابات على أيام قباذ (٤٨٨ ـ ٥٣١ م) وقد قام هذا الملك بدعوة (المنذر بن ماء السماء) إلى المزدلية وهي مبادىء تدعو إلى نوع من الاشتراكية في الاموال والنساء، فأبى، وأسرها قباذ في نفسه، وعندما ما عرض دعوته هذه على الحارث الكندي أسرع بإجابته إليها، ومن ثم فقد عزل المنذر عن عرش الحيرة، وأقام مكانه الحارث الكندي، وعندما استشعر الحارث الكندي ضعف الملك الفارسي، بدأ يخطط لنفوذ أوسع في العراق على حساب الفرس، وهكذا أمر رجاله بأن يشنوا الغارة على السواد، ويعلم قباذ بالامر، فيكون جوابه على ذلك إعطاء الحارث الكندي بعض المناطق التي تقع في مجاورات الحيرة، إلا أن الحارث كان أكثر طموحاً، فكتب إلى «تبع» ملك اليمن أن يجمع الجنود ويأتي إليه، واستجاب تبع للحارث وأقبل بجنوده وسار بهم حتى نزل بالحيرة، ثم وجه ابن أخيه «شمر ذي الجناح» إلى قباذ فحاربه وانتصر عليه، أما التقاء الحارث بقباذ فكان عند قنطرة الفيوم، وهي موضع لا يبعد كثيراً عن «هيث» وهي بلدة على الفرات[1].

---

(١) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ٣٣٤ وما بعدها.
قارن: محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٦٠٨ وما بعدها.

هـذا وقد اختلف المؤرخـون في مقـر الحكم الـذي اختـاره الحـارث الكندي في العراق، فبينما يذهب فريق إلى أنه في الحيرة، يرى آخرون أنه في «الانبار» وتقع على مبعدة أربعين ميلاً إلى الشمال الغربي من بغداد. وأيا مـ كان الامر، فإن ملك الحارث لم يستمر طويلاً في العراق، فعندما اعتلى عـرش الفـرس (كسـرى أنـو شـروان) ٥٣١ ـ ٥٨٩ م، قـام بـطرد الحـارث الكنـدي، وأعاد المنـذر الثالث إلى عـرش الحيرة، وقـام هذا الاخيـر بتتبـع الحارث الكندي وأهله، حتى أسر إثني عشر أميراً من بني حجر بن عمرو، ثم قتلهم وكان من بينهم الحارث. ولا شـك أن ذلك المصيـر التعس الذي لقيه الرجل، ومن أسر من أهل بيته، إنما كان ضربه في الصميم وجهت إلى دولة كندة، وسرعان مادب الشقاق فيهـا، فانحلت عـراها بعـد أن قتل أبنـاء الحارث واحداً بعد الآخر. ولم يكتف المنذر اللخمي بذلك بل عمـل على تشتيت شمل أبنائه والتفريق بينهم حتى نشبت بين اثنين منهم وهمـا (سلمة) و (شرحبيل) الحرب التي عرفت بين العرب (بيوم الكلاب الاول) وأعلن فيها كل من الاخوين عن جائزة مقدارها مائة من الابل لمن يأتيه برأس أخيه، وكان يوماً عصيباً اشتدت فيـه الحرب حتى أخر النهار، وانتهى بقتـل شرحبيـل. وتفرق الابناء جميعهم، وقد أثرت كل هذه الاحداث على دولة كندة، فعملت على إضعاف ملوكها وتضعضع نفوذهم، فكانت البداية تتمثل في خروج بني أسد على (حجر ابن الحارث) فامتنعوا عن دفع الاتاوة التي كان قد فرضهـا عليهم من قبل، ومن ثم فقد خرج عليهم حجر من تهامة، وما إن وصل إلى ديار بني أسد في جنوب جبل طيء حتى قتل الكثير من أشرافهم، وأخذ بعضاً منهم أسرى إلى تهامة، مما ترك أثراً سيئاً في نفوس القوم، فعقدوا العزم على الانتقام، وما لبثوا أن نفذوا وعيدهم، وقتلوا الرجل. وتولى مقاليد الامر بعده ابنه (امرؤ القيس) الشاعر المشهور وكان أصغر أبنائـه، وكان أبيـه حجر قـد طرده وأصر على أن لا يقيم معه، أنفه من قوله الشعر، على غير عـادة أبناء الملوك، فضلاً عن التغزل بالنساء غزلاً، وهكذا أخـذ امرؤ القيس يسيـر في احيـاء العرب، ومعـه إخـلاط من شـذاذ العـرب، يشـرب الخمـر، ويتغـزل بالنساء، وظل كذلك حتى أتاه خبـر مقتل أبيـه، فأقسم ألا يـأكل لحمـاً ولا

يشرب خمراً، ولا يدهن بدهن، ولا يصيب امرأة، ولا يغسل رأسه من جنابة حتى يدرك ثأره. وبدأ أولاً بضم بكر وتغلب إليه ثم بث العيون على بني أسد، فعلم أنهم لجأوا إلى بني كنانة، ومن ثم فقد بدأ هجومه على بني كنانة ـ وهو يظنهم بني أسد ـ إلا أن القوم سرعان ما أخبروه أن بني أسد قد ساروا بالامس ـ فأسرع إليهم حتى إذا ما أدركهم أنزل بهم هزيمة قاسية، غير أن قبيلة تغلب وبكر رفضت الاستمرار في القتال بعد ذلك، مما اضطره أن يطوف بقبائل العرب يستنصرها على قتلة أبيه، واستجاب له بعضهم، ورفض آخرون خوفاً من بني أسد، وخوفاً من أغضاب المناذرة والفرس، وقرر امرؤ القيس أن يذهب إلى القسطنينية ليستنجد بملك الروم، الذي أحسن استقباله، وإن لم يقدم له المساعدة المطلوبة، فالنجدة التي طلبها امرؤ القيس كبيرة جداً، والجيش الرومي لم يكن مستعداً للقتال في الصحراء، ثم إن الغاية التي جاء من أجلها امرؤ القيس ـ وهي الاخذ بثأر رجل واحد ـ كانت بعيدة عن سياسة الروم ومألوفهم، فضلاً عن أن الامبراطورية الرومانية كانت مهددة بهجمات البرابرة، ومن ثم فالامبراطورية كانت في حاجة إلى الدفاع عن إمبراطوريتها نفسها.

ومع ذلك فقد ارسل الامبراطور جستنيان جيشاً كثيفاً مع امرؤ القيس، فبلغ ذلك بني أسد، فأرسلوا رجلاً منهم يدعى (الطماح) اتصل بجماعة من رجال القيصر وطلب منهم أن يبلغوا القيصر «إن العرب قوم غدر، ولا نأمن أن يظفر امرؤ القيس بما يريد، ثم يغزوك بمن بعثت معه». ولكن حدث بعد ذلك أن توفي امرؤ القيس وهو في ديار الروم على أثر مهاجمة داء قديم له كان مصاباً به. وعلى ذلك انقطع آخر امل في استعادة «بني آكل المرار» لملكهم في كندة.

وهكذا انتهت أول محاولة في داخل بلاد العرب لتوطيد مجموعة من القبائل حول سلطة مركزية واحدة لها زعيم واحد، إذ سرعان ما عادت عشائر كندة إلى الجنوب، حيث ساد منهم (قيس بن معد يكرب) ثم ابنه (الاشعث). ثم تكونت بعد نهاية دولة بني آكل المرار، إمارة كندية في

حضرموت، فضلاً عن إمارات أخرى حكمها أمراء صغار، لا تتجاوز سلطة الواحدة منهم مدينة أو وادياً، وأشهرها تلك التي كانت في دومة الجندل والبحرين ونجران وغمر ذي كندة[1].

---

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٦١٣ ـ ٦٢٥.
قارن: جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ٣٣٧ ـ ٣٤٢.

القسم الثاني

الخلفية الحضارية

الفصل الرابع
العلاقات الخارجية

العلاقات العربية المصرية[1]

كانت جزيرة العرب اسفينا يفصل بين مركزي الثقافة القديمة ـ مصر وبابل.

وعلى الرغم من أن الجزيرة لم تقع تحت سلطان الثقافة التي ترعرعت وازدهرت في وادي النيل ووادي الرافدين، فإنها لم تستطع أن تتخلص من تأثيرها. على أن ثقافة الجزيرة في قرارتها كانت ثقافة محلية صرفة حاكت الثقافات التي نشأت على سواحل البحار. ولقد أصبح سكان الجنوب الشرقي منها أرباب تجارة توسطوا في سوق التجارة بين مصر وما بين النهرين والبنجاب ـ وهي مراكز ثلاثة هامة للمتاجرة في العصور القديمة ـ وبإسمهم تسمى البحر الفاصل بين هذه البلدان.

ولقد كان التماس بين افريقيا والجزيرة في الشمال عند شبه جزيرة سيناء حيث يمر خط بري، وجنوباً حيث تقترب الجزيرة من أفريقيا عند باب المندب، فلا تحول دون اتصالهما إلا مسافة خمسة عشر ميلاً، ويربط البرين في أواسط ساحل الجزيرة الغربي خط البحر الاحمر إلى القصير فوادي الحمامات قبالة انعكاف النيل بالقرب من طيبة، وكان هذا الخط الاخير أهم

(١) فيليب حتى. المرجع السابق. صفحات ٤٠ ـ ٥٩.
كذلك راجع الدراسة القيمة الصادرة حديثاً للدكتور سيد الناصري.
المصريون والعرب وعلاقتهم بإفريقيا في العصور القديمة.
دار النهضة العربية. القاهرة ١٩٩٠.

خطوط الاتصال الوسطى. وقد احتفرت الاسرة الثانية عشرة (نحو ٢٠٠٠ - ١٧٨٨ ق. م) قناة فوق بلبيس تربط النيل بالبحر الأحمر. وإعادة البطالسة معالم هذه القناة وهي بمثابة الام الاولى لقناة السويس. وجاءت دول الاسلام فأعاد الخلفاء فتحها وبقيت إلى أن تم اكتشاف خط رأس الرجاء الصالح (١٤٩٧ م) المؤدي إلى الهند.

نحاس سيناء[١]

لقد كان مبعث اهتمام المصريين في شبه جزيرة سيناء ما فيها من مناجم النحاس والفيروز المتوافرة في وادي مغارة بجنوب سيناء قريباً من البلدة المعروفة اليوم بالطور. وفي العهد السابق لفجر التاريخ المصري كان بدو سيناء يبيعون هذه المنتوجات الثمينة في أسواق وادي النيل. ولقد تولى فراعنة الاسرة الأولى شؤون التعدين في سيناء ولكنها لم تبلغ دور استثمارها الزاهر إلا أيام سنفرو (نحو ٢٧٢٠ ق. م) من فراعنة الاسرة الثالثة. وكانت الطريق العظمى التي تربط مصر بسورية وفلسطين وتصل منها إلى أنحاء الهلال الخصيب وآسيا الصغرى يتجه منها فرع جنوبي غربي إلى مناجم النحاس والفيروز في سيناء. ولقد عثر الاثري بتري سنة ١٩٠٠ على قطعة من العاج في ضريح ملكي للأسرة الفرعونية الاولى في ابيدوس تحمل رسم رجل سامي كتب عليها «أسيوي» ويمثل الرسم رجلاً ذا لحية حليق الشاربين ولعله من عرب الجنوب. وهناك نقش بارز أقدم عهداً من هذا يعود إلى الاسرة الاولى أيضاً نرى فيه زعيماً بدوياً ناحل البدن يرتدي مئزراً وهو يزحف متذللاً أمام آسره المصري الذي هم بهراوة ينوي بها سحق رأسه. وهذان الرسمان هما أقدم الرسوم الموجودة التي تمثل البدو. ويقابل لفظة بدوي في المصرية «عمو» ومعناها بدوي أو أسيوي، وقد ظهرت كثيراً في المدونات الاولى وهي تشير أحياناً إلى البدو القاطنين حول الأراضي المصرية وخارج نطاق الجزيرة. وإن أول مصري زار فلسطين وأبقى لنا أثراً ينبيء عن أخبار رحلته هو سنوهي الذي ظهر في دولة امنمحات الاول (نحو ٢٠٠٠ - ١٩٧٠ ق. م) وهو يشير

---

(١) المرجع السابق. نفس الموضع.

إلى نفسه بلقب «ملك بين البدو»[1]. وفي أثر تاريخي آخر كلام يشعرنا بأن امنمحات الاول نفسه حمل على «البدو ففرق شملهم مثل الكلاب الضالة»[2].

اللبان

ولقد توطدت العلاقة بين جنوبي الجزيرة ومصر أيام أنشأت مصر صلات التجارة مع (بونت) والنوبة. ولقد ذكر هيرودتس أن، سنوسرت الأول (١٩٨٠ - ١٩٣٥ ق. م) من الأسرة الثانية عشرة قد افتتح الامصار المتاخمة للخليج العربي ولعلها الشقة الافريقية من البحر الأحمر. ثم كان للأسرة الثامنة عشرة أسطول في البحر الأحمر. ولكن منذ عهد الاسرة الخامسة كان ساهوري (٢٧٤٣ - ٢٧٣١ ق. م) قد رأس أول حملة بحرية بطريق البحر الاحمر إلى بلاد تفيض لباناً يتضح أنها بلاد الصومال على الساحل الافريقي.

وكان أهم ما يجذب المصريين إلى جنوبي الجزيرة هو اللبان الذي كانوا يقدرونه كثيراً إذ كانوا يحرقونه في هياكلهم ويستعملونه في تحنيط موتاهم، وكانت تلك البقاع من الجزيرة غنية جداً بهذا اللبان. ولما تم لفرعون النصر على النوبة وضم أرض بونت (الصومال الحديثة) إلى نطاق الامبراطورية المصرية التجاري نظم حملات شتى سارت إلى هذين البلدين في طلب «المر والصموغ العطرة والراتينج والاخشاب الزكية» منها حملة جردتها حتشبسوت (نحو ١٥٠٠ ق. م) إلى بونت وهي أول امرأة تصدرت التاريخ. وأما خليفتها تحتمس الثالث، فلقد عادت سفنه من تلك الارجاء حامله طرائف «العاج والابنوس والارقاء وجلود الفهود» ولما كانت اليمن في الجنوب الغربي من الجزيرة تمتاز بهذه السلع الثمينة أيضاً فلا يستعبد إن المصريين إنما أطلقوا لفظة فوط على البلدين اللذين يفصل بينهما باب المندب. ويظن أن الذهب أيضاً كان يصدر من الجزيرة وكانت تجارة البخور

---

(١) Breasted, Ancient Records of Egypt, Vol, I. p. 940.

(٢) Ibid, p. 483.

الآتية من جنوبي الجزيرة تمر بوادي الحمامات بحيث أصبح ذلك الخط الأوسط أهم حلقة للإتصال ببلاد العرب الجنوبية. واشتهرت حضرموت وهي بين اليمن وعمان بأنها كانت أرض البخور واللبان وأهم مدنها آنئذ ظفار وهي ذفر اليوم من مقاطعات الساحل، ولسلطان عمان نفوذ أسمى عليها ويجب أن لا يخلط بين ظفار هذه التي كانت المركز التجاري لبلاد اللبان وهي على الساحل الجنوبي وبين ظفار المدينة اليمنية الداخلية التي كانت عاصمة حمير ولا تزال أشجار اللبان تنمو في حضر موت وغيرها من أنحاء الجنوب ولا تزال ظفار كما كانت في الماضي مركزاً تجارياً.

وجدير بالذكر أن المصريين القدماء لم يستقلوا بميدان المصالح التجارية في الجزيرة فلقد كان ينازعهم في تجارة الطيوب والمعادن منافسون أشداء في مقدمتهم أبناء بابل[1].

اتصال العرب بالسومريين والبابليين

ولقد تاخمت بلاد العرب الشرقية أرض الرافدين، وكان سكان العراق القدماء السومريون والاكديون، قد اتصلوا بمن جاورهم من أهل البلاد الغربية (الامورو) وذلك قبل الالف الرابع السابق للميلاد فنشأت بين الطرفين علاقات عن طريقي البر والبحر. والراجح أن السومريين استحضروا النحاس (وهو أول المعادن التي اكتشفها الانسان واستعملها) من مناجمه في عمان.

وهناك كتابه على تمثال من حجر الديوريت «لنارام سين» (نحو ٢٣٠٠ ق. م.) وهو سليل سرجون (أول عظماء الساميين في التاريخ ومؤسس الدولة الأكدية في وادي الفرات) وخليفته، وهي تنص أنه أخضع «ميجان» وغلب سيدها مانيوم. وأنبأنا جوديا (نحو ٢٤٠٠ ق. م.) السومري حاكم «لجش» أنه دبر حمله على «ميجان» و«ملوخا» طلباً للتجارة والخشب لبناء هيكله. وقد أمعن علماء اللغة الاشورية في تقصى أصل هذين الاسمين الدالين على مكانين ولعلهما أطلقا أولاً على بقعتين في شرق الجزيرة وأواسطها

(١) فيليب حتى. المرجع السابق. صفحات ٤٠ ـ ٤٣.

ثم في العصر الاشوري جعلوهما اسمين لموضعين أبعد مسافة يظن أنهما في شبه جزيرة سيناء أو أفريقيا الشرقية. ورأى بعضهم أن ملوخاً موطن العمالقة في سيناء بجوار البتراء ولا تمت «ميجان» من حيث الاشتقاق بصلة إلى معان وهو اسم الواحة المعروفة في شمالي الحجاز (وهي الآن في شرق الاردن) وكانت على الاغلب مستعمرة قديمة على طريق القوافل التي ذكرها كتاب اليونان والرومان ومهما يكن من أمر فإن لنا في هذه الكتابة أول إشارة مدونه في التاريخ إلى موضوع معين في الجزيرة وإلى قوم من العرب. وفي كتابة أخرى أقرب عهداً خلفها لنا أردننر (نحو ٢٣٠٠ ق. م) ذكر أرض «سبو». ولا سبيل إلى التسليم أنها هي سبأ العربية.

وجاء في النقوش ذكر «الارض البحرية» وكان الرأي السائد إلى الآن أنها الاغوار الواقعة إلى الشمال من خليج العجم. غير أن هناك نظرية جديدة تجعلها جزءاً من الجزيرة نفسها يشمل شواطىء خليج العجم الغربية إلى غاية جزيرة البحرين (دلمون قديماً)، وربما كانت الاراضي البحرية تشمل أيضاً النفود حتى حدود العقبة على البحر الأحمر. وتفيد النقوش أيضاً أن نبو بولاصر كان ملك الارض البحرية قبيل توليه عرش بابل[١].

٣ ـ توغل الاشوريين في البادية

وأول إشارة ثابتة إلى العرب، هي تلك التي وردت في نقش للملك الاشوري شلمناصر الثالث الذي قاد في السنة السادسة لملكه حملة على ملك دمشق الارامي وحليفيه آخاب ملك أسرائيل وجندب أحد مشايخ العرب، فاصطدم الجيشان في قرقر شمالي حماة عام ٨٥٤ ق. م وإليك كلمات شلمناصر: (قرقر عاصمته الملكية أنا خربتها أنا دمرتها أنا حرقتها بالنار ١٢٠٠٠ مركبة ١٢٠٠٠ فارس، ٢٠،٠٠٠ جندي لهدد عازر صاحب أرام (دمشق؟) ١٠٠٠ جمل لجندب العربي .... هؤلاء. الملوك الإثنا عشر الذين استقدمهم لمعونته، برزوا إلى المعركة والقتال، تألبوا على).

ومن بديع الاتفاق إن اسم أول عربي يسجله التاريخ جاء مقروناً باسم

(١) المرجع السابق. صفحات ٤٣ ـ ٤٥.

الجمل. وبدل تاجلات بالسر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق. م) مشيد الأمبراطورية الاشورية الثانية، قصاراه لتأمين سلامة الطرق التجارية التي كانت تخترق أقسام الدولة المترامية ثم تنعطف إلى البحر المتوسط، فحمل على سورية وأنحائها حملات عسكرية متعاقبة. وفي السنة الثالثة لملكه ضرب الجزية على زبيبي ملكة أرض «الاربي» ودونت سجلاته أنه في عام ٧٢٨ ق. م. أتته الجزية من قبيلة (مسأى) ومدينة تمأى (تيماء) والسبأى (سبأ) ذهبا وإبلا وطيوباً. وهذه القبائل إنما كانت تقطن شبه جزيرة سيناء والبادية الواقعة في شمالها الشرقي.

وحوالي سنة ٦٨٨ ق. م. أخضع سنحاريب «ادومو معقل بلاد العرب» وحمل آلهتها إلى نينوى وأسر ملكتها التي كانت في الوقت نفسه كاهنة الأله. وليست ادوموا إلا واحة الشمال التي بلغت شأوا عظيماً بعدئذ على عهد الفتوحات الاسلامية وعرفت بدومة الجندل. أما الملكة واسمها تلخنو (تعلخنو) فكانت قد حالفت البابلين الخارجين على سلطة أشور وساعدهم جزائيل سيد قبيلة قيدار (كدري في الاشورية) الذين كان مقرهم في نواحي تدمر.

وفي سجلات الاشوريين إشارات كثيرة إلى زعماء العرب «يقبلون أرجل» ملوك نينوي رافعين إليهم الهدايا فيها الذهب والحجارة الكريمة وأنواع الكحل واللبان والجمال والحمير. والواقع أن الأنباء متوافرة عن زهاء تسع حملات جردها سرجون الثاني وسنحاريب وأسرحدون وأشور بانيبال لمعاقبة قبائل البدو التي لا تقهر بسبب مضايقتهم للممتلكات الاشورية في نواحي الشام واعتراضهم طرق القوافل التجارية وتلقيهم العون والمساعدة من مصر وبابل عدوتي أشور، وأما لفظتا «أربي» و«أريبى» الواردتان في مدونات هذه الحملات فإنهما تدلان على البدو بالاكثر. وبلادهم المسماة «أربي» تشمل على الأرجح بادية الشام وشبه جزيرة سيناء وشمالي الجزيرة. وفي سيناء كان أهل مدين (مديان) الوارد ذكرهم في التوراة هم الذين خضعوا لاشور وليس الانباط لأن هؤلاء لم تكن قد استتبت قدمهم في سيناء بعد. أما السبئيون

الاصليون من أهل الجنوب فلم يخضعوا قط لنينوى ومع أن الأشوريين يدعون بحق رومان العالم القديم فإنهم لم يستطيعوا أن يبسطوا سلطانهم إلا على بعض الواحات وبعض القبائل في شمالي الجزيرة وذلك بصورة اسمية فقط. وليست سجلاتهم التي بين أيدينا إلا «بلاغات رسمية» قصد بها «تسكين الخواطر» في مناطق نفوذهم(١).

صلة العرب بالكلدانيين والفرس: تيماء:

وفي هذه الحقبة أحرزت تيماء مكانة رفيعة بين قريناتها من مدائن الشمال لأن نبونيد (٥٥٥ ـ ٥٣٨ ق. م) آخر ملوك الكلدانيين، اتخذها مقراً إقليمياً له. وكان الكلدانيون قد توارثوا أملاك الدولة الاشورية ومنها أمصار الشام وشمال الجزيرة التي آلت إلى دولة أشور في عهد تاجلات بالسر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق. م).

كانت واحة تيماء في شمال الحجاز على طريق عظيم قديم يربط خليج العقبة والبتراء غرباً بخليج العجم شرقاً. ولقد قطعتها أيضاً قوافل الراحلين من الشام ونواحي الشمال إلى اليمن في الجنوب فصارت محطة لهم يعرجون عليها في سفرهم. وهي وسطى بين مكة والشام وفي منتصف الطريق بين بابل ومصر لذلك بلغت مكانة وعزة تتناسبان وموقعها الجغرافي. وكان يقطنها الاراميون قديماً.

وأهم إشارة في الكتابات لهذه الواحة العربية ما دون في وثيقة تاريخية تتعلق بسقوط بابل (٥٣٨ ق. م) على يد الفرس. فقد أبانت هذه الوثيقة أن نبونيد كان في «آل تيما» وذلك في السنوات السابعة والتاسعة والعاشرة والحادية عشرة من ملكه بينما كان ابنه (أي بلشاصر) مع الجند مقيمين في البلاد البابلية ويتعذر علينا اكتناه ما حمل نبونيد إلى الحلول في تيماء.

وسنه ٥٢٥ اجتاز قمبيز شمالي الجزيرة فحالف أقوامها وهو في طريقه إلى غزو مصر. وقد ذكر هيرودتس في صدد الكلام عن داريوس ما نصه:

---

(١) المرجع السابق. صفحات ٤٥ ـ ٤٨.

«ولقد اعترف بسلطانه جميع أقوام آسيا الذين كان قد أذلهم كورش ثم قمبيز بعده إلا العرب، فهؤلاء لم يخضعوا البته لسلطان فارس إنما كانوا أحلافها، ولقد مهدوا لقمبيز سبيل التوصل إلى مصر، ولولاهم لما أمكنه القيام بهذه المهمة»(١).

اتصال العرب بالعبرانيين

كان اليهود من الناحية الجغرافية جيران العرب الاقربين وكانوا من الناحية الجنسية أقرب الشعوب نسباً إليهم. ولقد توافرت في التوراة الاشارات التي تشعر بأن أصل العبرانيين كان من الصحراء.

وعرجت قبائل العبرانيين على سيناء والنفود في أثناء خروجها من مصر إلى فلسطين حوالي سنة ١٢٢٥ ق. م. وتنقلت في تلك الربوع زهاء أربعين سنه. ولقد قطع بنو اسرائيل العهد الالهي في مدين وهي تضم جنوبي سيناء والارض الواقعة إلى الشرق منها. ويخيل لنا أن يهو (يهوه) اله قبلي كان يعبده المدينيون أو سواهم من أهل الشمال. وهو أحد آلهة البادية طبعه البساطة والشدة، يسكن خيمة ولعبادته طقوس ليست على شيء من الاتقان والتعقيد، وهي تتناول الاعياد البدوية والتقدمات والمحروقات يقدمونها من الماشية. دخل العبرانيون فلسطين وهم ذوو بداوة وخشونة فاستعمروا أرض الكنعانيين وأخذوا عنهم تمدنهم إلا أن التقاليد القبلية والشعائر البدوية ما برحت بارزة في حياتهم على تعاقب الاجيال.

وكانت المملكة العبرانية في أوج عزها تضم شبة جزيرة سيناء وكان اسطول سليمان يرسو في خليج العقبة. وعلى الأرجح أن «اوفير» التي أبحرت إليها سفن حيرام وسليمان في طلب الذهب وخشب الصندل والحجارة الكريمة هي ظفار من أعمال عمان حتى إذا كانت أيام أيوب صارت «اوفير» مضرب المثل لوفرة التبر في تربتها. وملك يهو شافاط بعد سليمان بأكثر من قرن، فكانت سطوة العبرانيين لا تزال مهيمنة على أيلة «العقبة اليوم» وما يتصل بها

(١) المرجع السابق. صفحات ٤٩ ـ ٥٠.

من خطوط التجارة. تجيئه الجزية من العرب الذين «أتوه بغنم». وصرح سنحاريب ببيانه عن أخبار الحملة التاسعة التي أناخ بها على سورية قال: «أما حزقياً فإن هيبة جلالتي المرعبة غلبته حتى حدث أن الأربي (العرب) والمرتزقة (؟) من جنوده الذين اصطحبهم لتعضيد أورشليم قاعدة ملكه هجروه». وانصرف حزقياً وعزياً قبله إلى مقاتله المعونيين المقيمين في واحة معين (معان اليوم بجوار البتراء) وما يدانيها. واسترد عزياً وهو يعرف بعزرياً أيضاً أيله ليهوذا وبني البلدة وفي سفر الاخبار الثاني تفاصيل غارة شنها عرب الجنوب على يهوذا فسبوا بنى الملك يورام ونساءه وكل ما وجد من المال في بيته أخذوه. فهل يصدق أن أهل سبأ الاباعد وهم «العرب الذين بقرب الكوشيين» تسنى لهم القيام بمثل هذه الغارة؟ وفي أيام نحمياً في متوسط القرن الخامس قبل الميلاد كان اليهود قد أخذوا يحسبون جيرانهم الذين يسكنون الجنوب الشرقي منهم أعداء لهم[1].

العرب في آداب اليونان والرومان

ولقد أحاط اليونان والرومان عامة بأحوال الجزيرة والعرب لأن هذه البلاد على طريقهم إلى الهند والصين وكانت تنتج السلع المرغوبة جداً في أسواق الغرب. وكان سكانها كأقاربهم القدماء من أبناء الشمال أي الفينقيين هم الوسطاء أو العملاء في التجارة بين بلاد البحار الجنوبية والعالم.

ويقسم كتاب اليونان والرومان جزيرة العرب إلى أقسام ثلاثة ـ العربية السعيدة، والعربية الصخرية (منطقة البتراء) والعربية الصحراوية ـ وهو تقسيم يتفق مع وحداتها السياسية في القرن الاول للميلاد. فالقسم الاول كان مستقلاً وكان الثاني تابعاً وكان الاخير يسيطر عليه البارثيون بالاسم.

كانت بادية الشام: السماوة، عند أوائل كتاب العرب، والبادية عند سواهم «ضمن نطاق العربية الصحراوية أما العربية الصخرية فكان مركزها سيناء وبلاد الانباط وكانت عاصمتها البتراء. واشتملت العربية السعيدة

(١) المرجع السابق. صفحات ٥١ ـ ٥٢.

على بقية أنحاء الجزيرة إلا أن الالمام بأحوالها الداخلية كان زهيداً جداً، فأخطأ كتاب العصور الوسطى إذ توهموا أن العربية السعيدة هي اليمن فحسب. ويلوح أن كلمه «سعيدة» هي محاولة لتفسير كلمة «اليمن» العربية اعتقاداً إن مصدرها هو اليمن والصواب إن دلالتها اليد اليمنى فلقد سميت هذه البلاد يمناً لوقوعها إلى يمين الناظر إلى جنوب الحجاز حيث تكون البلاد السورية ـ الشام ـ إلى شماله.

وأول من ذكر العرب في آداب اليونان هو ايسخيلوس (٥٢٥ ـ ٤٥٦ ق. م.) الذي أشار إلى ضابط عربي شريف في جيش إكزركسيس. ثم تلاه هيرودتس (نحو ٤٨٤ ـ ٤٢٥ ق. م) فأشار إلى العرب في جيش إكزركسيس وقد أدلى بحقائق يسيره عن ملابسهم وأسلحتهم.

وأجمعت كلمة المصنفين اليونان والرومان من ارتسثنيس اليوناني (المتوفي نحو ١٩٦ ق. م) (وإليه استند سترابو) إلى بلينيوس الروماني (المتوفي ٧٩ م) إن بلاد العرب بلاد ثروة ورخاء عجيبين. وإنها موطن اللبان والطيوب الأخرى وإن أهلها يحبون الحرية ويتمتعون بها كل التمتع. والحق إن هذه المزية الاخيرة هي التي لفتت أنظار الكتاب الغربيين فالاستقلال الذي تميز به خلق الشعب العربي أصبح مضرب المثل وموضع المديح والاعجاب عند المؤلفين الاوربيين.

واثبت ديدورس الصقلي (وقد ازدهر في النصف الاخير من القرن الاول للميلاد) إن العرب يقدرون مالهم من حرية ويتباهون بذلك. وروى سترابو (المتوفي سنة ٢٤ م) في جغرافيته عن مرجع يوناني قبله إن العرب هم الأمة الوحيدة التي لم تبعث سفراءها إلى الاسكندر المقدوني الذي كان قد صمم على جعل بلاد العرب مركز إمبراطوريته»[١].

الحملة الرومانية

ساد الرومان العالم ولكنهم لم يسودوا العرب. فحملتهم الشهيرة التي

(١) المرجع السابق. صفحات ٥٦ ـ ٥٨.

جردوها من مصر عام ٢٤ ق. م برئاسة والي مصر ايليوس جالوس باءت بالفشل. وقد تألفت هذه الحملة من جيش قوامه ١٠،٠٠٠ مقاتل يناصرهم أحلافهم الانباط وذلك في عصر أوغسطس قيصر. وكان غرضهم الاستيلاء على طرق النقل التي احتكرها عرب الجنوب واستغلال مرافق اليمن ومواردها لمصلحة روما. ولقد أقلعت هذه الحملة من السويس تؤازرها قوات الاسطول البحري وكان دليلها قائد من الانباط. وبعد أن مضت شهور على توغلها في الجنوب صادفت من العقبات ما اضطرها إلى النكوص بعد أن فتكت بها الطوارىء فتكاً ذريعاً فعادت إلى نجرانا (نجران) التي كانت قد احتلتها قبلاً ثم اتجهت إلى البحر الاحمر فعبرته إلى الساحل المصري واستغرقت مدة العودة ستين يوماً. وكانت «مريابا» أبعد المراكز التي وصلتها في الجزيرة والراجح أنها غير مأرب قاعدة سبأ في الجنوب الشرقي بل هي «مريابا» التي في الجنوب الشرقي. ويقول سترابون ـ مؤرخ تلك الحملة وصديق قائدها ايليوس جالوس ـ إن المصاعب والأخطار التي جابهتها هذه الحملة إنما تعزى إلى خيانة الدليل «سيلاوس» سفير الانباط وممثل مملكهم أو داس (عبيدة)». وهذا هو المصير الذي آلت إليه أول بل آخر غارة ذات بال قصدت بها دولة أوروبية اكتساح داخل الجزيرة[1].

---

(١) المرجع السابق. صفحات ٥٨ ـ ٥٩.

الفصل الخامس

الفكر الديني العربي القديم

اولاً: الأسطـــورة

على العكس مما قد يبدو للوهلة الأولى فالتعامل مع الأسطورة يتم بحذر ودقة شديدين إذ أنه من الصعوبة بمكان تحديد تاريخ الأسطورة بمعنى أول ظهور لها كنص مكتوب، ونفس الصعوبة تظهر عند محاولة تحديد المكان الذي نشأت فيه الأسطورة وإذا استطاع الباحث تحقيق هذين المطلبين كخطوة أولى لدراسة الأسطورة يبدأ في التعامل معها من خلال منهج محدد يتلخص في الجوانب الأربعة التالية:

١ ـ الأسطورة هي رمز لحقيقة فلسفية قديمة يمكن الوصول إليها عن طريق دراسة الأسطورة وتحليلها مع مقارنتها بالظروف البيئية والتاريخية التي نشأت فيها.

٢ ـ الأسطورة هي انعكاس لعمليات وظواهر طبيعية لم يستطيع الانسان القديم تفسيرها كظواهر الحمل والولادة ودورة النبات والزلازل والبراكين والفيضانات ومواسم القحط وغيرها مما دعا به لتقديسها ونسج العديد من الروايات حولها.

٣ ـ الأسطورة هي انعكاس للظروف النفسية التي يحياها الانسان من خلال احتكاكه بالبيئة المحيطة به ومحاولته المستمرة للتواءم مع هذه البيئة، وفي حالة فشله في أحداث هذا التوافق تظهر الأسطورة كنوع من التعويض عن هذا الفشل.

٤ ـ الأسطورة هي وصف وسرد لحقائق ومواقف وأحداث تاريخية موغلة

في القـدم وذات طـابـع منفـرد وبمـرور الـزمن تتحـول هـذه الحقـائق إلى أساطير(١).

وإذا حـاولنا تـاريخياً تتبـع المشتغلين بالتعـامل مـع الأسطورة ونقـدها لوجدنا أن أول من نقد الأسطورة الأغريقية وهاجم تعدد الإلهة فيها وتصويرها بشكل بشرى كان كسنوفون (٥٧٠ ـ ٤٧٩ ق. م) يليه ثيوجينيس الذي رأى أن الاسطورة ما هي إلا قصة ترمز إلى الظروف البيئية التي يحياهـا الانسان من خلال صراعة الدائم معها، فالاله هيفايستوس هو النار، ويوسايدون هو الماء وجيـا هي الأرض وهيراً هي الهـواء وهكذا. أمـا أيـوهيميـروس الـذي كتب حوالي القرن الرابع ق. م فكان أول من نادى بأن الأسطورة ما هي إلا حادثة تاريخية قديمة حدثت بالفعل ثم وبمرور الوقت ودخول العديد من الاضافات التي غالباً ما تحدث نتيجة لنقل الحادثة عن طريق الروايـة الشفويـة تحولت الحادثة التاريخية إلى أسطورة. وقد انتشر هذا التفسير عند المسيحيين، في بداية ظهور المسيحية كمحـاولة من آباء الكنيسة لـلإلتفاف حـول الأسطورة القديمة بشكلها الوثني وتحويلها إلى حادثة تاريخية وربما كان ذلك محاولـة للتخلص من الأشكال الوثنية التي سادت المجتمع في ذلك الوقت رغم انتشار المسيحيـة أكثر من كـونه قنـاعة أكيـدة بفكرة أيـوهيميروس حـول الأسـطورة والتاريخ.

أما عن العصور الوسطى فكانت سيطرة الكنيسة الواضحة والأكيدة في كل نواحي الحياة وتكفيرها لكل ما هو ليس بمسيحياً سبباً في عدم التعامل مع الأساطير باعتبارهـا رجساً من عمـل الشيطان وبـالتالي لم تـظهر ـ على حـد علمنا ـ دراسة للأسطورة ترجع إلى هذه الفترة.

أما في عصر النهضة فيظهر لنا فرنسيس بيكون في أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر ليعيد إلى الـذهن نظريـة ثيوجينيس حـول تشخيص الأسـطورة وتفسيرهـا تفسيراً مجـازياً فـديو نيسـوس هو المعـاناة في الحيـاة

---

(١) Rose, Greek Mythology, p. 9 - 10

وناركيسوس هو حب النفس وأبو الهول هو العلم وهكذا. وفي أوائل القرن السابع عشر أيضاً يظهر العالم الالماني كروزر الذي رأى أن الأسطورة هي نوع من الدين ينشأ نتيجة وحي ثم نقلت إلى الأجيال التالية في شكل رمزي وقد ظهر هذا الدين أو الوحي في الشرق ثم انتقل إلى اليونان ليصلنا بشكله الحالي.

أما في العصر الحديث فيبدو أن الأسطورة قد استهوت العديد من العلماء فيظهر لنا في أوائل القرن التاسع عشر العالم الألماني موللر بأول دراسة علمية جادة حاول فيها تنقية الأسطورة من الشوائب التي علقت بها والاضافات التي قام بها الشعراء وكتاب الدراما والفلاسفة وغيرهم في محاولة منه لتتبع أصولها ومقارنتها بظروف الحياة التي نشأت فيها. وفي أواخر القرن التاسع عشر ظهر تايلور عالم الاجتماع والانثربولوجي الشهير الذي درس الأساطير على أساس علاقتها بتكوين المجتمع وحاول تصنيفها في مجموعات متشابهة رغم كونها تنتمي لثقافات مختلفة.

ويظهر في نفس الوقت تقريباً هربرت سبنسر بنظريته حول عبادة الانسان القديم للأسلاف ومحاولة تجسيد الظواهر الطبيعية في أشخاص عن طريق التسمية كاطلاق أسماء رعد وبرق وشمس وأسد وفهد وغيرها من الأسماء على البشر ثم تحول هذه الأسماء إلى أساطير بالتدريج وهي عادة لا زالت موجودة حتى في مجتمعاتنا الحديثة.

وفي أوائل القرن العشرين يظهر اندرولانج الذي ربما كانت آراؤه هي الرد المناسب على آراء كروزر حول التزاوج بين الدين والأسطورة، فيرى لانج أن الأسطورة والدين هما شيئان منفصلان تماماً، فالأسطورة ظهرت نتيجة لخيال مر به الادراك البشري، أما الدين فقد ظهر نتيجة مرور الادراك بحالة من الخضوع والتأمل الروحي الجاد. ثم يظهر جيمس فريزر بكتابة الضخم جداً (الغصن الذهبي) وهو واحد من أشهر الكتب التي تناولت الديانات البدائية وأضخمها، ولكن ربما كانت قيمته تكمن في غزارة المادة العلمية التي جمعها وصنفها فريزر، أما تعامله مع هذه المادة

فقد كان من منطلق لم يوافق عليه العديد من العلماء ويتلخص في أن دورة النبات هي التي تحكم الأساطير في العالم القديم ما بين الموت ثم البعث مرة أخرى كما حدث في قصة ايزيس وأوزوريس.

ثم في منتصف القرن العشرين يظهر سيجموند فرويد عالم النفس الشهير وتلميذه يونج ومذهبهما حول التفسير النفسي للأسطورة، فالأسطورة عندهما ما هي إلا رغبات وانفعالات بشرية مكبوتة تظهر في صورة قصة يتحقق فيها مالا يستطيع البشر تحقيقه في حياتهم العادية(١).

أما في النصف الثاني من القرن العشرين فلم يظهر جديد في مجال دراسة الأساطير رغم ظهور العديد من الأسماء مثل هاملتون وروز وروبرت جرافز وغيرهم إلا أن كل منهم لم يخرج لنا بنظرة جديدة للأسطورة واكتفى فقط بمحاولة تبني موقف أو جزء من النظريات السابق عرضها(٢).

(١) وقد انتشر استعمال هذا المذهب، وحول التطبيق في مجالات أخرى كالدراما والتاريخ راجع George Devereux, Dreams in Greek tragedy, Oxford 1976 Bennett simon, mind and Madness in Greece Cornell 1978. Rose, pp. 1 - 14.

(٢) وعن التفسيرات المختلفة بشكل مفصل راجع أيضاً:
عبد المعطى شعراوي ـ أساطير أغريقية. صفحات ٤١ ـ ٦٣. ومن الملاحظ هنا أن كل من هذه التفسيرات لم تتعرض للجانب الاقتصادي من حياة الانسان القديم رغم أن بداية القرن التاسع عشر شهدت آراء موللر ونهاية القرن شهدت آراء تيلور اللذان اتفقا على ضرورة تفسير الأسطورة في إطار المجتمع الذي تنتمي إليه وبالتالي النشاط الذي يحدث في مثل هذا المجتمع وهو بالضرورة نشاط اقتصادي لأن احتكاك الانسان مع بيئته غالباً ما يتسم بالطابع الاقتصادي، وبينما لا يمكن تفسير أساطير مثل خلق العالم أو اكتشاف الانسان للنار أو ايزيس وأوزوريس في ضوء آراء فرويد على سبيل المثال يمكن تفسيرها إقتصادياً لأنها غالباً ما تتعلق بمرحلة اقتصادية في حياة الانسان عند اكتشافه للزراعة، وإذا كان التفسير الاقتصادي للتاريخ لا يزال يحظى بالكثير من القبول فلربما أمكن تفسير الاسطورة من هذا المنطلق أيضاً.

ثانياً: الدين والاسطورة

في محاولة لفهم الأسطورة اليونانية القديمة وإعطاؤها ما تستحق لا بد وأن نراها في الشكل الذي عرفت به عند الاغريق والظروف التي أحاطت بمولدها. أي في أشعارهم ومسرحياتهم وأعمالهم الأدبية والفنية الأخرى، وبمعنى آخر دراستها في إطار السياق الاجتماعي والتاريخي للعالم الاغريقي الدائم التغير فيزداد إدراكنا للأسطورة ومفهومها بمدى إدراكنا لتاريخ وحضارة الشعب الذي تنتمي إليه واتصالاته بالحضارات الأخرى من حوله.

وبصفة عامة فإن الأساطير الاغريقية كانت أكثر انسانية وعقلانية من غيرها، فلم يؤكد الاغريق على القصص الشعبي المغرق في الخيال كبعض الشعوب الأخرى وإنما ركزوا على أعمال الانسان الفاني ومتاعبه كما في أشعار هوميروس التي تعد المنبع الأساسي لمعرفتنا بالأساطير.

كان الاغريق كغيرهم من الشعوب الهندوأوربية قد دخلوا مجتمعات نشأت فيها من قبل مجتمعات متشابكة وتعلموا الكثير منهم كما أضافوا لهم الكثير، وعلى ذلك نجد أن أعظم الشخصيات الأسطورية تنتمي إلى التراث الهندوأوروبي كما في حالة زيوس أو جوبيتر، ويبدأ الاغريق حوالي ٢٠٠٠ ق. م في الدخول لأرض اليونان الرئيسية والاستقرار على السواحل الإيجية للبحر المتوسط ومن ثم ظهرت الحضارات المينوية والموكينية، وتركت كريت أثراً عميقاً في الخيال الاغريقي كأسطورة زيوس وأيوروبا إبنة ملك صور الفينيقية التي أنجبت له مينوس، وأسطورة المينوتاوروس كما تركت موكيناي أثراً آخر تمثل في موضوعات الالياذة والأوديسية وما حوته من أساطير تتصل

بجميع جوانب الحياة الالهية والبشرية والبطولية.

تعريف الدين:

في تعريف الدين ربما كان من الأفضل الابتعاد عن المناهج النفسية الإستبطانية التي استعملها سبنسر أو ماكس موللر أو المنهج الحدسي الذي استعمله برجسون لعدم جدواهما في إخراج تعريف محدد مقنع، وربما كان المنهج الموضوعي المقارن أفضل إذ يقوم على المقارنة بين الأديان البدائية لتعيين عناصرها العامة ويمثل هذا المنهج نصل إلى تعريفات فريزر الذي يبدأ دراسة الدين بظهور فكرة الالهة والذي حدد الدين بأنه الاحساس بأن هناك نفساً خفية تعترف النفس البشرية بما لها من سلطان على العالم وعليها ويجب أن تكون على اتصال دائم بها ما أمكن.

ولكن رأى فريزر ليس دقيقاً ـ كما يرى دور كايم ـ لأنه من الممكن ظهور دين بدون ظهور الاله بل يزيد عليها أن هناك بعض الديانات لم تتحقق فيها فكرة الدين مثل البوذية التي هي في جوهرها أخلاق بغير دين أو حتى فكرة الطبيعة فهي تقوم على الاستقامة والتأمل والحكمة التي هي غاية الغايات. كما يرى دور كايم أن الظواهر الدينية تنقسم إلى قسمين: العقائد والعبادات، والعقيدة هي حالة فكرية بينما العبادات هي نماذج وطرز من الأفعال الجسمية وغير الجسمية، وكل العقائد الدينية تقسم الأشياء إلى قسمين: مقدس وغير مقدس، وهذا التقسيم هو الصفة المميزة للفكر الديني.

بهذا يمكن تحديد العقائد بأنها الأفكار أو التصورات التي تعبر عن طبيعة الأشياء المقدسة وما بين تلك الأشياء من علاقات من ناحية وما بينها من علاقات بالأشياء غير المقدسة من ناحية أخرى. أما العبادات فهي طرز للسلوك ينبغي أن يمارسها الانسان حيال الأشياء المقدسة[1].

نشأة الدين وتطوره

حول نشأة الدين ظهرت العديد من الآراء تبلورت في النهاية في

(١) على سامي النشار نشأة الدين. النظريات التطورية والمؤلهة صفحات ٢١ ـ ٢٨.

نظريتين عامتين هما: النظرية التطورية القائلة بأن فكرة الاله وجدت في المجتمعات الأولى بشكل عقائد انبثقت أما من الأفراد أو الجماعة، وبالتالي ففي كلتا الحالتين يكون الدين من عمل الإنسان، أما النظرية الفطرية فتقول بأن الدين فكرة فطرية وجدت في عقل الإنسان وغرسها فيه موجود أعلى، أي أن للدين حقيقة خارجية هي الاله منفصلة عن الجماعة والكون كله مباينة له وأن تلك الحقيقة الخارجية هي التي غرست في الانسان فكرة الاله.

وبما أن النظرية الفطرية من الصعب مناقشتها إذ أنها إما أن تؤخذ على علاتها أو تترك بكاملها لذا سنركز في العجالة التالية على مناقشة النظرية التطورية من خلال ثلاثة مذاهب أساسية في تطور الأديان هي المذهب الحيوي والطبيعي والتوتمي.

١ ـ المذهب الحيوي: وأشهر من نادي به كان تايلور ثم اعتنقه سبنسر من بعده، ويقوم هذا المذهب على أن أقدم الأديان في الوجود هو الاعتقاد في الأرواح وعبادتها، وبدأت فكرة الأرواح عندما اكتشفت الانسان الأول فيه كائناً آخر غير الجسم يستطيع ـ في ظروف معينة ـ أن يترك هذا الكائن العضوي الذي يسكن فيه وأن ينطلق بعيداً. تلك هي النفس أو الروح التي اعتقدت الكثير من المجتمعات البدائية إن لها ـ بجانب قدرتها الاثيرية العجيبة ـ القدرة المادية على النفع والايذاء ولما كانت الوسيلة الفعالة الوحيدة كي تترك النفس أو الروح الجسم المادي للإنسان هي الموت وبمرور الوقت واستقرار المجتمعات البدائية وزيادة عدد الموتى وبالتالي عدد الأرواح بدأ الانسان يكون لنفسه عالماً آخر مليئاً بالأرواح التي حاول دائماً أن يطلب رضاها وعفوها ويتخلص من غضبها عن طريق القرابين والاضاحى والصلوات، وكانت الطقوس الأولى طقوساً للموت، والتضحيات الأولى قرابين غذائية تشبع حاجات الموتى،وكانت أولى المذابح التي تقدم إليها هذه القرابين هي القبور(١).

(١) المرجع السابق. صفحات ٣٣ ـ ٦٧.

٢ ـ **المذهب الطبيعي**: ومن أشهر أعلامه كان ماكس موللر وكوهن اللذان كتبا عنه في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر ويقوم أساساً على أن الدين لا بد وأن يبدأ بتجربة حسية أي أنه لا شيء يتحقق في عقيدة الانسان ما لم يمكن قد أتى من قبل عن طريق حواسه. وذلك من خلال الظواهر الطبيعية المتغيرة التي تحيط بالانسان وتثير فيه مختلف المشاعر والأحاسيس. ومع ذلك فلم تتكون الأديان وتنشأ إلا حين انتفت عن القوى الطبيعية الصفة المجردة وتحولت بالتالي إلى كائنات مشخصة حية وعاقلة لها قوى روحية أي آلهة لأن العبادات عادة لا تتجه إلا لهذا النوع من الكائنات كالاله زيوس كتشخيص للشمس وهيرا للهواء وهيفا يستوس للنار وبوسايدون للماء وجياً للأرض وغيرها.

ويعترض دور كايم على هذا التفسير من منطلق أن محاولات الانسان البدائي للسيطرة على الطبيعة لم تكن كلها ناجحة وبالتالي سيكتشف هذا الانسان عبث محاولاته معها[1] إلا أن هذا الاعتراض مردود عليه إذ أن الانسان غالباً ما يفسر عدم جدوى محاولاته بعيب قد تخلل طقوسه هو والدليل على ذلك أنه لا زالت بعض المجتمعات حتى هذا الوقت تعرف رقصة المطر التي يحاول الانسان من خلالها التحكم في أوقات سقوط المطر خاصة في أوقات الجفاف.

٣ ـ **المذهب التوتمي**: وقد بشر بهذا المذهب دور كايم نفسه الذي نقد المذهبين السابقين، وهو يعتقد بأن عبادة التوتم هي أقدم الأديان على الاطلاق إذ أنها ترتبط بفكرة العشيرة التي هي ـ حتى الآن أول وأبسط نظام اجتماعي تم اكتشافه، وتوتم العشيرة هو رمز لها يتصل بحياتها أوثق الاتصال وتستمد منه القوة وقد تسمى العشيرة باسم التوتم، أما نوعية التوتم نفسه فعادة ما تتصل بأنواع من النبات أو الحيوان وأحياناً بعض الظواهر الطبيعية، يتم

---

(١) المرجع السابق، صفحات ٦٨ ـ ٨٩.

تقديسها ومن ثم عبادتها وقـد يحرم أكلهـا إذا كانت نبـاتاً أو قتلهـا إذا كانت حيواناً.

والتوتمية عنـد دور كايم مـذهب في الوجـود يفسر الكـون وينسق بين عناصره المختلفة وبهذا يقع في نفس الخطأ الذي اتخذه وسيلة لنقد المذهبان الحيوي والطبيعي[1].

---

(١) المرجع السابق، صفحات ٩٠ ـ ١٧٧.

ثالثاً: الفكر الديني

يتضح من النقوش التي عثر عليها إن العقائد والحياة الدينية في جنوب الجزيرة كانت متماثلة على اختلاف الادوار والبيئات. فقد كان القمر هو المعبود الرئيسي مع اختلاف في تسميته وتطور في اعتباره ثم يأتي بعده الشمس ثم الزهرة على اختلاف كذلك في تسميتهما. وكان لكل شعب أو قبيلة إله قومي خاص يعتبرونه حامياً لهم ورابطة تربط بين وحداتهم. وكان لهم إلى هذا وذاك آلهة ثانوية أخرى. وكانوا يصنعون لآلهتهم تماثيل يضعونها في معابدهم ليؤدوا عندها طقوسهم ويقربوا قرابينهم(١).

ولقد كانت المعبودات الرئيسية الثلاثة في الدولة المعينية تسمى «ود» و «نكرح» و «عشتر» بالتوالي وكان القمر مذكراً والشمس مؤنثة والأول بمثابة زوج للثانية وكانت الزهرة تعتبر ابنة لهما. ولقد عثر على شاهد قبر امرأة معينية عليه صورة الميتة ورمز الزهرة في وضع توسلي لإنزال الويل على من يتجاسر على تغيير الحجر عن موضعه مما قد يكون فيه دلالة ما على ما قلناه(٢).

وكان الشعب المعيني يسمى نفسه أبناء ود ويعتبر هذا المعبود إلهه القومي وحاميه والرابطة التي تجمع بين وحداته وفروعه.

ولقد كان ود في أثناء قوة الدولة المعينية وسلطانها الشامل إلهاً رئيسياً

---

(١) محمد عزة دروزة. المرجع السابق. صفحات ٨٦ ـ ١٠٧.

(٢) شوقي ضيف: العصر الجاهلي. صفحة ٨٩

قارن: محمد عبد المعيد خان. الاساطير العربية قبل الاسلام. صفحة ٥٥.

عاماً لجميع الإمارات والمناطق الخاضعة لها، فمن المحتمل أنه كان إله المعينيين القومي قبل أن تصبح السيادة الشاملة لهم ثم ظل ذلك ملحوظاً عندهم مع ارتفاع منزلته وعمومية عبادته.

ولقد قرىء في نقش معيني عبارات «ذات نشقم» و«معبد يثعم» واسم «يثل» في جملة فيها تعداد لآلهه معين وليس فيها بيان ما. فأما أن تكون أسماء مدن فيها معابد لآلهتهم المعروفة وإما أن تكون أسماء معبودات ثانوية ظلت هويتها ومركزها غامضاً.

وقد كانت أسماء الآلهة الرئيسية عند الحضر موتيين نفسها عند المعينيين. غير أنهم كان لهم إله قومي حامياً لهم يسمونه «سين» وكانوا يسمون أنفسهم «أبناء سين»، وقد عثر على نقش حضر موتى سجل فيه صاحبه «إن نفسه وروحه وأولاده ومقتنياته ونور عينيه وما يفكر به في قلبه هو «لسين إله حضر موت». وقد وجدت آثار معبد ضخم لسين في خرائب مدينة حضر موتية اسمها مذب. وقد قرىء في بعض النقوش جملة «سين ذمذب» أي «سين مدينة مذب» ولعلها كانت تشير إلى هذا المعبد.

وبعض النقوش يفيد أن إسم «سين» كان يطلق على القمر ويعتبر المعبود الرئيسي الأول في فترة من الفترات. ولعل هذا كان حينما غدت حضرموت قوية متمتعة بسيادة شاملة نوعاً ما كما سبق القول[1].

وقد قرىء في نقوش حضرموتية أسماء إلهين آخرين وهما «ذات حشو» و«ذات صميم» دون بيان عن هويتهما ومركزهما. وكلمة «ذات» كانت تعني وصفاً للألهة الرئيسية. وليس من المستبعد أن تكون هنا من هذا القبيل.

وقد قرىء في نقش حضر موتي على لوح نحاسي موجود اليوم في المتحف البريطاني أسماء سين وعلم وعشتر. وقد ورد في نقش حضر موتي آخر جملة «سين ذ علم وسين ذ مشور وسين ذ علم ذ علق احن» وقد فسر

---

(١) رشيد الناضوري. المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني. صفحة ١١٣.
جواد علي. المرجع السابق. الجزء الخامس. صفحة ٢٢.

جواد على عبارة «سين ذ علم» بمعنى سين العالم أو العليم أي اعتبر العبارة وصفية وليست اسم معبود جديد. وقال أن معنى الجملة «معبد سين العليم في مدن مشور وعلق واحن»[١].

وقد قرىء في نقش حضر موتي اسم «حول» مع اسماء «سين» و«عشتر» و«شمس»، دون بيان ما، وهذا النقش سمى الألهة الشمس بأسمها العربي بديلاً عن اسم نكرح المعيني.

ولقد سمي القتبانيون القمر «ودا» كما فعل المعينيون والحضر موتيون وسموا الشمس عشتر على ما تفيده نقوشهم. وقد كان لهم إلى هذين المعبودين معبود قومي اسمه عم ويعتبرونه حاميهم ويسمون أنفسهم «أولاد عم». وكان لعم معابد في المدن ينسب إليها مثل «عم ذو شقرن» و«عم ذو ريمت» «وعم ذو يسن» أي معابد عم في مدن شقرن وريمت ويسرن.

وقد قرىء في نقوش قتبانية اسم آله آخر هو «انبي». وفي احداها أنه دون تقرباً للاله انبى ودعاء له ليمن على الأرض بالخير والبركات مما يمكن أن يدلل على انه كان إله المطر والخصب أو إنه كان يشغل المركز الذي كانت الزهرة تشغله عند المعينيين وهو على هذا الاحتمال ثالث الثالوث.

وقد قرىء في نقوش قتبانية عبارات «حوكم وذات صفتم وذات ظهران وذات سنطم وذات رحبن» وقد خمن الاثريون أن جملتي ذات ظهران وذات رحبن وصفيتان توصف بهما الشمس ولم نرهم يعلقون على العبارتين الثانيتين. ولا يمكن القطع بما إذا كانتا جملتين وصفيتين أو أسمين لمعبودين ثانويين من معبودات القتبانيين.

وقد قرىء في نقش لا مرأة أو سانية جملة «معبد نعمان» دون بيان آخر. ولا يمكن الجزم بما إذا كانت كلمة نعمان تعني اسم المدينة التي فيها المعبد أو اسم معبود أوساني لعله المعبود القومي للأوسانيين.

---

(١) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الخامس. صفحات ١٢٠ ـ ١٢٣.

والسبئيون كانوا يسمون معبودهم القومي باسم «المقه» ولما صار لهم السلطان الشامل صار المقه معبوداً عاماً للدولة مع بقائه معبودهم القومي على ما تفيده نقوشهم.

وقد كان اسم المقه يرمز إلى القمر. ولا ندري هل كان هذا قبل أن يصبح معبوداً عاماً للدولة أو بعد ذلك(١).

وقد قرىء في نقوش سبئية عبارات «عشتر وهوبس ذات حميم بالإضافة إلى المقه». ويخمن الاثريون أن جملة ذات حميم وصف للشمس، وأن السبئيين كانوا يصفونها كذلك بأوصاف ذات بعدن وذات خضرن وذات بران. وهكذا يكون ثالوث القمر والشمس والزهرة قد استمر في عهد الدولة السبئية التي صارت شاملة السلطان بعد الدولة المعينية مع تبديل في التسمية للشمس والقمر(٢). ولا تذكر النقوش شيئاً عن هوية هوبس، مع أنها ذكرته مراراً. ولعله من الألهة الثانويين. ونقوش السبئيين تفيد أنهم كانوا يتوسلون بعشتر في قضاء حاجاتهم ومطالبهم وهو ما كان يفعله المعينيون قبلهم.

وفي العهود الأخيرة من الدولة السبئية ظهرت أسماء معبودات جديدة وتدنت منزلة المقة. ومن الأسماء الجديدة التي ظهرت «ذو سموى» أي رب السماء و«تالب ريم» و«نتف بعلة ذي غفرن» ويستفاد من النقوش أن «تالب ريم» كان معبود بني مرثد القومي وحاميهم فتألق نجمه حينما صار العرش السبئي لاسرة منهم. وقد قرىء في نقوش عديدة نسبه تالب ريم إلى المدن مثل «تالب ريام بعل مبين» و«تالب ريم بعل شعرن» و«تالب ريم بعل خضعتن» و«تالب ريم بعل مدثن» و«تالب ريم بعل كبدم». وقد وصف في نقش بوصف شيحهمو أي حاميهم وراعيهم.

أما تسمية «ذ سموى» فمن المحتمل أن يكون أريد بها القمر أو الشمس

---

(١) ديتلف نلسون. المرجع السابق. صفحة ٢٠٩.

(٢) المرجع السابق. نفس الموضع.

قارن: جواد علي. المرجع السابق. الجزء الخامس. صفحة ١٢١.

وإن كانت تحمل معنى أبعد من ذلك وبكلمه أخرى تحمل معنى القوة التي وراء الشمس والقمر. وفي هذا تطور مهم في العقيدة الدينية.

وليس في النقوش ما يساعد على معرفة هوية ومركز نتف ولكن النقش الذي ذكرت فيه قبلها مباشرة كلمة «تمسهمو» ولا ندري هل يعني ذلك أن النتف هي اسم آخر للشمس أم أنها وصفت بالشمس[1].

وهناك نقوش تفيد أن عبادة وذكر ذي سموى كانت محصورة في منطقة معينة، وكان ينسب إليه مدن معينة مثل «ذ سموى آله امرم» و«ذ سموى بعل بين ظعن» و«ذ سموى بعل وترم». فمن المحتمل أن يكون «ذي سموى» في البدء إلهاً قومياً لإحدى القبائل ثم اتسعت دائرته ومعناه.

وهناك نقوش سبئية متأخرة منها ما هو قبيل الميلاد ومنها ما هو بعده بقليل ذكر فيها اسماء المقه وعشتر وهو بس وذات حميم وذات بعدان وذي سموى معاً، وقرىء في بعضهم اسم الشمس. حيث يدل هذا على أن الآلهة السبئية التي كانت ذات مكانة عالية في عهد السبئيين الأولين لم تتوار بالمرة مع تألق نجم تالب ريام ثم ذ سموى في الوقت نفسه.

وهناك نقوش عديدة تفيد أنه كان في المدينة الواحدة معابد متعددة للآلهة المتعددة، وأن الملوك والأمراء والأغنياء كانوا يهتمون كثيراً بإنشاء المعابد وترميمها وتجديدها وتزيينها[2].

وتفيد النقوش أنه كان للمعبودات مكانة عالية في أذهان اليمنيين بحيث يذكرونها ويلحظونها ويتقربون إليها في كل حادث ومناسبة وعمل يربطون بينها وبين كل مناسبة وعمل وحادث غير أنه ليس فيها ما يساعد على معرفة أشكال الطقوس التي كانوا يؤدونها لهم. وليس فيها كذلك ما يدل على أنه كان عندهم فكرة عن حياة أخرى وثواب وعقاب في العالم الآخر. وكل ما تفيده هو أنهم كانوا يعبدون معبوداتهم ويتقربون إليها ويذكرونها في مختلف

---

(١) محمد عزة دروزة. المرجع السابق. صفحات ٨٤ ـ ٨٦.

(٢) المرجع السابق. صفحات ٨٦ ـ ٩١.

المناسبات ويربطون بينها وبين كل عمل وحادث لشؤونهم المختلفة في الحياة الدنيا وبكلمة أخرى لضمان مطالبهم وقضاء حوائجهم وتحقيق آمالهم ودفع الشر والأذى عنهم وجلب الخير والنفع لأنفسهم. ويلاحظ هذا في مختلف النقوش المعينية والحضرموتية والقتبانية والسبئية على السواء وبالنسبة لمختلف الأدوار.

ولقد كان للكهانة وأوقاف المعابد وضرائبها حيز مهم في المجتمع اليمني على ما تفيده النقوش وكان الكهان نتيجة لذلك كأنهم دولة ضمن دولة بما كان يؤدي إليهم من ضرائب وموارد وبما كانوا يسهمون فيه من أعمال ومشاريع عامة وأقتصادية.

أما ظاهرة الملوك المكاربة فهي تمثل الكهانة في ذروتها العليا حيث كان الملوك المعينيون والسبئيون والقتبانيون والحضرموتيون في البدء يتلقبون بلقب مكرب الذي كان فيه معنى الرئاسة الدينية والوسيلة التقريبية بين الآلهة والناس. وكثير منهم احتفظوا بلقب المكرب مع تلقبهم بلقب الملك لهذه الغاية[١].

وهذا، ومن الجدير بالذكر أن القمر والشمس والزهرة كانت معبودات رئيسية في العراق والشام ومصر وسائر انحاء الجزيرة في مختلف ادوار التاريخ القديم، وكانت الموجات العربية في العراق تسمى القمر سين والشمس شمشا والزهرة عشتار، وكانت الموجات العربية في الشام تسمى الزهرة عشتروت أي أنها كانت تتماثل بالتسمية وبالعبادة مع جنوب الجزيرة مما يسوغ القول أن العبادة السماوية أصيلة في الجنس العربي وإن وحدة الفكرة الدينية قائمة بين فروعه وإن هذا مما يؤيد وحده الارومه بين سكان الجزيرة ومهاجرها.

ولقد ذهب بعض الباحثين إلى أن عبادة القمر والشمس أتت إلى اليمن من بابل مع أن المفترض أن يكون العكس هو الصحيح ما دام البابليون هم

---

(١) المرجع السابق. صفحات ٩١ ـ ٩٣.

موجة عربية الجنس تمت إلى جزيرة العرب، وعبادة المشاهد السماوية أشبه أن تكون من وحي طبيعة الجزيرة وسمائها ونجومها ولياليها كما هو ظاهر. وليس معنى تأخر دولة معين في البروز عن دول العراق الأولى أنه لم يكن في اليمن دول قبلها ولم تكن عبادة سماوية في المهد الذي خرجت منه تلك الموجة كما لا يخفي. وللقمر خاصة أثر عظيم في حياة الجزيرة العربية الشديدة الحرارة حيث يكون لليل وللقمر الذي ينير ظلماته الأثر الأكبر في النفوس ولعل هذا هو سر جعل القمر المعبود الأكبر. وقد قال بعض الباحثين أن العربية الجنوبية أرسلت موجات متعاقبة من البشر سلكت الطرق البرية والبحرية حتى وصلت إلى المناطق التي وصلت إليها واستقرت فيها. وهاجرت وقد حملت معها كل ما تملكه من أشياء ثمينة وحملت فيما حملته الآله القمر(١).

ويخطر بالبال في صدد العبادة السماوية والتعددية في اليمن ثم في مهاجر العرب الأخرى في التاريخ القديم أن العربي لا يعقل أن يكون قد أعتقد أن القمر والشمس والزهرة وغيرها من مشاهد السماء هي الخالقة المدبرة للكون. لأن ما اكتشف لهذا النوع الجنس من مآثر في اليمن ومهاجرها منذ أقدم الأزمنة يدل على أنه لم يكن بهذا القدر من السذاجة الذي يجعله يعتقد أن هذه المشاهد الكونية هي خالقة الكون ومدبرته، وأن كل ما في الأمر أنه كان يراها كعيون لقوة خفية عظيمة تكمن في الكون وتتجلى في الدرجة الأولى في السماء، وإنه كان يتعبد للقمر والشمس والنجوم كوسيلة إلى ما وراءها، لأن الذهن البشري في ادوار حضارته الأولى كان ينصرف دوماً إلى المشاهد المرئية ويتأثر بالمشاهد السماوية.

ومثل هذا يصح أن يقال بالنسبة للأصنام والأوثان والمعبودات المادية التي أتخذها العرب حيث لم تكن إلا رموزاً وهياكل مادية في الأرض للقوى

---

(١) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الأول. صفحات ١٦٠ ـ ١٦١.
قارن: محمد عزة دروزة. المرجع السابق. صفحات ٨٦ ـ ٩١.

الخفية السماوية ليؤدوا عندها طقوسهم ويذبحوا قرابينهم جلباً لما يتوخونه من منافع ومطالب ودفعاً لما يخشونه من شرور واضرار. وتعدد الآلهة السماوية والمادية مرده في الغالب تعدد المطالب والحاجات واعتقاد العرب بضرورة جعل وسيلة خاصة لكل مطلب وحاجة كما أن فيه ما يعود إلى شعور كل فريق أو عشيرة أو منطقة أو مدينة إلى حام خاص يحميهم ويكون لهم ملجأ ومرجعاً مع ملاحظة القوة الخفية العظمى الكامنة وراء ذلك كله[1].

ولعل مما له دلالة على هذا كلمة عربية الجنس كانت منذ القديم في مختلف اللهجات العربية القديمة بمعنى الآله وهي كلمة «ايل» التي تعني الرب أو الآله في المعينية والسبئية والبابلية والآرامية والكنعانية والسريانية والعبرانية والتي يصح أن يقال أنها الأصل الذي تطورت عنه كلمة «الاله» أو «الله» في العربية الفصحى حيث وجدت هذه الكلمة بهذا المعنى في الآثار البابلية والكنعانية والفينيقية والسريانية والآرامية والعبرانية كما وجدت في السبئية والقتبانية والحضر موتية الخ. فالذي يتبادر إلى الذهن أن هذه الوحدة في اللفظ والمعنى لا بد من أنها تعني وحدة عامة في الفكرة وتقوم دليلاً على وحده الربوبية العليا عند الناطقين بها. ويجدر بالذكر أن هذه الكلمة كانت تلحق بالاسماء في اللغات المذكورة جميعها ليكون فيها دلالة على الاعتراف بعبودية أصحابها للاله[2].

---

(١) محمد عبد المعيدخان. المرجع السابق. صفحات ١٠٧ ـ ١١١.
قارن: السيد عبد العزيز سالم. المرجع السابق. صفحة ٤٠٩.
(٢) محمد عزة دروزة. المرجع السابق. صفحات ٩٤ ـ ٩٥.
دينلف نسلون. المرجع السابق. صفحة ٢٠٩.
قارن: السيد عبد العزيز سالم. المرجع السابق. صفحات ٤٠٩ ـ ٤١٠.

ملحق الأشكال

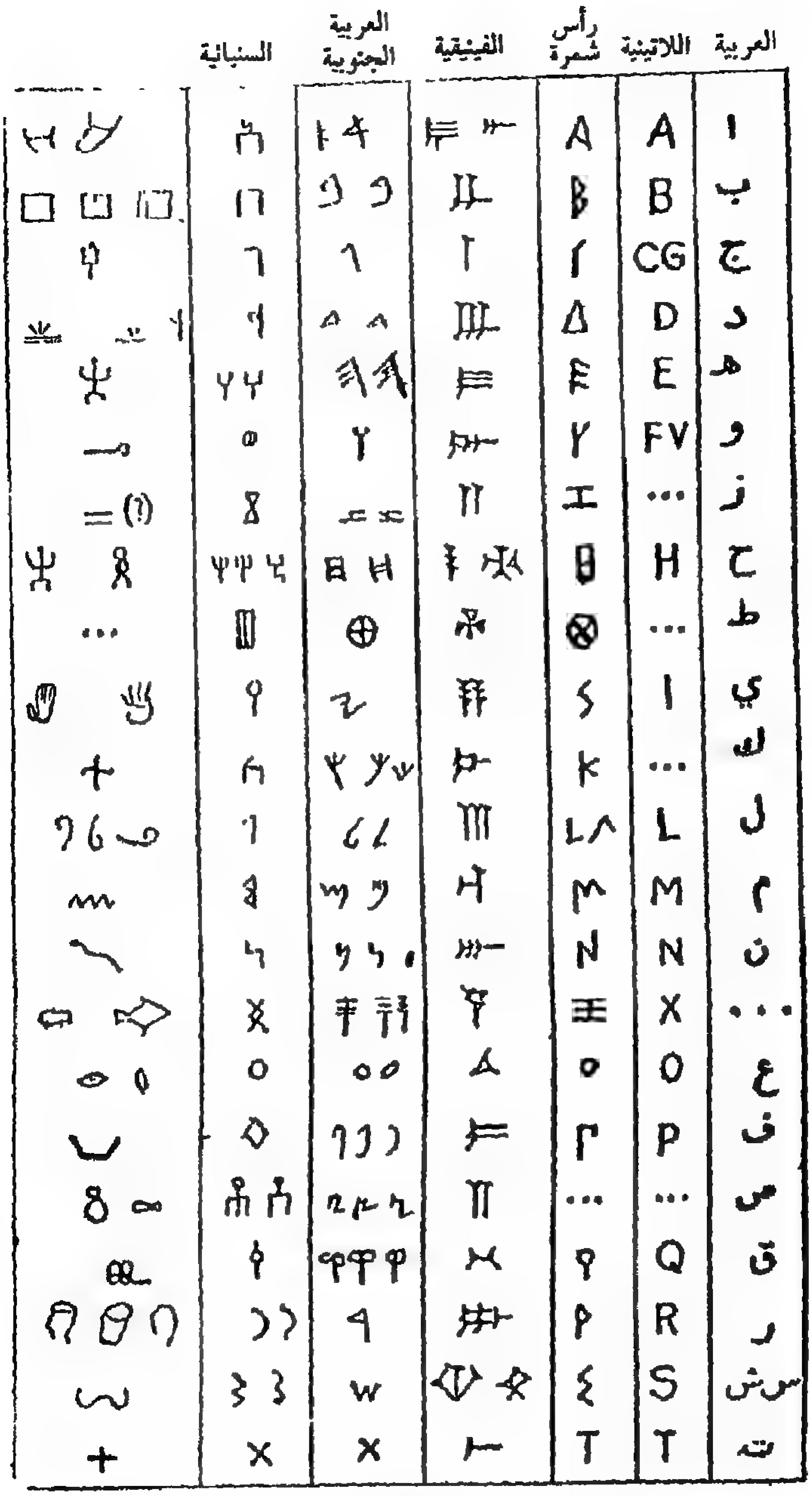

شكل (١)

جدول: ببعض الابجديات القديمة مقارنة بالأبجدية العربية

عن: فيليب حتي

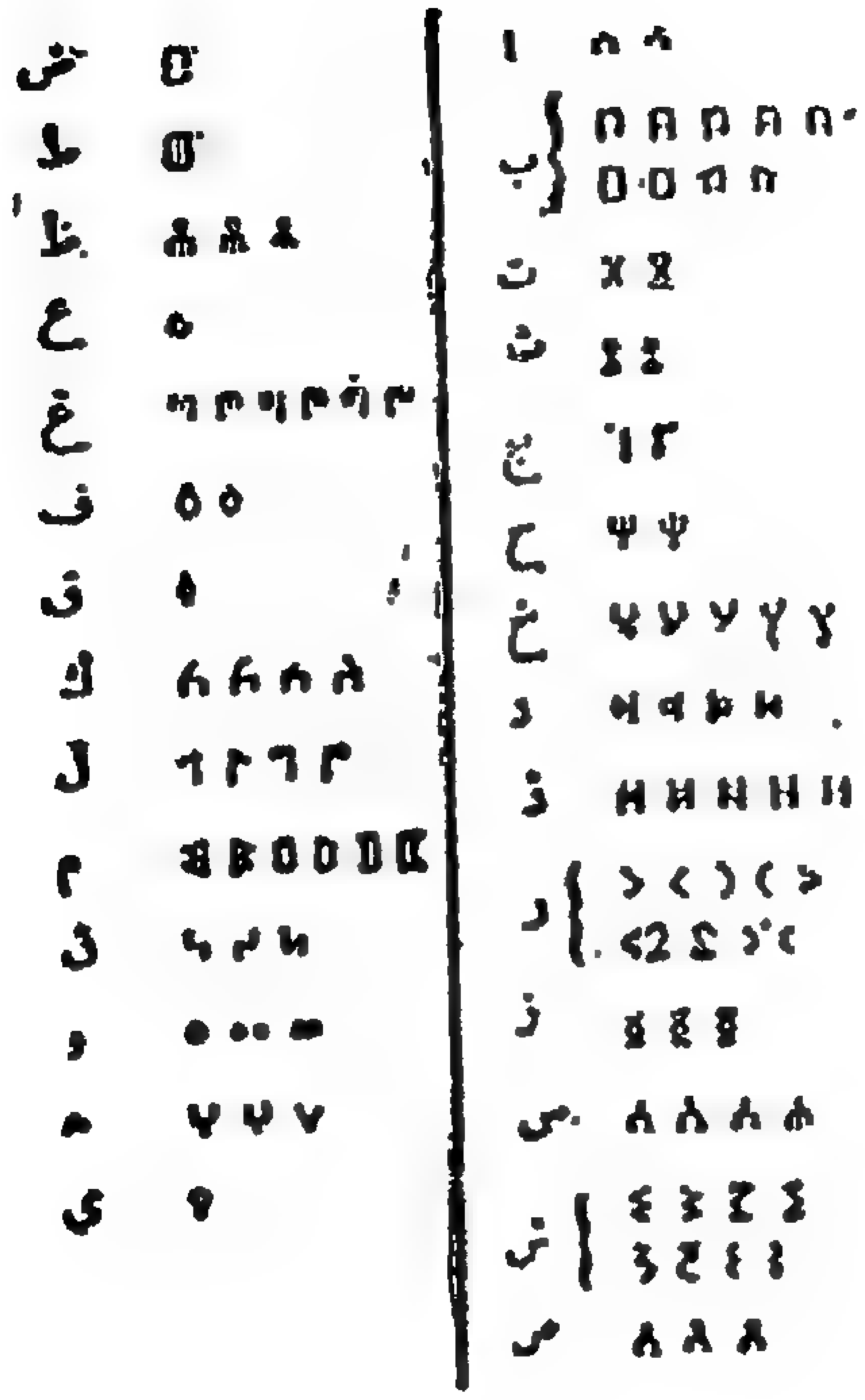

شكل (٢)

الحرف المسند أو الأبجدية الحميرية
عن: جورجي زيدان

نقش عربي بخط نبطي على قبر امرىء القيس بن عمرو

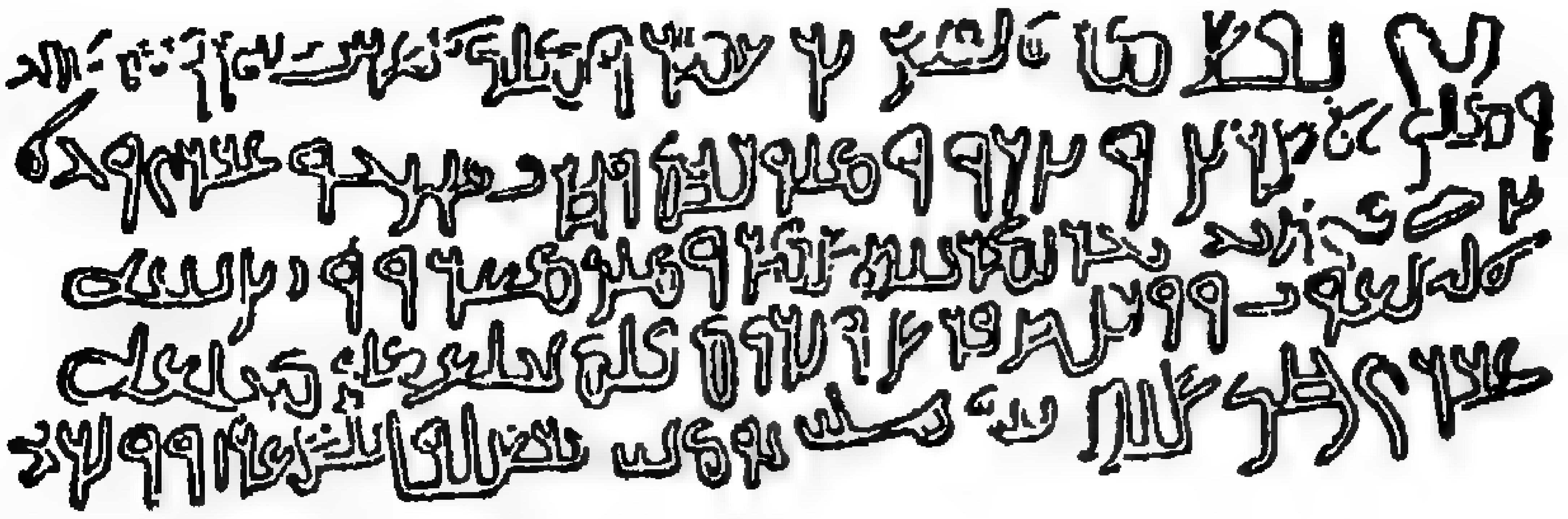

١
٢
٣
٤
٥

نص النقش بالحرف العربي كل سطر على حدة

١ ـ تي نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو أسر التاج
٢ ـ وملك الاسدين ونزور وملوكهم وهرب مذحجو عكدي وجاء
٣ ـ بزجو (؟) في حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه
٤ ـ الشعوب ووكله لفرس ولروم فلم يبلغ ملك مبلغه
٥ ـ عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده

ترجمة النقش باللغة العربية

١ ـ هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي تقلد التاج
٢ ـ وأخضع قبيلتي أسد ونزار وملوكهم وهزم مذحج إلى اليوم وقاد
٣ ـ الظفر إلى أسوارنجران مدينة شمر وأخضع معداً واستعمل بنيه
٤ ـ على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه
٥ ـ الى اليوم. توفي سنة ٢٢٣، في اليوم السابع من أيلول (سبتمبر) وفق بنوه للسعادة.

شكل (٣)

نقش بخط نبطي على شاهد قبر امرؤ القيس
عن: جورجي زيدان

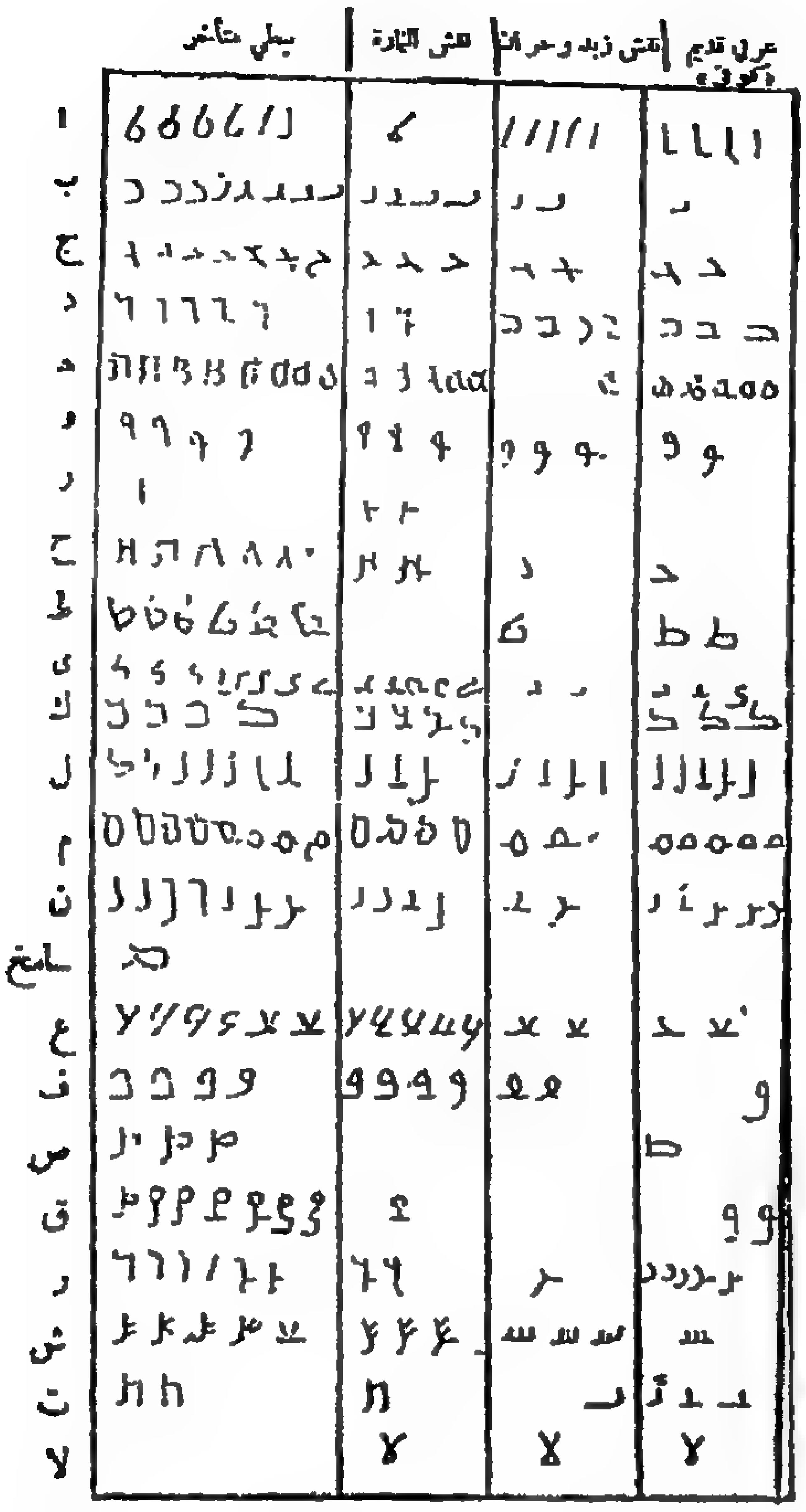

شكل (٤)

الخطوط العربية القديمة مقارنة بالخط النبطي

عن: السيد عبدالعزيز سالم.

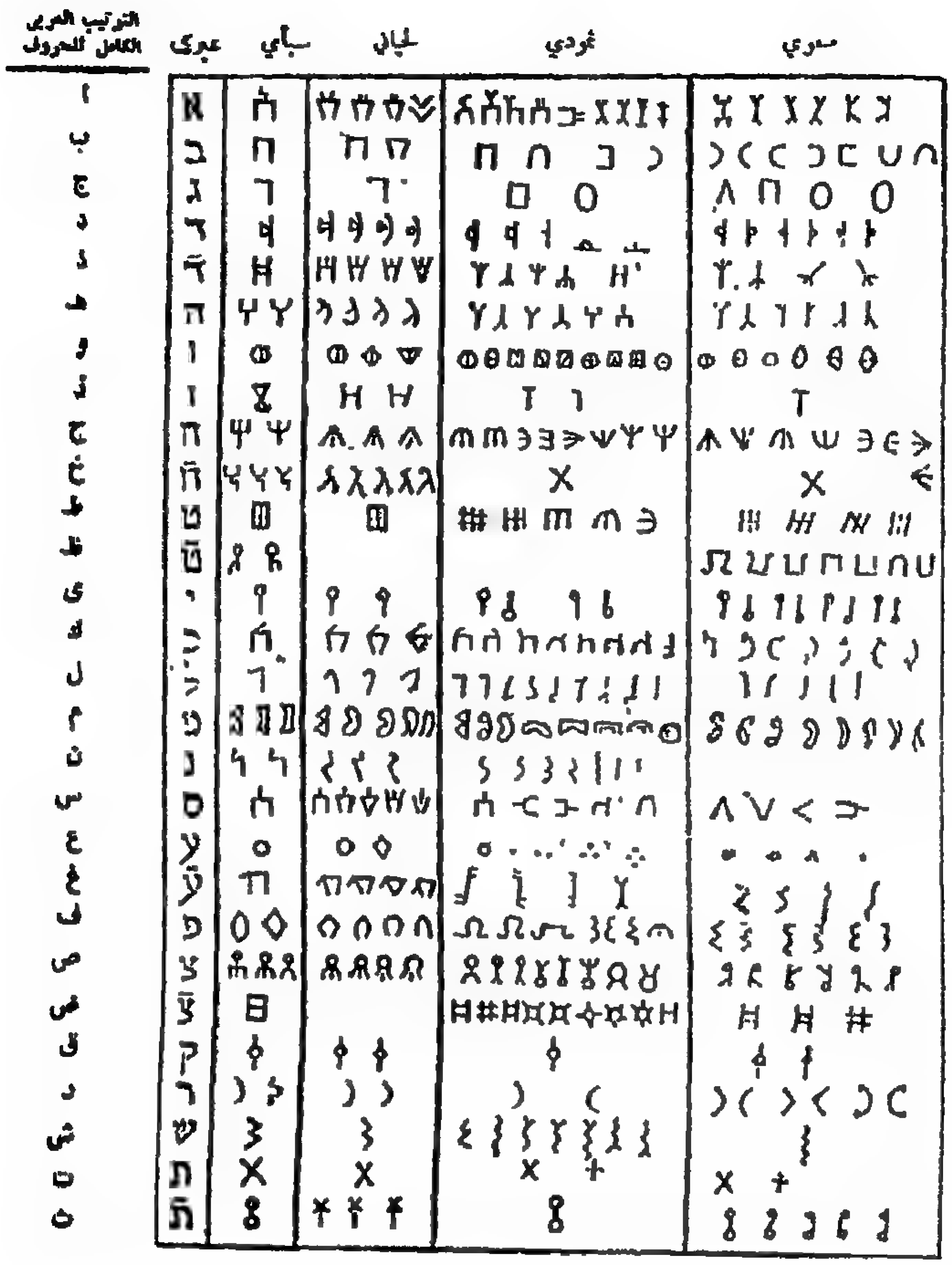

شكل (٥)

الخطوط الصفوية والثمودية واللحيانية مقارنة بالخط السبأي

عن: السيد عبد العزيز سالم

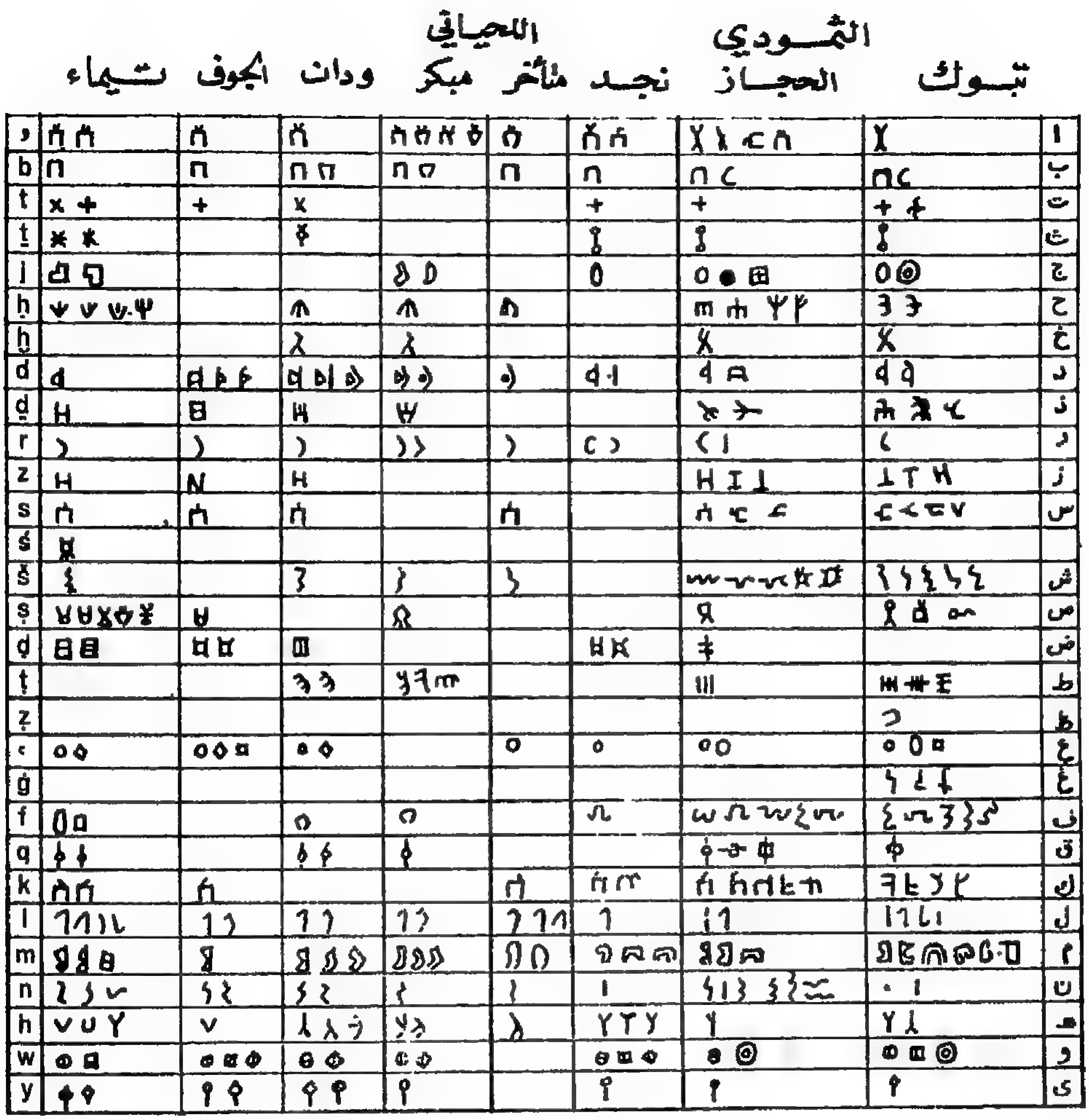

شكل (٦)

قائمة نقوش الحجاز ونجد

عن: السيد عبد العزيز سالم

شكل (٧)

جزء من نقش سبأي على الحجر الجيري (متحف ڤيينا)
عن: السيد عبد العزيز سالم

شكل (٨) كتابة ونقوش ثمودية عن: السيد عبد العزيز سالم

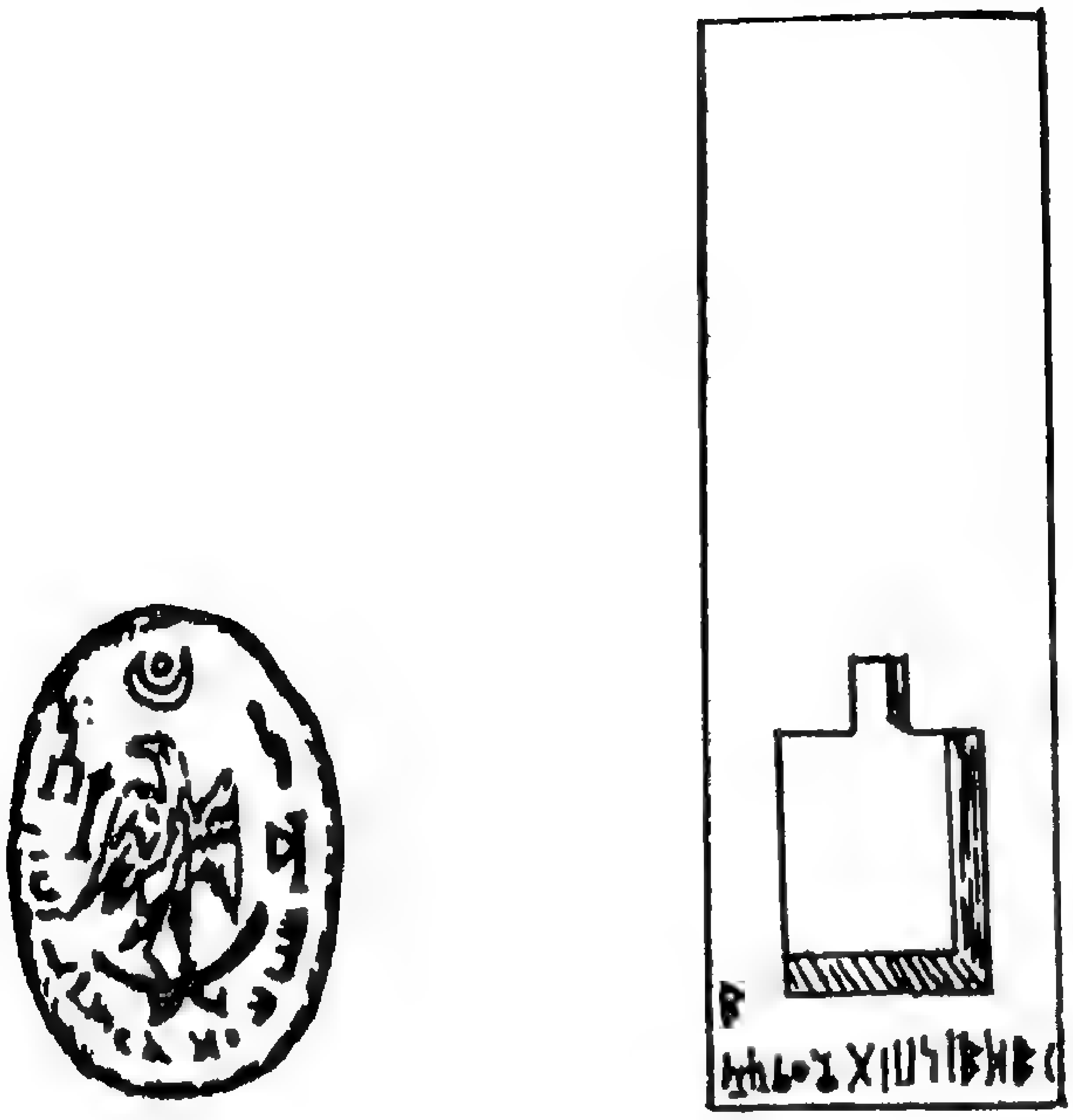

شكل (٩)

أ ـ نصب من مأرب

ب ـ حجر كريم سبأي بالمتحف البريطاني

عن: السيد عبد العزيز سالم

شكل (١٠)

بلاد العرب قبل الاسلام

عن: مصطفى العبادي

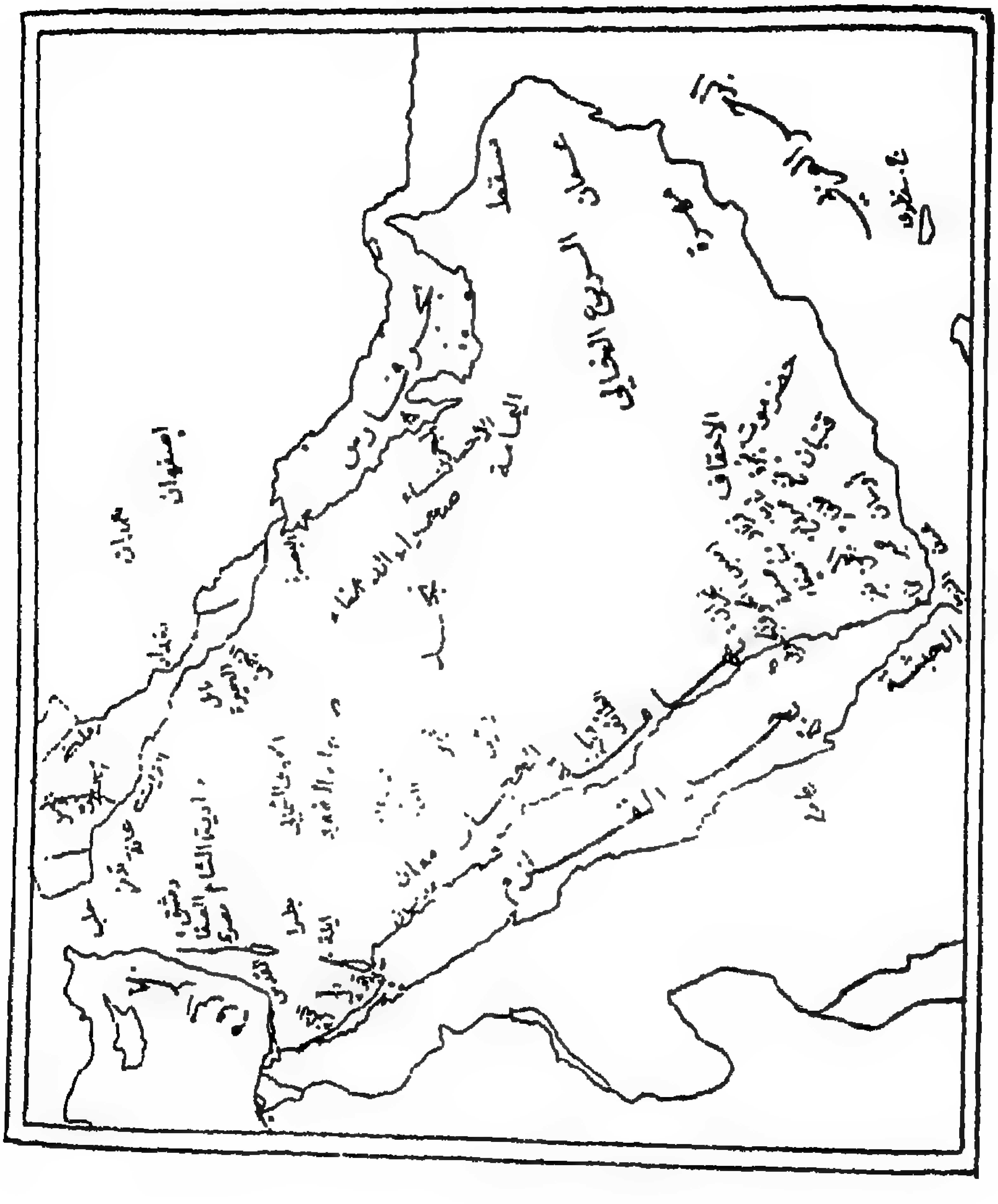

شكل (١١)

بلاد العرب

عن: سعد زغلول عبد الحميد. في تاريخ العرب قبل الاسلام

شكل (١٢)

اليمن والحبشة

عن: سبتينو موسكاتي. الحضارات السامية القديمة

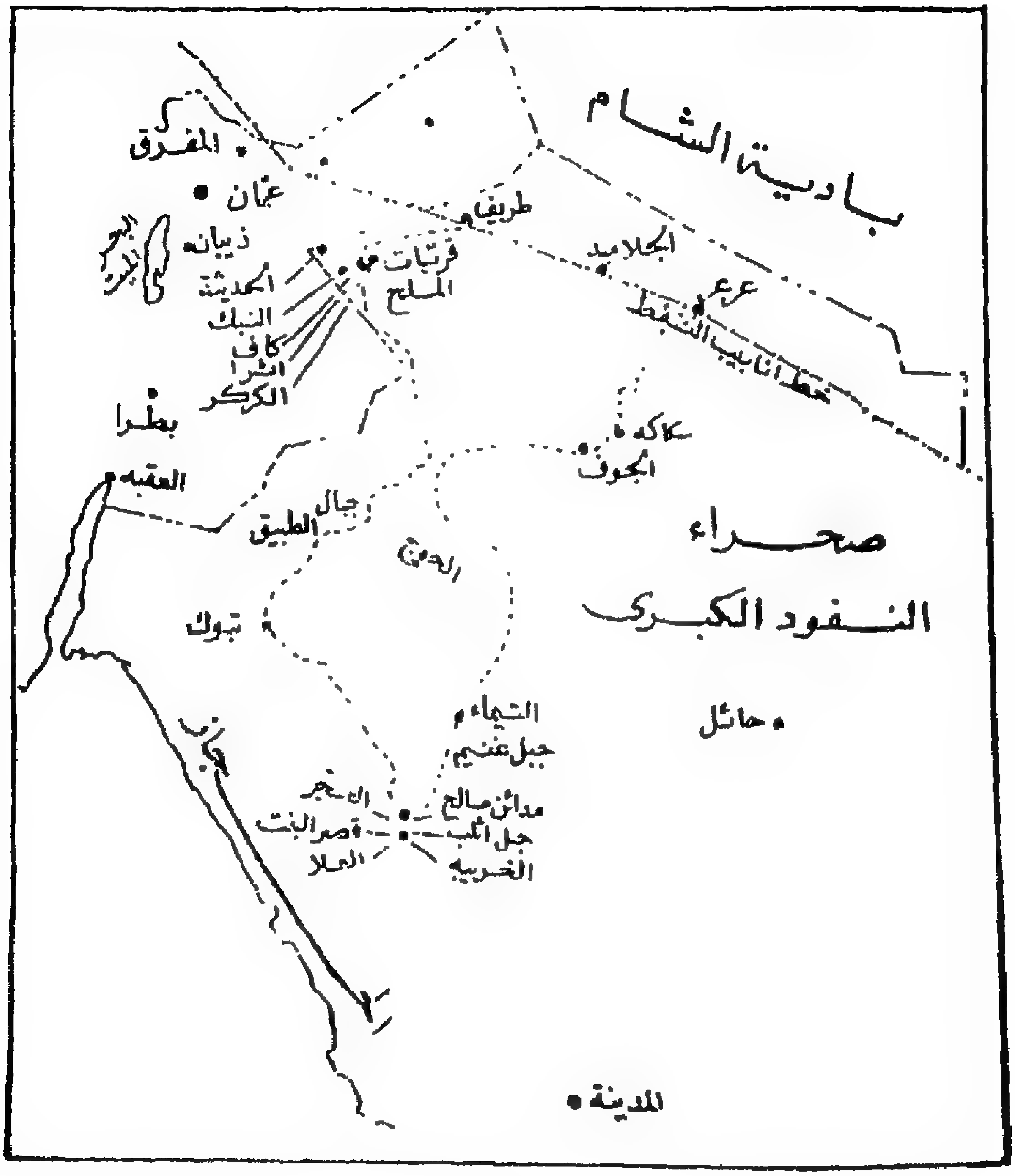

(شكل (١٣)

شمال الحجاز

عن: سعد زغلول عبد الحميد

مصادر
ومراجع الدراسة

اولاً: مصادر عربية

- القرآن الكريم.
- التوراة.
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٦٥.
- ابن الكلبي: كتاب الأصنام، نشره أحمد زكي باشا، الدار القومية، القاهرة ١٩٦٥.
- ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، بيروت ١٩٥٦.
- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، بيروت ١٩٧١.
- ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، بيروت ١٩٦٦.
- ابن كثير: قصص الأنبياء، القاهرة ١٩٦٨.
- ابن منظور: لسان العرب، بيروت ١٩٥٥.
- الطبري: تاريخ الطبري، القاهرة ١٩٦٠.
- الهمذاني: صفة جزيرة العرب، القاهرة ١٩٥٣.
- الزبيدي: تاج العروس، الكويت.
- عبيد بن شرية: أخبار عبيد بن شرية، ملحق بكتاب التيجان في ملوك حمير، حيدر أباد ١٣٤٧ هجرية.
- وهب بن منبه: كتاب التيجان في ملوك حمير، حيدر أباد ١٣٤٧ هجرية.
- ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت ١٩٥٥.

ثانيًا: مصادر لاتينية ويونانية

- Arianus, Anabasis, loeb.
- Diodorus Siculus, Loeb.
- Herodotus, Historiae, Loeb.
- Josephus, Jewish war, Loeb.
- Josephus, Jewish Antiquities, Loeb.
- The Perilpus Maris Erythraei, Text with introduction, Translation and Commentary, Princeton University Press 1989.
- Pliny, Historia Naturalis, Loeb.
- Ptolomy. Geography, Loeb.
- Strabo, Geography, Loeb.
- Theophrastos, Loeb.

ثالثاً: مراجع باللغة العربية

- إبراهيم أحمد رزقانة: العائلة البشرية، الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٤.
- أحمد الشامي: في تاريخ العرب والإسلام، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٢.
- أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، القاهرة ١٩٥٨.
- أحمد أمين: فجر الإسلام، القاهرة ١٩٤٥.
- أحمد أمين سليم: معالم تاريخ العرب قبل الإسلام، غير منشور، بيروت ١٩٨٨.
- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب في العصر الجاهلي (منذ أقدم العصور حتى قيام الدولة العربية الإسلامية)، دار النهضة العربية. بيروت ١٩٧٠.
- توفيق سليمان: الفن الحديث في التنقيب عن الآثار، منشورات الجامعة الليبية ١٩٧٢.
- تيودور نودكله: امراء غسان من آل جفنة، تعريب جوزي زريق، بيروت ١٩٣٣.
- جورجي زيدان: العرب قبل الإسلام، بيروت ١٩٦٦.
- جوردون تشايلد: التطور الإجتماعي، الألف كتاب، القاهرة ١٩٦٥.
- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت ٦٨ ـ ١٩٧١.
- حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم، دار المعارف، القاهرة ١٩٧١.
- حسين الشيخ: اليونان، الإسكندرية ١٩٩٢.

- رشيد الناضوري: المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني، بيروت ١٩٦٩.
- سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ترجمة السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٦٨.
- سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٥.
- سيد الناصري: المصريون والعرب وعلاقاتهم بإفريقيا في العصور القديمة، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٠.
- شوقي ضيف: العصر الجاهلي، القاهرة ١٩٦٠.
- صالح العلي: محاضرات في تاريخ العرب، الجزء الأول، بغداد ١٩٥٩.
- طه حسين: في الأدب الجاهلي، القاهرة ١٩٣٣.
- عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٧.
- عبد الرحمن الطيب الأنصاري: لمحات عن القبائل البادية في الجزيرة العربية، مطبوعات جمعية التاريخ والآثار بكلية الآداب جامعة الرياض، ١٩٦٩.
- عبد المعطى شعراوي: أساطير إغريقية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢.
- علي سامي النشار: نشأة الدين، النظريات التطورية والمؤلهة، الاسكندرية ١٩٤٩.
- عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، بيروت ١٩٦٤.

فوزي الفخراني: الرائد في فن التنقيب عن الآثار،منشورات جامعة قاريونس ١٩٧٨.
- فيليب حتي: تاريخ العرب، ترجمة ادوارد جرجي وجبرائيل جبور، بيروت ١٩٦٥.
- كامل الصليبي: التوراة جاءت من جزيرة العرب، ترجمة عفيف الرزاز.
- مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨٦.

- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، بيروت ١٩٤٨.
- كارل ماركس: بؤس الفلسفة، ترجمة أندريه يازجي، بيروت ١٩٦٦.
- لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة، الاسكندرية ١٩٩٢.
- محمد بيومي مهران: العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الإجتماعية، العدد السادس، الرياض ١٩٧٦.
- محمد بيومي مهران: إسرائيل، الاسكندرية ١٩٧٣.
- محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٩٧٧.
- محمد عبد الله دراز: المدخل إلى القرآن الكريم، الكويت ١٩٧٤.
- محمد عبد المعيد خان: الأساطير العربية قبل الإسلام، القاهرة ١٩٣٧.
- محمد عزة دروزة: تاريخ الجنس العربي، الجزء الأول، بيروت.
- محمد مبروك نافع: تاريخ العرب (عصر ما قبل الإسلام)، القاهرة ١٩٥٢.
- محمود طه أبو العلاء: جغرافية شبه الجزيرة العربية، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٥.
- مصطفى العبادي: تاريخ العرب قبل الإسلام، غير منشور، بيروت ١٩٨٤.
- نجيب ميخائيل إبراهيم: مصر والشرق الأدنى القديم (سورية)، دار المعارف ١٩٦٤.
- نيلسن: التاريخ العربي القديم (مجموعة أبحاث لـ: د. نيلسن، ف. هومل، ل. رودكاناكيس، أ. جرومان)، ترجمة فؤاد حسين، القاهرة ١٩٥٨.

رابعًا: مراجع بلغات أخرى

- W. F. Albright, The Bible and the Ancient Near East, London 1961.
- H. E. Barnes, A History of Historical writing, Dover publications, N. Y. 1962.
- Bennet Simon, Mind and Madness in Greece, Cornell 1978.
- J. H. Breasted, Ancient times, London 1921.
- J. H. Breasted, Ancient Records of Egypt, London 1906.
- Charles Pfieffer, The Beblical world, New york 1979.
- M. Carnforth, Historical Materialism, New york 1977.
- G. A. Cooke, Palmyra (in Encyclopaedia Biblica) 17. 1964.
- De Lacy O'leary, Arabia before Muhammed, London 1927.
- D. P. Dymond, Archaeology and History, A Plea for reconciliation, Thames and Hudson, London 1964.
- F. Engles, The origin of The Family , London 1952.
- George Divereux, Dreams in Greek Tragedy, Oxford 1976.
- N. Glueck, the Story of The Nabataeans, New york 1965.
- Gordon Child, What Happened in History, Penguin 1942.
- G. W. F. Hegel, The Philosophy of History, Dover Publications, New york 1965.

- James Sanders, Near Eastern Arhaeology in Twentieth Century, New york 1979.
- H. L. Jones, The Geography of Strabo, London 1949.
- Leonard wooley, Digging up The Past, London 1930.
- Luckenvill, Ancient Records of Assyria and Babylonea, Chicago 1927.
- Mommsen, Provinces of The Roman Empire, Vol. I, Oxford 1972.
- S. Moscati, Ancient Semitic Civilization, London 1957.
- A. Musil, Arabia Deserta, New york 1930.
- St. J. Philby, The Background of Islam, Alexandria 1947.
- g. Plekhamove, The Materialist Conception of History, Moscow 1946.
- V. Podosethik, A. Spirkin, A Glance at Historical Materialism, Moscow.
- Rose, Greek Mythology, Methuen 1935.
- M. Rostovtzeff, Social and Economic History of the Hellenistic world, Vol. I, Oxford 1945.
- A. Toynbee, Greek Historical Thought, Macmilan 1924.
- Wendell Philips, Qataban and Sheba, London 1945.

الفهرس

مقدمة عن التاريخ والحضارة والآثار ٥
عن التاريخ ٧
عن الحضارة ٢٣
ثقافة أم حضارة ٢٣
المقوم الاقتصادي للحضارة ٢٤
المقوم السياسي للحضارة ٢٦
المقوم الأخلاقي للحضارة ٢٧
المقوم الفكري للحضارة ٢٨
عن الآثار ٣١

القسم الأول

الخلفية التاريخية ٣٧
الفصل الأول: المصادر ٣٩
المصادر الأثرية ٤١
المصادرالكتابية ٤٧
أولاً: كتابات غير عربية ٤٧
١ ـ كتابات يهودية ٤٧
٢ ـ كتابات كلاسيكية ٤٨
٣ ـ وثائق بردية ٥١
ثانياً: كتابات عربية ٥١

١ ـ القرآن الكريم ٥١
٢ ـ الحديث الشريف ٥٢
٣ ـ الشعر الجاهلي ٥٣
٤ ـ كتاب التاريخ الإسلامي ٥٤
الفصل الثاني: الأرض والسكان ٥٧
أولاً: الأرض ٥٩
ثانياً: السكان واللغة ٦٥
ثالثاً: القبائل العربية ٦٩
الفصل الثالث: دول شبه الجزيرة العربية ٧٣
أولاً: دولة معين ٧٥
ثانياً: دولة حضرموت ٧٩
أهم مدن حضرموت ٨٢
ثالثاً: دولة قتبان ٨٥
رابعاً: دولة سبأ ٨٩
أصل السبأيين ٩٣
مراحل التاريخ السبئي ٩٤
سياسة سبأ الداخلية في عهد المكاربة ٩٧
سياسية سبأ الخارجية في عهد المكاربة ١٠٤
سياسة سبأ الداخلية في عصر الملوك ١٠٧
السياسة الخارجية ١١٠
خامساً: الأنباط ١١٧
سادساً: تدمر ١٤٣
سابعاً: الغساسنة ١٥٧
ثامناً: مملكة كندة ١٦٥

القسم الثاني

الخلفية الحضارية ١٧٣
الفصل الرابع: العلاقات الخارجية ١٧٥

العلاقات العربية المصرية ١٧٧
نحاس سيناء ١٧٨
اللبان ١٧٩
اتصال العرب بالسومريين ١٨٠
توغل الأشوريين في البادية ١٨١
صلة العرب بالكلدانيين ١٨٣
اتصال العرب بالعبرانيين ١٨٤
العرب في آداب اليونان والرومان ١٨٥
الحملة الرومانية ١٨٦
الفصل الخامس: الفكر الديني العربي القديم ١٨٩
أولاً: الأسطورة ١٩١
ثانياً: الدين والأسطورة ١٩٥
ثالثاً: الفكر الديني ٢٠١
ملحق الأشكال ٢٠٩
مصادر ومراجع الدراسة ٢٢٥
أولاً: مصادر عربية ٢٢٧
ثانياً: مصادر يونانية ولاتينية ٢٢٩
ثالثاً: مراجع باللغة العربية ٢٣١
رابعاً: مراجع بلغات أخرى ٢٣٥